موسوعة
المجتمعات الدينية
في الشرق الأوسط

طوني مفرّج

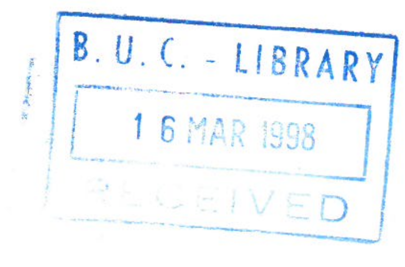
نوبليس

طوني مفرج

مَوسُوعَة
المجتمعات الدينية في الشرق الاوسط

المجلد الخامس

الشيعة (١)



دار نوبيليس

نوبيليس
الأشرفيّة - بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٥

محتوى المجلد الخامس

الفصل الأوّل

نشأة الشيعة في الإسلام

- بداية التشيّع
- مناخ الثورة
- مشايعة في البصرة وفي مصر
- عناصر الثورة
- إنعكاسات الثورة

هلك فيَّ رجلان : محبٌّ غالٍ، ومبغض قال[1]

الإمام علي

بداية التشيّع

جاءَ اسم الشيعة من «المشايعة» بمعنى المتابعة. وقد سمّي الشيعة بهذا الاسم لأنّهم يشايعون عليّاً وأهل بيت الرسول[2].

من هنا اتخذوا التسمية، وهنا تبدأ قضيّتهم[3].

عندما انتقل الرسول من هذه الفانية، لم يُسمِّ خلفاً له في قيادة المسلمين. وكان لا بدَّ من قائد. فالإسلام، دين ودولة. ولقد كان من المستحيلات أن يستمرّ الإسلام بلا قيادة. وهذا ما أدركه كبار الصحابة وسط الذهول الذي سيطر على أهل المدينة حين قبض الرسول.

إنَّ من يتعمّق في مدوّنات الأحداث التي جرت في المدينة إثر الحدث الجلل، بشأن الخلافة، يستنتج أنّ ابن عم الرسول: عليّ بن أبي طالب، بخلال اهتمام الصحابة والأنصار والمهاجرين بموضوع الخلافة، كان مأخوذاً بالمصاب. فإنّ محمّداً، كان أكثر من ابن عم، وأكثر من صديق، وأكثر من أب لزوجته وجدّ لأولاده، لقد كان مربّيه. فيوم توفّي عبد المطّلب، جدّ محمّد وعليّ لوالدهما، وكان محمّد في حوالى الثامنة من عمره، وكان والده، عبد الله، قد مات منذ زمن بعيد[4]، كما

---

١ - ألف كلمة مختارة لسيّد البلغاء وإمام الفقهاء عليّ بن أبي طالب، دار الاندلس (بيروت ١٩٨٠) حكمة ١٢٣ ص ٢٨ ؛ جاء في شرحها، الغالي: المتجاوز الحل في حبّه بسبب غيره، أو دعوى حلول اللاّهوت فيه أو نحو ذلك. والقالي: المبغض الشديد البغض.

٢ - محمّد المهدي الحسيني الشيرازي، هكذا الشيعة، مطبعة الآداب، (النجف ١٣٨٣ هـ) ص ٤

٣ - راجع: الجزء الثالث من هذه الموسوعة بعنوان «السنّة»، الفصل الثالث: فقرة عليّ.

٤ - اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة عبدالله. فمنهم من ذكر أنه توفي قبل أن يولد محمّد بوقت قصير، ومنهم من ذكر أن موته كان بعد ولادة محمّد بشهر، ومنهم من قال إنه مات في السنة الثانية لمولد محمّد. راجع: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة B. de Meynard et P. de Courteille تنقيح وتصحيح Charles Pellat (بيروت ١٩٦٦) فقرة ١٤٥٩: ٥ - ١٣٠

ماتت أمّه آمنة وهو في السابعة من عمره، ضمّ أبو طالب، ابنَ اخيه محمّداً إليه، وعامله كولده. يومها، لم يكن عليٌّ قد وُلد بعد.

ويوم بدأ الرسول يتلقّى الوحي، وهو في الأربعين، كان لعليّ إحدى عشرة سنة. وهو في ذلك اليوم العصيب، يوم قُبض الرسول، كان ابن أربع وثلاثين سنة، ما عاش يوماً منها إلاّ في نطاق الرسول. وإذا اختلف الناس في أمور كثيرة، ليس أقلّها أحقيّة الخلافة، فلا يستطيع إثنان عاقلان أن يختلفا في أنّ موت محمّد، كان بالنسبة لبعضهم موت رسول، ولبعضهم الآخر موت رسول وقريب، إلاّ أنه بالنسبة لعليّ، كان أكثر من ذلك، لقد كان موت مربّ، وأخ، وحبيب. فلم يكن بين الرجال من هو مرشّح للحزن على محمّد، الإنسان، أكثر من عليّ، ولم يكن بين النساء أكثر من ابنة الرسول، زوجة عليّ: فاطمة.

قُبض الرسول، فكان الأمر، وكان عليّ، وقد صهر قلبه الحزن والأسى، يعمل على تجهيز الجثمان.

وكان في دار العبّاس، عمّ الرسول وعليّ، وقد أدرك بحنكته، رغم الأسى، أنّ أمر الخلافة لا يجوز أن يُهمل. ولم يتوانَ ذلك الشيخ الجليل عن تجاوز العاطفة لمصلحة العقل. فالتفت إلى ابن أخيه الحيّ، وهو مأخوذ بابن أخيه الميت، وخاطبه بصوت وصل إلى آذان الحاضرين، قائلاً: «أمدد يدك أبايعك فيقول الناس: عمّ رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان».

غير أنّ عليّاً، أهمل حتّى أن يرفع بصره عن الجثمان، وقال: «لنا برسول الله يا عمّ شغل».

ولقد كان ما خشيه العبّاس. وبويع أبو بكر خليفة في يوم موت الرسول، وجُدّدت له البيعة على العامّة في اليوم الثاني، وإذ جاء أبو بكر يطلب المبايعة من عليّ، قال ابن أبي طالب معاتباً: «أفتَّ علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترعَ لنا

حقّنا؟»، فكانت حجّة أبي بكر، أنّه استعجل الأمر، لأنّه خشي الفتنة[1]. وربّما كان أبو بكر في ذلك محقّاً.

لم يكن عليّ، العاتب الوحيد من أهل بيت الرسول. ذلك أن أحداً من بني هاشم، لم يبايع أبا بكر.

ولم يكن يخامر عليّاً أيّ شكّ، وهو في صدد تجهيز جثمان الرسول، في أنّ المؤمنين سيحفظون كرامة أهل البيت. لقد كان واثقاً من أنّهم لن يحيدوا عن آل الرسول. يتّضح ذلك، ليس فقط من ردّه على عمّه أبي العبّاس، فإنّ ردّه على شيخ بني أميّة الذي جاء البيت عند علمه بوفاة الرسول، ونفسه تفيض بالحزن والأسى، كان أوضح في هذا المجال. فعندما قال له الشيخ: «يا أبا الحسن، هذا محمّد قد مضى إلى ربّه وهذا تراثه لم يخرج عنكم فابسط يدك أبايعك فإنّك لها أهل» ردّ عليّ: «يا أبا حنظلة، هذا أمر لا يُخشى عليه».

ما اطمأنّ شيخ بني أميّة، ولا اطمأن العبّاس الذي كان حاضراً، لجواب عليّ. غير أنّ عليّاً كان مطمئنّاً.

ويعود أبو العبّاس، محاولاً: «يا ابن أخي، هذا شيخ قريش قد أقبل. فامدد يدك أبايعك ويبايعك معي، فإنّا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعتك عبد مناف لم يختلف عليك قرشي، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد في العرب».

هنا، أفصح عليٌّ عمّا كان يجول في نفسه، وقد يكون في هذا الإفصاح تعبير، ليس فقط عن موقف عليّ، ولكن أيضاً عن حقيقة نفسيّة ذلك الرجل، الذي أصبح فيما بعد واحدة من أكبر القضايا في الشرق العربيّ وفي دنيا الإسلام. قال: لا والله يا عمّ، فإنّي أريد أن أصحر بها. وأكره أن أبايع من وراء رتاج».

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٥١٧: ٤ - ١٨٢؛ والفصل الثاني من الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

وإذ أبى ابن أبي طالب أن تكون مبايعته شبه فرضيّة وسرّية وانتهازية، كان الأنصار والمهاجرون قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وبايعوا أبا بكر.

وهذا ما أزعج علياً مرّتين: مرّة لأنّ أمر الخلافة عند هؤلاء الناس قد طغى على أمر المصاب، ومرّة لأنّه اعتبر أنّ الخلافة قد اختُلست منه اختلاساً. وقد يكون هذا الحدث الذي طبع حياته، هو الذي أوحى إليه بإحدى حكمه: «لا يُعاب المرءُ بتأخير حقّه، إنّما يُعاب من أخذ ما ليس له[1]».

***

كان أوّل صدام بين عليّ، ومن اعتبرهم بأنّهم «أخذوا ما ليس لهم» ذلك الذي حصل في بيت زوجته، بنت رسول الله، فاطمة، بعيد تلك الأحداث بقليل.

فلقد بلغ أبا بكر، وحليفيه عمر بن الخطّاب وأبا عبيدة ابن الجرّاح، أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع عليّ بن أبي طالب في منزل فاطمة. وإذ كان الخليفة الجديد، وحليفاه، قد يئسوا من اقناع كبار الهاشميّين بالمبايعة، ورأى عمر، بأن لا بدّ من الحصول على مبايعة بني هاشم، باللين أو بالشدّة، وقد توجّسوا خيفة من تحلّق بعض المهاجرين والأنصار حول عليّ، ورأوا في ذلك إيذاناً بالتمرُّد على الخلافة، شنّ عمر بن الخطّاب هجوماً على بيت عليّ، وزوجته فاطمة، على رأس جماعة من أنصار الخليفة الجديد. وهنا هبَّ عليّ بسيفه ملاقياً عمر، وتصارع الرجلان، في مجلّد السنّة صفحة ٤٤، وفي رواية الحادثة نفسها، ذُكر أن عمر هو الذي كسر سيف عليّ. بيدَ أنّ المهاجمين دخلوا الدار، مما اضطر ابنة الرسول إلى أن تواجه القوم غاضبة: «والله لتخرجنَّ أو لأكشفنَّ شعري ولأعجّنَّ إلى الله!» ... فخرجوا[2].

وبقي عليّ، حوالى الأشهر الستّة، معتزلاً عن الشؤون العامّة، مؤثراً عدم الظهور، على انقسام المسلمين، إلى أن توفّيت فاطمة، تاركة له الحسن والحسين، وثلاث بنات.

١ - ألف كلمة مختارة، حكمة ١٦٩ ص ٣٣.

٢ - راجع: تاريخ اليعقوبي، طبعة صادر - بيروت، ج ٢ ص ١٢٦

لا نعلم ما هو الرابط بين وفاة فاطمة، ومبايعة عليّ لأبي بكر. إنّما ندرك، من خلال المدوّنات، أنّ علياً أعلن عن مبايعته للخليفة الأوّل، في مسجد الرسول بالمدينة، وأسدل ستاراً على الماضي، داعياً آله ومن تخلّف من أنصاره وأعوانه عن البيعة، لأن يبايعوه.

وبذلك حال عليّ دون الانشقاق. واستأنف الإسلام مسيرته المظفّرة في عهد الخليفة الاول (٦٣٢ - ٦٣٤) الذي أوصى بالخلافة من بعده لعمر بن الخطّاب (٦٣٤ - ٦٤٤) دون اعتراض من عليّ. لا بل نلاحظ أنّ علياً لم يمانع في أن يزفّ ابنته من فاطمة، شقيقة الحسن والحسين: أمّ كلثوم، إلى الخليفة عمر يوم طلبها منه، إذ «أراد أن يكون له سبب وصهر برسول الله[1]». غير أنّنا نلاحظ، في الوقت نفسه، أنّ علياً لم يعد ذلك المتحمّس في ميادين القتال كما كان أيّام الرسول، ولكنّه انقطع إلى الزهد والحكمة والقضاء، رغم أنّ عمره، في بداية عهد عمر، لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين. وستبيّن الأحداث فيما بعد أنّ علياً كان لا يزال ذلك المقاتل الصنديد، الذي لم يستعمل قدراته تلك أيّام الخلفاء الثلاثة الذين فصلوا بين عهد الرسول، وعهده.

هدأت مشكلة الخلافة طوال عهد عمر. إلاّ أنّ أمراً كان يلوح في الأفق عند السؤال: ماذا بعد عمر؟!

وكان أفضل مَن عبّر عن هذا القلق، الخليفة نفسه، الذي راح في إحدى الليالي يكاشف ابن العبّاس بهموم الخلافة من بعده. وبعد أن استعرض وإيّاه بضعة أسماء، لم يجد الخليفة في أيّ من أصحابها المؤهّلات الواجب توفّرها في من سيخلفه. كان الكلام على عليّ، وبانفعال، عبّر عمر عمّا في نفسه، وربّما عمّا كان في نفوس شيوخ المدينة يومها، فقال: «إنّ علياً... لأحقّ الناس بها، ولكنّ

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١٤٩

قريشاً لا تحتمله، ولئن وُلّيهم ليأخذنّهم بمرّ الحقّ لا يجدون عنده رخصة؛ ولئن فعل لينكُثُنَّ بيعته ثمّ ليتحاربُنّ[1] ».

هذه النبوءة العمريّة التي تحقّقت، لا بدّ من أنّه كان وراءها أكثر من حدْس. فإنّ ذلك الخليفة الشيخ، الشديد الذكاء، والذي صاحب أهل البيت والصحابة والمهاجرين، كان يدرك تماماً ما في النفوس، وكان عليماً بالنوايا، ومطّلعاً على المكنونات والضمائر. فإنّ قريشاً، لم تكن لتتحمّل صرامة عليّ ومساواته بين الكبير والصغير، والمداهنة ليست من خصاله، والسياسة عنده، ليست سوى تطبيق للشريعة والعدل والكتاب.

على أنّ هذه الخصال، إذا لم تكن من مصلحة قريش، أو بعض قريش، لأنّ مساواتها بالأبعدين والعامة وحتّى بالموالي الذين اعتنقوا الإسلام، ليست لمصلحتها الدنيويّة، فهي كانت لمصلحة الأبعدين الذين تطلّعوا إلى المساواة تطلّع الملهوف إلى الحقّ والعدالة، بل والحرّيّة. كما أنّ فئة أخرى كانت ترى في عليّ صاحب الحقّ دون سواه، هي تلك التي قدّست البيت، وجلّته، وخصّته بهالة من العظمة والكبر. وكان هنالك أيضاً أولئك الذين افتُتنوا ببطولة عليّ، في الوقعات التي خاضها أيّام كان الرسول يشقُّ أسس الإسلام وسط الخضمّ الجاهليّ، وقد زاد هؤلاء إلى بطولات الفتى حكايات، وبعض أساطير، شأنهم في ذلك شأن كل مفتتَن ببطل.

وما استطاع عمر أن يحمّل روحه مسؤوليّة التعيين، فترك الأمر لهيئة شورى، قوامها ستّة، من بينهم عليّ، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف الزهريّ[2].

وعرف الزهريّ كيف يعالج الأمر بشكل يحول معه دون تولية عليّ. وقد يكون دافعه إلى ذلك، الحؤول دون إغضاب أولئك الذين «لا يحتملونه»... بحسب تعبير عمر. فأحرج الزهريّ عليّاً حتّى أخرجه. ولكنّ الانقسام كان ليحصل على أيّ حال. فبتولية عثمان، برزت المعارضة غاضبة من قبل أنصار عليّ، وبتولية

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٥٩
٢ - راجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة، ص ٧٧ وما بعدها.

عليّ، بعد عثمان، برزت المعارضة غاضبة أيضاً ضدّ عليّ، وفي الحالتين ما كان بدٌّ من الاقتتال.

غير أنّ مشايعة عليّ، كانت قد بدأت صارخة بعهد عثمان. وإذ لا بدّ من تحديد تاريخ بدء التشيّع، فما من شك في أنّ التاريخ العمليّ الصحيح لهذا البدء، كان في حياة عثمان، وليس بعد مقتله. ولكن نشوء الشيعة بالمعنى الكامل، سوف يتطلّب ردحاً من الزمن.

مناخ الثورة

ما أن بويع عثمان بن عفّان، حتّى تفجّر الرفض في قلوب أنصار عليّ، إفراديّاً في بادئ الأمر، وسرعان ما صار يتجمّع.

بالإمكان تكوين الصورة من خلال جمع أجزائها من هنا وهناك.

نصادف جزءاً من تلك الصورة في مسجد الرسول بالمدينة، بُعيد الخطبة الأولى لعثمان، حيث كان «رجل جاثياً على ركبتيه يتلهّف تلهّف من كأنّ الدنيا كانت له فسُلبها. وهو يقول: ـ واعجباً لقريش، ودَفْعهم هذا الأمر على أهل بيت نبيّهم، وفيهم أوّل المؤمنين، وابن عمّ رسول الله أعلم الناس وأفقههم في دين الله، وأعظمهم غناءً في الإسلام، وأبصرهم بالطريق، وأهداهم للصراط المستقيم، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقيّ، وما أرادوا إصلاحاً للأمّة ولا صواباً في المذهب، ولكنّهم آثروا الدنيا على الآخرة، فبُعداً وسحقاً للقوم الظالمين[1] ـ»...

كان ذلك الرجل، أحد الصحابة، وواحداً من المبكّرين في اعتناق الإسلام. واذ أجّج كلامه هذا الحميّة في النفوس، دنا منه بعضهم، داعياً اياه... للثورة بقوله: «ألا تقوم بهذا الأمر فأعينك عليه؟». ولكنّ ذلك الصحابي كان مدركاً للواقع، فقال آسفاً: «إن هذا الأمر لا يجري فيه الرجل ولا الرجلان[2]».

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ١٦٣؛ المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٥٩٩: ٤ ـ ٢٧٦
٢ - المرجع السابق.

لم يكن المقداد، يومها، أبرز الرافضين لإقصاء عليّ، وإن كان كلامه في مسجد الرسول معبّراً. بل كان هناك كثيرون، ربّما أشهرهم، أبو ذرّ الغفاري، وهو جندب بن جنادة، الصحابي، وأحد أقدم المؤمنين، وواحد من القلّة الذين نوّه الرسول بتقواهم.

كان أبو ذرّ أصوليّاً في ديانته، وكان نصير الفقراء والمساكين، وكاره الأغنياء والماديّين. وتُفيدنا الروايات عن أنّه أزعج عثمان في مواقفه المتطرّفة في هذا القبيل، فلجأ الخليفة إلى طرده من المدينة، إلى بلاد الشام، حيث كان قريب عثمان: معاوية، والياً.

وهناك، أكمل أبو ذرّ دعوته في المساجد، حيث راح الفقراء والصعاليك يجتمعون إليه، وهو يهاجم الخارجين على الدين بطلب الدنيا، مما جعل معاوية يراسل الخليفة بأنّ «أبا ذرّ تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك. فإن كان لك في القوم حاجة فأحمله إليك». وإذ وافق الخليفة على نقل أبي ذرّ إليه، أرسله معاوية ذليلاً، مهاناً، ومعذّباً، إلى المدينة.

حاول عثمان تطييب خاطر أبي ذرّ بأن أكرمه وأمر بمعالجته حتّى برئ، وعاد إلى مجلس الخليفة كما كان قبل أن يطرده إلى بلاد الشام، بيدَ أنه عاد كما كان: أصوليّاً، ناقداً الشطط، لا يساير. ومرّة ثانية أمر الخليفة بطرده، ولكن، إلى الربذة، فكان هذا بمثابة نفي. حتّى إنّ الخليفة أمر الناس بعدم محادثة أبي ذرّ وهو في طريقه إلى منفاه بحراسة الجند، وعلى رأسهم مستشار الخليفة الأقرب: مروان ابن الحكم. لكنّ عليّاً تمرّد على أمر الخليفة، وأبى إلاّ أن يشيّع أبا ذر إلى خارج المدينة، بعد أن استهان بمروان وبمحاولته منعه من محادثة أبي ذرّ[1]. فكان هذا الحادث سبباً لتعمّق الجفاء بين الخليفة وعليّ من جهة، ولنموّ مناصرة عليّ من قبل

---

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٥٩١ - ١٥٩٧، ٤ - ٢٦٦/٢٧٤؛ وراجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة ص ٨٥ وما بعدها.

أولئك الذين كانوا يرون في أبي ذرّ نصيراً للفقراء والمساكين من جهة ثانية. في وقت كان عثمان، وعمّاله، يسلكون مسلك التبذير من بيت مال المسلمين، وقد اختلف هذا الخليفة عن سابقَيه اللذين اعتمدا التقشّف والبعد عن الدنيويّات في خلافتيهما.

مشايعة في البصرة... وفي مصر

وبينما كانت تصرّفات عثمان تزيد في عدد المشايعين لعليّ في المدينة، كانت أحداث أخرى تحصل في بداية الأمر في البصرة، لتمتدّ فيما بعد إلى مصر، فتزيد هناك أيضاً في حزب عليّ ومشايعيه عدداً وقدرة.

كان أبو موسى الأشعريّ والياً على البصرة من عهد عمر بن الخطّاب، وهو حين دخل البصرة، صحبه تسعة وعشرون سيّداً من سادة قريش ليستعين بهم في الحكم دون أهل البصرة.

كان الأشعريّ في بداية أمره ينزع إلى الزهد. ولكنّه، وهو في هذا المنصب في عهد عثمان، مال الى البذخ والترف، ونزعت نفسه الى حبّ المال، فجمع ثروة كبرى، قد لا تكون بحجم كلّ من الثروات التي جمعها سائر عمّال عثمان، ولكنها لم تكن على أيّ حال ليستهان بها. فعمّ البصرة استياء وتذمّر، ونفوس أبنائها تنزع في سوادها إلى الزهد والتقشف، فرأوا في أبي موسى إذ ذاك انحرافاً عن الفطرة الإسلامية، وميلاً عن تعاليم الإسلام ونهجه القويم. وإذ ألحّ أهل البصرة على عثمان، استبدل بالأشعريّ ابنَ خاله اليافع: عبد الله بن عامر، الذي كان لا يزال في الخامسة والعشرين. لكنّ هذا الوالي الجديد الذي رحّبت به البصرة، وإن أثبت أنه جدير بقيادة الحروب التي خاضها في فارس، فهو لم يكن صاحب دراية وحنكة في السياسة. فلمّا قامت في البصرة دعوة، يصفها الشيعة اليوم، بأنّها هدّامة، لم يستطع ابن عامر أن يقضي عليها في مهدها، وأن يحول دون

انتشارها[1] . تلك كانت دعوة «ابن السوداء عبد الله بن سبأ» التي عرفت فيما بعد بالسبئيّة.

كان ابن سبأ، يهوديّ الأصل، من صنعاء. يقول الشيعة، إنّه «نزل حاضرة الإسلام فتظاهر بإسلامه، وتغلغل بين صفوف الجماهير الإسلاميّة، فعرف مراميهم ومقاصدهم، وعرف أنّ منصب الخلافة أصبح واهي الدعائم تحت عثمان، وعرف أنّ النفوس تنزع إلى عليّ بن أبي طالب، وهو الرجل الذي يريد أن يستغلّ اسمه في فكرته الجديدة ومذهبه الجديد وإن كان هو (أي عليّ) لا يتقبّلها ولا تنطلي عليه وإن كانت تهدف إلى توليته وتنصيبه. ولعلم هذا السبئيّ بأنّ تربة المدينة لا تصلح لبذر فكرته ومذهبه، فلا بدّ من أن يجد لها تربة خصبة تنمو فيها وتؤتي أكلها. إنّه وإن كان في المدينة من يتقبّل الفكرة ما دامت تقوم على رفع شأن عليّ، ولأنّ في المدينة كثيرين ممن يحبّونه ويوالونه، غير أن علياً ما أن يسمع بها حتى ينهض لمحاربتها لأنّه لا يريد أن يرتفع، في المناصب، عن طريق البدع والافتراءات. ورأى ابن سبأ أنّ خير تربة لفكرته هي التي تكون بعيدة عن مرأى علي ومسمعه. إذن فليس غير البصرة بعيدة عنه، وبعيدة أيضاً عن مناهضة الدولة وقضائها على كلّ دعوة تقوم مخالفة للحكم القائم، خصوصاً إذا كان فيها ما يمسّ الخلافة من قريب أو بعيد ...».

وينتقل هذا الاستنتاج الشيعيّ إلى اعتبار أنّ ابن سبأ، اختار البصرة، لنشر دعوته، لأنّها إضافة الى الأسباب التي ذُكرت، تضمّ «أذهاناً تتقبّل الفكرة ما دامت غايتها الظاهرة القضاء على الحكم القائم الذي انحرف عن تعاليم الشريعة الغرّاء، وعامل الناس بغير العدالة والمساواة الإسلاميّة التي آخت بين الناس وألغت الفوارق بينهم[2]» ...

١ ـ الامام عليّ وفضائله، دار مكتبة الحياة (بيروت) ص ٩٢ ـ ٩٣
٢ ـ الامام علي وفضائله، ص ٩٤

وبينما يردّ البعض وضع أسس مبادئ الشيعة إلى ابن سبأ، الذي أخذ بمذهب الوصاية، فقال إنّ «عليّا وصيّ محمّد، وإنّه خاتم الأوصياء بعد محمّد، خاتمة النبيّين...»، كما قال أيضاً «إنّ عليّا هو الخليفة بعد النبيّ، وإنّه يستمدّ الحكم من الله[1]»، يتبرّأ الشيعة من هذا الداعية، ويلقبّونه باليهوديّ الأسود الذي كان يخطّط لهدم الإسلام.

على أيّ حال، فإنّ دعوة ابن سبأ، لاقت آذاناً صاغية في البصرة، خاصة لجهة دعوته لإمامة عليّ وخلافته. إذ راح يُعيد على الناس ما نُسب إلى الرسول من أنّه «وقف بين الألوف المؤلّفة في حجة الوداع، عند غدير خمّ، يستظلّ حرارة الشمس الملتهبة بثوب عُلّق على شجرة، وهو ينادي قائلاً: ـ أيّها الناس مَن أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ـ ، فهتفت الأصوات من كلّ صوب تجيب: ـ الله ورسوله أعلم ـ . فيقول الرسول: ـ إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم ـ . ثمّ أخذ بيد عليّ وهو إلى جانبه فرفعها حتّى بان بياض إبطيهما وأردف يُتمّ الحديث: ـ فمن كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه[2] ـ».

وعندما استفاق والي البصرة الشاب، ابن عمر، من غفلته، كانت دعوة ابن سبأ قد ملأت قلوب الناس، وكان رسله قد تفرّقوا في البلاد ينشرون مذهبه، ويدعون لولاية عليّ، قائلين بأنّ «عثمان قد أخذها بغير حقّ». وإذ خشي والي البصرة من مغبّة القضاء على ابن سبأ، نفاه. فتوجّه الداعية إلى الكوفة، حيث سارع إلى بثّ دعوته، وقد لاقى فيها التجاوب نفسه من الشعب، والمصير نفسه من الوالي، إذ نفاه سعيد بن العاص، فتوجّه إلى الشام، حيث كان النفي بانتظاره على يد معاوية الذي حرّم عليه المكوث في كلّ البقاع التابعة لولايته. وينتهي المطاف بابن سبأ في مصر، حيث راحت دعوته تنمو وتنتشر حتى أصبحت مصر مقرّاً

١ ـ سليمان مظهر، قصّة الديانات، دار الرقيّ (١٩٨٤) ص ٤٩٧
٢ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ١١٢

رئيساً للسبئيِّين، أتباع ابن سبأ، نظرياً، وشيعة عليّ، عملياً، وإن كانت الشيعة لا تقرّ بتعاليم ابن سبأ كما بشّر بها.

وفي المدوّنات أنّ بعضهم، من أنصار ابن سبأ «ذهب إلى عليّ بن أبي طالب وقالوا له: ـ أنت هو ـ قال عليّ: ـ ومن هو؟ ـ قالوا له: ـ أنت الله ـ. وغضب عليّ وأمر بنار أوقدت، وأمر مولاه بأن يُلقي بهؤلاء الرجال في النار، وبينما كانوا يساقون إلى النار كانت أصواتهم ترتفع لتقول: ـ الآن صحّ عندنا أنّه الله[1]ـ.

وعندما مات عليّ قال السبئيّة بأنه سيرجع مرة أخرى... وإنه هو المهديّ المنتظر. وقال ابن سبأ لمّا بلغه مقتل عليّ: «لو أتيتموني برأسه سبعين مرة ما صدّقنا موته. ولا يموت حتّى ينزل من السماء، ويملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً».

وقال السبئيّة «إن المقتول لم يكن علياً وإنّما كان شيطاناً تصوّر للنّاس في صورة عليّ، وإنّ علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم وعندما يعود سيجيء من السماء. وقالوا أيضاً إنّ الرعد صوت عليّ والبرق نوره. حتّى إنّهم عندما كانوا يسمعون صوت الرعد كانوا يهتفون: ـ عليكَ السلام يا أمير المؤمنين[2]ـ».

عناصر الثورة

فيما يفصل الشيعة بين دعوة ابن سبأ، ودعوة أبي ذرّ الغفاري، يعتبر بعض مؤرّخي السنّة أنّ أبا ذرّ الغفاري «قد أشعل الثورة بتحريض ابن سبأ».

ويظهر هذا التحريض من خلال بعض المدوّنات، ومنها أنّ «ابن السوداء (ابن سبأ) لمّا ورد إلى الشام، لقي أبا ذرّ فقال: ـ يا أبا ذرّ ألا تعجب من معاوية

---

١ ـ راجع: سليمان مظهر، ص ٤٩٧

٢ ـ المرجع السابق، ص ٤٩٨

يقول: المال مال الله؟! ألا إنّ كل شيءٍ لله؟! كأنّه يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين!ـ. فأتاه (أتى أبو ذرّ معاوية) فقال: ـ ما يدعوك أن تسمّي مال المسلمين مال الله الساعة؟ ـ قال: يرحمك الله يا أبا ذرّ! ألسنا عباد الله والمال له؟ ـ قال: ـ فلا تقله! ـ قال: سأقول مال المسلمين[1]ـ».

وإذ ليس من شكٍّ في أنّ أبا ذرّ كان من أنصار عليّ، إلاّ أنّ مقالاته وخطبه المدوّنة، تخلو من القول بما قالته السبئيّة «برجعة محمّد» وبأنّ «محمّداً أحقّ بالرجوع من عيسى» وإن كان أبو ذرّ يقول، كما السبئيّة، بمبدأ «الوصاية» على أنّه لم يقل بألوهية عليّ، كما نُسب إلى ابن سبأ.

ومن شأن المدقّق أن يلاحظ بوضوح جوهر موقف أبي ذرّ، ونقمته، ودعوته بالتالي. فهو كان مؤمناً بعمق، ومتأثّراً بدعوة الرسول إلى الفقر والزهد والتقشف، ولا ريب في أنّ تبدّل نهج الإدارة الإسلاميّة في عهد عثمان، عمّا كانت عليه من تقشّف أيّام الرسول والخليفتين اللذين سبقا عثمان، قد أثار أبا ذرّ، الذي «كان يذهب إلى أنّ المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يُعده لكريم». ويأخذ بظاهر القرآن: (الذينَ يكنزون الذهب والفضّة ولا يُنفِقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم). فكان يقوم بالشام ويقول: «يا معشر الأغنياء واسوا الفقَراء، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم[2]».

هذا النهج الذي سار عليه أبو ذرّ الغفاري، أولعَ به الفقراء والصعاليك والمنبوذين، وأبغضه من الحكام والأغنياء. وإذ كان الغفاري من الداعين لعليّ بأحقّيّة الخلافة، فقد كان أنصاره من أتباع رأيه في أمر الخلافة، ومشايعة عليّ.

نلاحظ من خلال ما كان يجري في المجتمعات الإسلاميّة في عهد ثالث الخلفاء الراشدين، أنّ تيّارين، حتى الآن، قد نقما على الخليفة، الأوّل من منطلق

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر (بيروت ١٩٨٢) ج ٣ ص ١١٤؛

٢ ـ المرجع السابق، ص ١١٤

الرأي بأحقيّة عليّ بالخلافة، والثاني منطلقه إجتماعيّ - دينيّ، باعثه الفقر والحرمان. يُضاف إلى هذين التيّارين، تيّار ثالث، مبعثه أعجميّ فارسيّ، بحسب الباحثين في دقائق التاريخ الإسلاميّ، الذين يقولون بأنّه «إثر اتساع الفتح الاسلاميّ وتحريره أمما وشعوباً غير عربيّة وانضوائها تحت راية الإسلام، برزت ثقافات غيرإسلاميّة كانت ترتكز على عقيدة في الإله عند الفرس واليهود قوامها التجسيم والتشبيه والحلول والتناسخ وغير ذلك. وقد برزت هذه الثقافات في شكل أحقاد شعوبيّة وقوميّة... فتطورّت فكرة التشيّع حتى ظهر من يقول إنّ الأمامة ليست من المصالح التي تُفوّض إلى الأمّة، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبيّ إغفالها ولا تفويضها إلى الأمّة، بل يجب عليه تعيين إمام لهم، ويكون معصوماً... أي أن الخلافة عندهم ليست قضيّة تتّصل بالحريّة السياسيّة والحريّة الاجتماعيّة في الإسلام... بل قضيّة تتصل بالجذر التاريخيّ لها في بيت كلّ من كسرى وقيصر، وهو النّص والتعيين. وقد أدّى القول بهذا الاعتقاد في الساحة الإسلاميّة إلى القول بأمور منها: اعتقاد عصمة الأئمة، عليّ ومن يجيء بعده من ولده، فلا يجوز عليهم الخطأ، ولا يصدر منهم إلاّ الصواب. ومنها رفع مقام عليّ على غيره من الصحابة، كأبي بكر، وعمر، وعثمان[1]».

كلّ هذه الظروف، مُضافاً إليها بعض الأسباب القبليّة والعصبيّة والشخصيّة التي ذكرناها في موضوع خلافة عثمان، جعلت المناخ مؤاتياً للثورة الأولى في الإسلام: الثورة على عثمان، وقد باتت عناصرها أكثر من كافية[2].

إنعكاسات الثورة

لا يمكن اعتبار أنّ الثورة التي جرت في المدينة على الخليفة عثمان في السنة الخامسة والثلاثين لهجرة الرسول إليها (٦٥٦ م.) كانت ثورة للشيعة، أو لمشايعي

١ - راجع: الدكتور صابر طعيمة، الشيعة معتقداً ومذهباً، المكتبة الثقافية، (بيروت ١٩٨٨) ص ٣١ - ٣٢

٢ - راجع: الجزء الرابع من هذه الموسوعة، الفصل الثاني، العنوان الثالث: «عثمان والثورة» ص ٨٠.

عليّ، أو لعليّ، إنّما هي كانت ثورة ضدّ عثمان، وقد اشترك فيها من ليسوا مشايعين لعليّ، ولا لخلافة عليّ. لذلك فإنّ نشوء الشيعة بالمعنى الكامل للكلمة، لم يكن قد حصل حتّى ذلك التاريخ، ولا حتّى عندما قام عليّ، وهو رابع الخلفاء الراشدين، بحربَيه ضدّ عائشة وطلحة والزبير، وهي الأولى، وضدّ معاوية، وهي الثانية، ولا حتّى عندما قام بحربه الثالثة التي شنّها على مَن خرجوا عليه: الخوارج. فنشوء الشيعة بالمعنى الكامل، سيتطلّب ردحاً آخر من الزمن، سيتجاوز حياة عليّ.

وإذا كان بوسع الناظر من منظار ضيّق أن يرى في مقتل عثمان، أو في الثورة على عثمان، مصلحة لعليّ، فالناظر من منظار أوسع، يستطيع أن يبرّئ عليّاً من دم عثمان، ذلك الدم الذي قد يكون الخليفة الطيّب، عثمان، المسؤول الاوّل عنه. وقد يكون أوضح دليل على هذا، في كلام زوجة عثمان: نائلة، وهي تخاطب زوجها الخليفة لائمة... خائفة.. صادقة في التعبير عن مشاعرها، عندما أمعن ابن عفّان في الانصياع لقريبه مروان بن الحكم الذي ألّب الناس، بآرائه ومشوراته، على الخليفة، بينما لم يأخذ هذا الأخير بمشورة عليّ الذي كان قد يئس من أمر اصلاح أداء الخليفة.

قالت نائلة: «قد سمعت قول عليّ لك، وليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء». قال عثمان: «فما أصنع؟» - وأمام هذا الجواب النامّ عن الحيرة والارتباك في نفس الخليفة المحاصَر من قبل الشعب، تردّ زوجته المخلصة الخائفة الحكيمة نائلة بقولها: «تتّقي الله وتتبع سنّة صاحبَيك. فإنّك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبّة، وإنّما تركك الناس لمكانه، فأرسِل إلى عليّ فاستصلحه فإنّ له قرابة وهو لا يُعصى[1]».

ومن خلال التعمّق بمسبّبات الثورة، نجد أنّ عليّاً كان يحاول التهدئة، بينما كان مروان يؤجج الصراع. واذا كان الباحث المتجرّد غير قادر على تحميل عليّ

١ - ابن الاثير، الكامل، ج ٣ ص ١٦٦.

مسؤوليّة الثورة، فإنَّه ايضاً، لا يستطيع، في حال صدق المراجع، إلاّ أن يحمّل مروان بن الحكم، ولو جزءاً من تلك المسؤوليَّة، من دون اتهامه بسوء النيّة، بل بسوء التقدير والتدبير في أفضل الأحوال. إنّما المستقبل سيدلّ بوضوح على أنّ مروان إنّما كان وصوليّاً سلطويّاً طامحاً بالخلافة.

ولكنّ هذه الاستنتاجات التي بوسع الباحث بهدوء ورويّة وتجرُّد أن يستخلصها اليوم، ما كان بالإمكان إطلاقاً رؤيتها في معمعة الثورة وما بعد الثورة، عندما بويع عليّ بالخلافة، فجوبه برفض بعض من أهل البيت الذين أعلنوا العصيان عليه وراء عائشة، وبرفض من اتّخذ من قميص عثمان الملطّخ بالدم لواء للسير تحته في التمرُّد على الخليفة الجديد وإعلان الحرب عليه، وهذا ما فعله معاوية. فلقد كان من الأفضل لعليّ، سياسيّاً على الأقلّ، أن ينتظر النهاية الطبيعيّة لعثمان، كي يتسنّم سدّة الخلافة بشكل طبيعيّ وهادئ. فكلّ الدلائل تؤكّد على أنّه كان الأقوى في ذلك العهد. وبإمكاننا أن نستخلص بثقة، أنّ عليّاً كان المتضرّر الأوّل، بعد عثمان، من مقتل عثمان. وها هو يبدأ عهده بحروب داخليّة على جبهتين، سرعان ما أصبحت ثلاثاً، مع بروز الخوارج عليه، فجاء عهده مضطرباً دمويّاً هائجاً، وانتهى بمقتله قبل أن يتمكّن من تثبيت قدميه على كرسيّ خلافة المسلمين، ولم يمضِ على ذلك العهد خمس سنوات.

وإذا كان قتل عليّ على يد أحد الخوارج الذين أرادوا، في الوقت ذاته، قتل معاوية وحليفه عمرو بن العاص، فتمكنوا من عليّ، وأخطأوا الآخرَين، قد أراح معاوية من عليّ، وضمن له الخلافة، فلقد كان قتل عليّ أيضاً، بمثابة تثبيت الإسفين الفاصل، لا بل المشقّق، في جسم الإسلام.

ومذ مات عليّ، صار التشقّق في الإسلام انشطاريّاً متعاقباً، وقد بدأ بتكرّس مبدأ مشايعة عليّ، وأهل بيته، في قلوب أولئك الذين بدأوا الصراع سياسيّاً، ورأياً، فتحوّل صراعهم إذ ذاك إلى عقديّ أصوليّ موروث وعميق. وبعد أن كان الحديث، في حياة عليّ، عن التشيّع، بعد عليّ، سيكون الحديث عن الشيعة.

الفصل الثاني

الحَسَن والحُسين

- الحَسَن
- بعد الحَسَن... وقبْل الحُسين
- الحُسين... ويزيد

«قد كان جماجمُ العرب في يدي، يحاربون
من حاربتُ ويسالمون من سالمت، فتركتها
ابتغاء وجه الله وحقن دماء أمّة
محمّد صلّى الله عليه وسلم، ثم
ابتزّها بأتياس أهل الحجاز[1]».

الحسن

الحسن

كان لعليّ بن أبي طالب، أربعة عشر ابناً، وثماني عشرة ابنة. إنّما الحسن والحسين وثلاث بنات، من فاطمة، بنت الرسول، وقد مات شقيقهم محسّن وهو صغير. والباقون من أمّهاتٍ شتّى[2].

وإذا كان للحسن وللحسين، ولدي فاطمة بنت الرسول، منزلة خاصّة عند المسلمين، فلأنّهما الحفيدان الوحيدان لمحمّد. وكانت منزلتهما عند من قالوا بأحقّيّة الخلافة لعليّ وأبنائه، الأرفع بين البشر الأحياء آنذاك. وفي تراثهم أن للرسول فيهما أحاديث، فهما وُلدا في أيّامه، ولم يكن اسم الحسن، ولا اسم الحسين، معروفين في الجاهليّة، إنّما «الله حجب اسم الحسن والحسين حتّى سَمّى بهما النبيّ ابنيه[3]». وقد وصفهما الرسول بقوله: «إنّهما ريحانتاي من الدنيا»، لذلك لُقّب كلّ منهما بـ «ريحانة الرسول». وعندما سُئل الرسول عن أيّ أهل بيته أحبّ إليه قال: «الحسن والحسين». وينقلون عن الرسول قوله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة. و هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهمّ إنّي أُحبّهما فأحبّهما. وأحِبّ من يحبّهما[4]».

---

١ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق عبد الحميد، (مصر ١٩٥٢) ص ١٩٢

٢ ـ انظر: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٣؛ قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٣٩٧

٣ ـ السيوطي، ص ١٨٨

٤ ـ السيوطي، ص ١٨٨ ـ ١٨٩

ويُروى، تدويناً، أنّه «لم يكن أحد أشبه بالرسول من الحسن بن عليّ». وأنّ الرسول قد أحبّه كثيراً، فكان يلاعبه وهو طفل، وقد رآه أحدهم يحمل الحسن الطفل على رقبته، فقال: «نِعْمَ المركب ركبتَ يا غلام!». فقال الرسول: «ونِعْمَ الراكب هو». وكان الرسول «يدلع لسانه للحسن بن عليّ، فإذا رأى الصبيّ حمرة اللسان يَهَشُّ إليه». وقد رأى بعضهم الرسول والحسنُ على عاتقه، وهو يقول: «اللهمّ إنّي أُحبُّه فأحبَّه[1]».

لمّا قتل عليّ، كان الحسن في السادسة والثلاثين من عمره، وكان أخوه الحسين أصغر منه بقليل.

بقي عليّ على قيد الحياة، واعياً، بعدما طعنه الخارجيّ، عبد الرحمن بن ملجم. وقد قَبض على هذا الأخير، قثم بن العبّاس، وأتى به إلى عليّ الذي قال لابنه: «يا حسن، شأنك بخصمك، فاشبع بطنه، وأشدد وثاقه، فإن متُّ فألحقه بي أخاصمه عند ربّي، وإن عشت فعفو أو قصاص[2]».

وبقي عليّ يومين، وحالته تسوء، وكان واثقاً من دنوّ أجله. وقد ذكر بعضهم «أنّ عليّاً أوصى إلى ابنيه الحسن والحسين (بالخلافة) لأنّهما شريكاه في آية التطهير[3]»... وقد دخل عليه الناس يسألونه فقال بعضهم: «يا أمير المؤمنين أرأيت إن فقدناك ولا نفقدك، أيبايع الناس الحسن؟». فقال: «لا آمركم ولا أنهاكم. وأنتم أبصر»؛ ثمّ دعا الحسن والحسين وقال[4]: «أوصيكما بتقوى الله وحده، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيءٍ منها. قولا الحقّ، وارحما اليتيم، وأعينا الضعيف، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً. ولا تأخذكما في الله

١ ـ المرجع السابق.
٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٢
٣ ـ راجع: سورة الاحزاب، ٣٣ : ٣٣
٤ ـ انظر نص الوصيّة في شرح نهج البلاغة، ٤ : ١١١ ـ ١١٢

لومة لائم[1]». ثمّ نظر إلى ابن الحنفيّة[2] فقال[3]: هل سمعت ما أوصيت به أخويك؟» قال: «نعم». قال: «أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك وتزيين أمرهما ولا تقطعنَّ أمراً دونهما»، ثمّ قال: «أوصيكما به فإنّه صغيركما وابن أبيكما فاكرماه واعرفا حقّه». فقال له رجل من القوم: «ألا تعهد يا أمير المؤمنين؟». قال: «لا، ولكنّي أتركهم كما تركهم رسول الله صلعم». قال: «فماذا تقول لربّك إذا أتيته؟». قال: «أقول: اللّهم إنّك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ثم قبضتني وتركتك فيهم فإن شئتَ أفسدتهم وإن شئت أصلحتهم[4]».

وفي اليوم الثالث لِطعنه، قُبض عليّ. فغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر. إنّما الذي كبَّر عليه، كان ابنه الأكبر: الحسن[5]. ولمّا قام الحسن خطيباً، «حمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ، ثمّ قال: ـ ألا إنّه قد مضى في هذه الليلة رجل لم يدركه الأوّلون، ولن يرى مثله الآخرون، من كان يقاتل وجبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله. والله لقد توفّي في الليلة التي قُبض فيها موسى بن عمران، ورُفع فيها عيسى بن مريم، وأُنزل القرآن، ألا وإنّه ما خلف صُفراً ولا بيضا إلاّ سبعمائة درهم فضُلت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله[6] ـ».

***

تعدّدت الآراء في وصف شخصيّة الحسن، وكانت، غالباً، متأثّرة بالانتماء وأهوائه. ولكن قديم المدوّنات يذكر أنّه كان «سيّداً، حليماً، ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً، ممدوحاً، تزوّج كثيراً، يكره الفتن والسيف[7]».

١ ـ سورة المائدة، ٥ : ٥٤
٢ ـ ابن الحنفيّة: هو ابن عليّ من امرأته خولة بنت جعفر الحنفيّة، وإسمه محمّد، ويُعرف بمحمّد الأكبر، تمييزاً له عن محمّد الأصغر، ابن عليّ من امرأته امامة بنت أبي العاص؛ أنظر اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٣
٣ ـ أنظر: شرح نهج البلاغة، ٤ : ٥٤٥
٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٧٣٤ : ٤ ـ ٤٣١ / ٤٣٢؛ قابل ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢
٥ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٣٩٢
٦ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٣؛ قابل: المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٧٣٥ : ٤ ـ ٤٣٣
٧ ـ السيوطي، ص ١٨٩

قد تكون صفة كره الحسن «للفتن والسيف» نتيجة باقي الصفات التي أُعطيت له. ومما يؤكّد نزوع الحسن إلى السلام، أنّه كان محبوباً، خاصّة من النساء، وأنّه كان دمث الأخلاق عفيف اللسان، حتى مع خصومه.

وممّا يُروى، تأكيداً على الصفة الأولى، أنّه كان مطلاقاً للنساء «وكان لا يفارق امرأة إلاّ وهي تحبّه». وقد بلغ ما أحصنه من النساء، «تسعين امرأة»، ولكن «قلّما تزوّج امرأة إلاّ أحبّته ومالت إليه[1]».

وتتأكّد صفة كونه محبوباً، في مجال التوكيد على صفته الثانية، إذ قال عارفوه بأنّه ما نطق بكلمة فحش قطّ. وقال أحدهم: «إنّ أشدّ كلمة فحش سمعتُها منه، هي كلمة ـ رغم أنفه ـ. وروى بعضهم أنّ الحسن، كان يسمع مروان يسبّ علياً كلّ جمعة على المنبر، ولكنّه لم يكن يردّ بشيء. وعندما جاءه مروان يوماً يغلظ عليه، بقي الحسن ساكتاً، وفي النهاية قال الحسن لمروان: «إنّي والله لا أمحو عنك شيئاً مما قلتَ بأنْ أسبّك، ولكنّ موعدي وموعدك الله، فإن كنت صادقاً جزاك الله بصدقك، وإن كنت كاذباً فالله أشدّ نقمة». ولّما مات الحسن، بكى مروان في جنازته، فقال له الحسين: «أتبكيه وقد كنت تُجرعه ما تجرعه؟» فقال مروان: «إني كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا» وأشار بيده إلى الجبل[2].

هذا هو الشابّ الذي بايعه أهل الكوفة، خليفة، بعد مقتل أبيه عليّ بيومين. وكان أوّل من بايعه قد قال له: «أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيّه وقتال المُحلّين»، فكان في ردّ الحسن ما من شأنه أن يفيد عن كرهه للقتال، إذ قال: «على كتاب الله وسنّة رسوله فإنّهما يأتيان على كلّ شرط». وقد أراد الحسن، منذ البداية، على ما يبدو، الابتعاد عن التورّط في القتال، فاشترط على القوم، عند مبايعته، أن يكونوا مطيعين له، يسالمون من سالم، ويحاربون من حارب[3].

١ ـ السيوطي، ص ١٩١
٢ ـ السيوطي، ص ١٩٠
٣ ـ ابن الاثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٢

لم يكن الحسن مستهتراً ولا مفرّطاً بفكرة أحقّيّة أهل البيت بالخلافة، لا بل كان شيعيّاً صميماً. ويوم صلّى بالناس إبّان مرض أبيه عليّ بخلال خلافة الأخير، وقد أمره بالصلاة نيابةً عنه، قال: «إنّ الله لم يبعث نبيّاً إلاّ اختار نقيباً ورهطاً وبيتاً؛ فوالذّي بعث محمّدا بالحقّ نبيّاً لا يُنقص من حقّنا أهل البيت أحدٌ إلاّ نقصه الله من عمله مثلَه، ولا تكون علينا دولة إلاّ وتكون لنا العاقبة ولتعلمّن نبأه بعد حين[1]». ويوم خطب في أحد مقاماته، قال: «نحن حزب الله المفلحون وعترة رسوله الأقربون وأهل بيته الطاهرون الطيّبون وأحد الثقلَين اللذين خلفهما رسول الله (صلعم)، والثاني كتاب الله فيه تفصيل كلّ شيء ـ لا يأتيه الباطل من بين يَديه ولا من خلفه[2]ـ، والمعوّل عليه في كلّ شيءٍ لا يخطئنا تأويله بل نتيقّن حقائقه؛ فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر منكم مقرونة؛ فإنّ اختلفتم في شيء فردّوهُ إلى الرسول. ـ ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لَعَلِمهُ الذين يستنبطونه منهم[3]ـ. وأحذّركم الاصغاء لهنات الشيطان لكم ـ إنّه لكم عدوّ مُبين[4]ـ. فتكونون كأوليائه الذين قال لهم: ـ لا غالبَ لكم اليومَ من الناس وإنّي جارٌ لكم فلمّا تراءتِ الفِئتان نكص على عقبيه وقال: ـ إنّي بريءٌ منكم، إنّي أرى ما لا ترون[5]ـ فتلقون للرماح أزراً وللسيوف جزراً وللعمد حطاءً وللسهام غرضاً، ثمّ ـ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسَبت في إيمانها خيراً[6]ـ».

كذلك لم يكن الحسن من غلاة الشيعة، بل كان يرى ما كان يراه والده عليّ. فلمّا جاءه عمرو بن الأصمّ يوماً قائلاً: «إنّ هذه تزعم أنّ عليّاً مبعوث قبل

١ ـ سورة ص، ٣٨ : ٨٨
٢ ـ سورة فصلت، ٤١ : ٤٢
٣ ـ سورة النساء، ٤ : ٨٣
٤ ـ سورة البقرة، ٢ : ١٦٨
٥ ـ سورة الأنفال، ٨ : ٤٨
٦ ـ سورة الانعام، ٦ : ١٥٨؛ راجع المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٧٧١ : ٥ ـ ١٢ / ١٤

القيامة!»، قال: «كذب والله هؤلاء الشيعة، لو علمنا أنّه مبعوث قبل القيامة ما زوّجنا نساءه ولا قسمنا ماله[1]».

بيدَ أن ظروفاً قاهرة، لا بدَّ من أن تكون قد حتّمت على الحسن، إجراء الصلح مع معاوية. وهذا ما يتّضح من بعض النصوص.

كان عليّ، عندما قتل، يتجهّز للانقضاض على معاوية، وكان قد بايعه «أربعون ألفاً من عسكره على الموت». فلمّا تسنّم الحسن سدّة الخلافة، كان معاوية قد جهّز عسكره لصدّ عليّ. وعندما حلّ الحسن مكان أبيه، ورغم أنّه لم يكن محبّاً للقتال، فقد حاول إتمام حرب والده، وسار بالجيش من الكوفة، وجعل عبد الله بن العبّاس على رأس الجيش. وقد جعل عبد الله في مقدّمته قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري. وما أن وصل الحسن المدائن، حتى نادى منادٍ في العسكر: «ألا إنّ قيس بن سعد قُتل فانفروا»، فنفر الجيش بسرادق الحسن فنهبوا متاعه، حتى نازعوه بساطاً كان تحته[2].

ويذكر بعض المدوّنات أن الذي حصل، هو أنّ مقدّمة جيش الحسن، قد التقت مقدّمة جيش معاوية في الموصل، فوجّه «معاوية إلى قيس بن سعد يبذل له ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف عنه». ويروى أنّ ابن سعد، ردّ المال لمعاوية، وقولاً مفاده: «أتخدعني عن ديني؟». وإذ رفض قيس الخيانة، عرض معاوية العرض نفسه على ابن عبّاس، الذي قبل، وانضمّ إلى معاوية مع ثمانية آلاف من جنده، ومن ثمّ كانت الواقعة بين جماعة ابن العبّاس، وجماعة قيس، والفريقان من جيش الحسن. وفي الوقت نفسه، دسّ معاوية في عسكر الحسن ما مفاده أنّ

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٣٩٢، وهو يوضّح بالنسبة لعبارة «هذه الشيعة» بالتالي: «فلا شكّ أنه يعني طائفة منها، فإن كل شيعة لا تقول هذا إنما تقوله طائفة يسيرة منهم. ومن مشهوري هذه الطائفة: جابر بن يزيد الجعفي الكوفي، وقد انقرض القائلون بهذه المقالة فيما نعلمه» ـ انتهى كلام ابن الأثير ـ. إشارة إلى ان ابن الأثير قد ألّف «الكامل» قبل عام ١٢٣١، وأنه قد توفي سنة ١٢٣٤. وقد يكون القائلون بما جاء هنا عن عليّ، من السبئية.

٢ ـ راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٤.

قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، كما دسّ في عسكر قيس «من يتحدّث بأنّ الحسن قد صالح معاوية، وأجابه[1]».

وإذ فعلت الشائعات فعلها، اضطرب العسكر، خاصة بعد أن وجّه معاوية إلى الحسن وفداً للمفاوضة، إجتمع إليه في المدائن، وهو نازل في مضاربه. ثمّ «خرجوا من عنده، وهم يقولون ويُسمعون الناس: إنّ الله قد حقن بابن رسول الله الدماء، وسكّن به الفتنة وأجاب إلى الصلح؛... وإذ لم يشكّ الناس في صدق أعضاء هذا الوفد، وثبوا على الحسن، فانتهبوا مضاربه وما فيها، فركب الحسن فرساً له ومضى في مظلم ساباط، وقد كمن الجرّاح بن سنان الأسديّ، فجرحه بمعول في فخذه... وحُمل الحسن إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً، واشتدّت به العلّة، فافترق عنه الناس[2]».

أمام هذا الواقع، حاول الحسن استدراك النهاية المفجعة، فسارع إلى مراسلة معاوية في الصلح، رغم معارضة أخيه الحسين. وقد ذكر الحسن في مراسلته إلى معاوية، أنّه يتنازل له عن الخلافة، «على أن تكون له من بعد معاوية، وعلى أن لا يطالب معاوية أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء ممّا كان أيام أبيه، وعلى أن يقضي عنه ديونه[3]».

في هذه الأثناء، كان معاوية قد أوفد رسلاً إلى الحسن، ومعهم صحيفة بيضاء، مختوم على أسفلها، وكتب إليه: «إشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك». فلمّا استلم الحسن الصحيفة، اشترط أضعاف شروطه السابقة، إلاّ أنّ معاوية تمسّك بشروط الحسن الأولى وقال له: «قد أعطيتك ما كنت تطلب[4]».

---

١ ـ انظر: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٤

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢١٥

٣ ـ السيوطي، ص ١٩٢

٤ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٥

ويذكر بعض المؤرّخين أنّ الحسن إنما طلب في كتابه إلى معاوية، أن يعطيه: «ما في بيت مال الكوفة، ومبلغه خمسة آلاف الف، وخراج دارا بجرد من فارس، وأن لا يشتم علياً. فلم يجبه إلى الكفّ عن شتم عليّ، فطلب أن لا يُشتم وهو يسمع، فأجابه إلى ذلك، ثمّ لم يفِ به أيضاً. وأمّا خراج دارا بجرد، فإنّ أهل البصرة منعوه منه وقالوا: هو فيئنا لا نعطيه أحداً. وكان منعهم بأمر معاوية[1]».

كثرت الاجتهادات، كما الروايات، حول موضوع تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، والأصحّ القول، تنازله عن جزء من الخلافة، لأنّ معاوية كان أيضاً خليفة. إلاّ أنّ ما ليس في وارد الخلاف، أنّ الحسن قد خُذل من أهل الكوفة، وخارت القوى التي كان يقودها، أمام دهاء معاوية وحزمه وبطشه وتماسك القوّة التي كانت له.

وتظهر خيبة الحسن من خلال خطابه في أهل الكوفة، عندما أمره معاوية أن يبلغهم، بحضوره، عن الصّلح، بناء على نصيحة عمرو بن العاص. ورغم أنّ معاوية لم يكن ميّالاً إلى هذا الرأي، فقد نزل عند إلحاح ابن العاص الذي كان «يريد أن يبدو (الحسن) عيّه في الناس». قال الحسن في خطبته: «أمّا بعد، أيُّها الناس، فإنّ الله هداكم بأوّلنا وحقن دماءكم بآخرنا. وإنّ لهذا الأمر مدّة والدنيا دول؛ قال الله عزّ وجلّ لنبيّه محمّد: ـ قُل إن أدري أقريبٌ أم بعيد ما توعَدون إنّه يعلَم الجهْرَ من القولِ ويعلمُ ما تكتمون وإنّ أدري لعلّه فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين[2] ـ»؛ ثم قال: «يا أهل الكوفة لو لم تُذهل نفسي عنكم إلاّ لثلاث خصال لذُهلت: مقتلكم أبي، وسلبكم ثقلي، وطعنكم بطني؛ وإنّي قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا[3]».

قبل ذلك، كان الحسن، وهو مصاب، قد خطب في أهل الكوفة عارضاً عليهم الأمر، بحسب بعض المراجع، فخيّرهم بين الصلح ومتابعة القتال، فاختاروا الصلح. ويستخلص المدقّق عظمة معاناة الحسن من خلال تلك الخطبة المنسوبة إليه في هذه

---

١ - المرجع السابق.

٢ - سورة الانبياء، ٢١: ١٠٨ ـ ١٠٩

٣ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٧٦٩: ٥ ـ ١١ / ١٢؛ قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٥

المناسبة، وقد جاء قوله فيها: «إنّا والله ما يثنينا عن أهل الشام شكّ ولا ندم. وإنّما كنّا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت (أو فنبشت أو فثُنيت) السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع. وكنتم في مسيركم إلى صفّين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفّين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأمّا الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر، ألا وإنّ معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله، عزّ وجلّ، بظبى السيوف، وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى». فناداه الناس من كل جانب: «البقيّة البقيّة!» فسار في الصلح[1].

يشير الحسن في هذه الخطبة المنسوبة إليه إلى أنّ شيعة عليّ، أو قل أهل العراق، قد أصبحوا مقسومين بين حاقد على أهل الشام، بسبب معركة صفّين وقتلاها؛ وحاقد على عليّ، بسبب حربه مع الخوارج في معركة النهروان، وقتلاها؛ ومتخاذل لا يريد الحرب؛ وإنّ تلك الروح التي كانوا يقاتلون بها قبلاً، من أجل الدين، قد فقدت، وحروبهم إنّما أصبحت حروباً ثأريّة دنيويّة مقيتة، وليس أمامهم سوى خيارين: إمّا أن يستمرّوا في هذه الحروب، أو أن يقبلوا بالصلح الجائر، ففضّلوا الصلح الجائر.

وفي خطبة أخرى له في أهل الكوفة قبل توقيع الصلح، يظهر عنصر آخر من مأساة الحسن. فهو ابن عليّ، وهو حفيد الرسول؛ هو من أهل البيت، وها هو يتعرّض لأبشع ما يمكن أن يلقاه من كان في هذه المنزلة من قبَل شعبه، فيقول: «أيُّها الناس، إنّما نحن أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل بيت نبيّكم الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً»... وبقي الحسن يكرّر هذا القول، حتّى «لم يبقَ في المجلس إلاّ من بكى حتّى سُمع نشيجُه[2]».

---

١ - ابن الاثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٦

٢ - المرجع السابق.

ذلك أنّ أهل العراق، قد انقسموا، أمام قرار الصلح، إلى تيّارين: تيّار ناقم، وآخر حزين. فراح الناقمون يُسمعون الحسن السباب، والحزانى يبكون. وهؤلاء الأخيرون هم الأتقياء المخلصون في تشيّعهم لعليّ وأهل بيته، وقد زادوا إيماناً وثقة وولاء في التشيّع، رغم حزنهم، عند الصلح، لأنّهم رأوا في ذلك تحقّقاً لنبوءة من الرسول في الحسن، دوّنها البخاري[1] عن أبي بكرة[2]، فقال: «سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرّة وإليه مرّة، يقول: ـ إنّ ابني هذا سيّد أهل الجنّة، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين[3] ـ».

وهكذا، فبينما كان الحسن، يسير من الكوفة إلى المدينة بعد الصلح الذي لم يكن في نظر البعض سوى انهزام وانكسار وتسليم للخلافة، كان يسمع من بعضهم السباب، حتى إنّ بعضهم قال له: «يا مسوّد وجه المسلمين[4]!». وقال سواه: «يا عار المؤمنين» و «السلام عليك يا مذلّ المؤمنين». وقد كان الحسن يردّ بقوله: «العار ولا النار» و «لست بمذلّ المؤمنين ولكنّي كرهت أن أقتلكم على الملك[5]».

في هذه الأثناء، كان الحسن وأهل بيته وحشمه يسيرون إلى الكوفة، «فجعل الناس يبكون[6]».

وبذلك انتهت التجربة المرّة التي فرضها القدر على الحسن، خلافة لستّة

١ ـ البخاري (محمّد بن اسماعيل الجعفي) (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ / ٨١٠ ـ ٨٧٠ م) محدّث، حافظ، فقيه، مؤرّخ، ولد في بخارى وتوفي في خرنتك (سمرقند). حفظ مئات الآلاف من الحديث وأخرج عنها كتابه «الجامع الصحيح» الذي اشتهر به. ومن كتبه أيضاً: «الجامع الكبير»، «المسند الكبير»، «التاريخ» في تراجم رجال الإسناد والحديث ـ المنجد ـ

٢ ـ ابو بكرة (نفيع بن الحارث) (ت ٥١ هـ / ٦٧١ م): صحابي كان مولى لثقيف في الطائف. سمّى نفسه بعد اعتناقه الاسلام بـ «عتيق النبيّ». لقّب بأبي بكرة لأنّه تدلّى بواسطة بكرة من اسوار الطائف لمّا حاصرها النبيّ فانضم إليه (سنة ٦٣١) ـ المنجد ـ

٣ ـ السيوطي ص ١٨٨؛ المسعودي، مروج الذهب. فقرة ١٧٦٨ : ٥ ـ ١٠

٤ ـ ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص ٤٠٧

٥ ـ السيوطي، ص ١٩٢

٦ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٧

أشهر، ليعيش بعدها، في المدينة، ثماني سنوات... عجاف، انتهت بقتله بالسم دسّاً بيد إحدى نسائه.

فقد كان للحسن، مخصّصات سنويّة، قيمتها مائة ألف درهم، يدفعها معاوية إليه، ولكنّ هذا الأخير، كان ينسى أو يتناسى إرسال العطاء للحسن، ممّا جعله في ضائقة ماديّة بقيّة حياته[1]. وهذا يخالف بعض المصادر التي صوّرت الواقع على غير هذا الحال.

وفي النهاية، وجد الحسن نفسه مسموماً. فاستدعى أخاه الحسين وقال له: «يا أخي، إنّ هذه آخر ثلاث مرار سُقيت فيها السمّ، ولم أُسقه مثل مرّتي هذه، وأنا ميت من يومي».

وكانت أمنية الحسن الوحيدة، ما طلبه إلى أخيه في هذا الظرف الرهيب إذ قال: «فإذا أنا متّ فادفنّي مع رسول الله، فما أحد أولى بقربه منّي».

كما أنّ كره الحسن للحرب بين المسلمين يظهر، حتّى في هذه اللحظة الحرجة، فيضيف: «إلاّ أنْ تُمنع من ذلك، فلا تسفك فيه محجمة دم[2]». ويذكر بعضهم أنّه بل قال: «إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين[3]».

وبينما يتّهم البعض يزيد بن معاوية بأنه كان وراء دسّ السمّ للحسن، إذ «سمّته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس، دسَّ إليها يزيد بن معاوية أن تسمّه فيتزوّجها، ففعلت، فلمّا مات الحسن بعثت إلى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها فقال: ـ إن لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا[4]؟ـ». يتّهم البعض الآخر معاوية بدسّ السمّ إلى جعدة التي سقته إيّاه، واعداً جعدة بأنّها «إذا احتالت في قتل الحسن، وجَّه إليها بمائة ألف درهم وزوّجها من يزيد». فكان ذلك الذي بعثها على سمّه؛

١ ـ راجع: السيوطي، ص ١٩٣

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٥؛ قابل: المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٧٥٩ : ٥ ـ ٢

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٦٠

٤ ـ السيوطي، ص ١٩٢

فلمّا مات وفى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: «إناّ نحبّ حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه[1]».

وجلّ ما يُذكر عن قول الحسن في هذا المجال، أنّه عندما سأله أخوه الحسين عمّن سقاه السم، قال: «ما تريد بذلك؟ فإن كان الذي أظنّه فالله حسيبه، وإن كان غيره فما أحِبّ أن يُؤخذ بي بريء». ولكن يبدو أن الحسن، كان مدركاً لحقيقة الأمر، إذ قال قبل وفاته، مشيراً إلى معاوية (أو يزيد) وجعدة: «والله لا وفى لها بما وعد ولا صدق فيما قال[2]». وقد نظم الشعراء الشيعة المعاصرون أبياتاً في فعل جعدة، من شأنها أن تشير إلى صدق هذه الرواية حول قيامها بسقي السمّ للحسن[3].

ويبدأ دور الحسين بالظهور، عندما كان أخوه الحسن يعاني سكرات الموت. فلمّا جزع الحسن من الوفاة، «قال له الحسين: يا أخي ما هذا الجزع؟ إنّك ترد على رسول الله، صلّى الله عليه وآله وسلّم، وعلى عليّ، وهما أبواك، وعلى خديجة وفاطمة وهما أمّاك، وعلى القاسم والطاهر وهما خالاك، وعلى حمزة وجعفر وهما عمّاك. ـ فقال له الحسن: أي أخي إني داخل في أمر من أمر الله تعالى لم أدخل في مثله، وأرى خلقاً من خلق الله لم أرَ مثله قط[4] ـ».

ومات الحسن، وكان أوّل ما فعله الحسين، أنّه حاول تنفيذ وصيّة أخيه بدفنه قرب الرسول. وتختلف الروايات هنا حول موقف عائشة، عندما استأذنها الحسين في ذلك، بين قائل بأنّها وافقت وأذنت له[5]، وقالت: نعم وكرامة[6]. وقائل «بأنّ فاطمة ركبت بغلة شهباء، وقالت: بيتي لا آذن فيه لأحد؛ فأتاها القاسم بن محمّد ابن أبي بكر، فقال لها: يا عمّة! ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر،

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٧٦٠: ٥ ـ ٤

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٧٥٩: ٥ ـ ٢ / ٣؛ فقرة ١٧٦١: ٥ ـ ٤

٣ ـ راجع المسعودي، مروج الذهب، فقرة ١٧٦١: ٥: ٤

٤ ـ السيوطي، ص ١٩٣

٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ص ٤٦٠

٦ ـ السيوطي، ص ١٩٤

أتريدين أن يقال: يوم البغلة الشهباء؟؛ فرجعت[1]». كذلك تختلف الروايات حول موقف سعيد بن العاص من الموضوع، وقد كان سعيد أمير المدينة آنذك. فذكر بعضهم أنّ ابن العاص لم يعترض على دفن الحسن في قبر الرسول[2]. غير أن سواهم قال بأنّ سعيد بن العاص لم يأذن بذلك[3]. ولكنّ المصادر تُجمع على أنّ مروان بن الحكم، قد منع دفن الحسن في قبر الرسول، بالقوّة[4]. أمّا الحسين، فقد خضع لوصيّة أخيه، كاملة. إذ لمّا «اجتمع معه جماعة وخلق من الناس، وقالوا له: ـ دعنا وآل مروان، فوالله ما هم عندنا كأكْلة رأس ـ قال: ـ إنّ أخي أوصاني أن لا أريق فيه محجمة دم ـ». وقد أشار بعضهم إلى أنّ أبا هريرة[5] هو الذي ردّ الحسين عن القتال[6]. ودُفن الحسن بالبقيع، إلى جانب أمّه فاطمة[7]. ودوّن بعضهم ما من شأنه إن يرسم علامة استفهام حول حقيقة موقف سعيد بن العاص، إذ قالوا أنّ هذا الأخير هو الذي صلّى على الحسن، وإنّ الحسين قال له: «لولا أنّه سنّة، لما تركتك تصلّي عليه[8]».

وفي وداع الحسن، برز أيضاً، إلى جانب الحسين، أخوه الآخر، ولكن من أبيه، دون أمّه فاطمة: محمّد ابن الحنفيّة، الذي سيكون له دور أيضاً في المسألة الشيعيّة، بعد الحسين.

وقف محمّد على قبر أخيه الحسن، فقال: «لئن عزّت حياتك، لقد هدّت وفاتك، ولَنعمَ الروح روح تضمّنها كفنك، ولَنعمَ الكفن كفن تضمّن بدنك! وكيف

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٥

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٦٠

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٥

٤ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٦٠؛ السيوطي، ص ١٩٤.

٥ ـ ابو هريرة (عبد الرحمن بن صخر الأزدي) (ت ٥٩ هـ / ٦٧٨ م): من كرام الصحابة. لازم النبيّ مدة طويلة. تولّى إمارة البحرين ثم المدينة وقضاء مكّة. روى الكثير من حديث الرسول ـ المنجد ـ.

٦ ـ السيوطي، ص ١٩٤

٧ ـ السيوطي، ١٩٤؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٧٥٨: ٥ ـ ٢

٨ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٦٠

لا يكون هذا وأنت عقيد الهدى وحليف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء؛ غذّتك بالتقوى أكفّ الحقّ وأرضعتك ثدي الإيمان وربيت في حجر الإسلام، فطبت حيّاً وميتاً، وإن كانت أنفسنا غير سخيّة بفراقك، رحمك الله أبا محمّد[1]!».

ولم ينسَ الشيعة الحسن، ولن يُنسى الحسن ما دام على الأرض شيعة. فإنّ الإمام، ابن الإمام الأوّل، الذي قضى ضحيّة الغدر والخيانة والأحقاد، لم يكن مجرّد وريث لملك، بل كان، من «قواعد الإشعاع الفكريّ، ومصادر الفكر الإسلاميّ، وقمم الحياة، التي استطالت حتى أحاطت بكلّ شيء، فلم يعزُب عنه ما يعزُب عن غير المعصومين، من قمم الوجود الذين يُسمَّون «مفكّرين». وشعراء الطبيعة، الذين يُسمَّون «أدباء». فهو من أولئك الذين آثرهم الله بحاسّة نفّاذة تكتنه حقائق الأشياء، فلا تخفى عليهم خافية في الأرض ولا في السّماء... وكلام الإمام الحسن - برأي الشيعة - ينضح بدلائل الشخصية النادرة، حتّى كأنّ معانيه خواطر قلبه وأحداث زمانه[2].

مات الإمام الحسن، وبقي صوته في الأثير... والضمير، صارخاً في اثنتين: بني أميّة، وأهل الكوفة:

«... وأيمُ الله، لا ترى أمّة محمّد خصباً، ما كانت سادتُهم وقادتهم في بني أميّة، ولقد وجّه الله إليكم فتنةً، لن تصدّوا عنها حتّى تهلكوا، لطاعتِكم طواغيتكم إلى شياطينكم، فعند الله احتسب ما مضى وما يُنتظر، من سوءِ رغبتكم، وحيف حُكمكم[3]...».

هذا التأنيب لأهل الكوفة، على تفريطهم به في سبيل معاوية، قال لهم ما هو أقسى منه، وأكثر تعبيراً:

١ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٧٦٣: ٥ - ٥ / ٦؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٥
٢ - السيّد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، دار صادر (بيروت ١٣٨٨ هـ.) ص ٧ - ٨
٣ - المرجع السابق، ص ١٠ - ١١

«غررتموني كما غررتم من كان قبلي، مع أيّ إمام تقاتلون بعدي؟ مع الكافر الظالم الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله قطّ؟ ولا أظهر الإسلام هو وبنو أميّة إلاّ فَرقاً من السيف؟ ولو لم يبقَ لبني أميّة إلاّ عجوز درداء، لبغت دين الله عوجاً، وهكذا قال رسول الله[1]...».

وبقيت، بعد موت الحسن مسألة الشيعة، وبقي شقيقه الحسين، وأخوه محمّد ابن الحنفيّة، وله أيضاً أطفاله: الحسن، وزيد، وعمر، والقاسم، وأبو بكر، وعبد الرحمن، وطلحة، وعبيد الله. وتستمرّ المأساة.

بعد الحسن... وقبل الحسين

بتنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة تنازُل المغلوب، بقي بعض التمرّد في صفوف عسكر الشيعة، سارع معاوية إلى حسمه. وكان أبرز المتمرّدين، قيس بن سعد، الذي كان أحد قادة جيش الحسن في مشروع حربه، التي ورثها عن أبيه، ضد معاوية.

كان قيس، شديد الكراهية لمعاوية، ولإمارته. فلمّا شاع خبر صلح الحسن ومعاوية، اجتمع إلى قيس أولئك الشيعة القلقون على وضعهم، وعاهدوه على قتال معاوية حتّى «يشترط لشيعة عليّ على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة». وكعادته، حاول معاوية درءَ الفتنة، وكما فعل مع الحسن، أرسل إلى قيس صفحة بيضاء موقّعة منه في أسفلها، وكلاماً بمعنى «أكتب ما شئت فهو لك». وعندما قال عمرو بن العاص لمعاوية إنّه يفضّل مقاتلة قيس وجماعته على أن يعطيه أيّة مطالب، قال معاوية: «على رسلك، فإنّا لا نخلص إلى قتلهم حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك؟ فإنّي والله لا أقاتله أبداً حتّى لا أجد مِن قتاله بدّاً».

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٨

كذا كان معاوية. وقد نجح هذه المرّة أيضاً في درءِ القتال. فجُلّ ما طلبه قيس، له وللشيعة، «الأمان، على ما أصابوا من الدماء والأموال». وأعطاه معاوية ما سأل، فدخل قيس ومن معه في طاعته[1].

وقد عرف معاوية بدهائه كيف يتعامل مع عمّال عليّ، في العراق وفارس، وكانت سياسته تقضي بأن يستميل هؤلاء إليه، بشتّى الوسائل، وإن فشل، عمد إلى العزل. وقد بلغ فيه الدهاء أن ضمّ أبرز هؤلاء العمّال إليه عن طريق إعلان أن زياد ابن أبيه، هذا العامل المجهول الاب، إنّما هو أخوه ابن أبيه، وإن كانت والدته باغية، ضاجعها والد معاوية: أبو سفيان، في إحدى الحانات. وهكذا فإنّ اسم زياد بن أبيه، لأنّه كان مجهول الأب، أصبح بعد أن استلحقه معاوية أخاً له، زياد ابن أبي سفيان[2]. وتحوّل يزيد من ألدّ أعداء معاوية إلى أبرز انصاره.

كان زياد ابن أبيه والياً على فارس عندما قتل عليّ، وقد تمرّد على معاوية بعد صلح الأخير مع الحسن، ممّا جعل معاوية يقبض على ولدَي زياد، ويهدّد بقتلهما إن لم يبايعه، فردّ ابن أبيه على رسول معاوية الذي بلّغه التهديد وطلب منه أن يذهب لمواجهة الخليفة، بقوله: «لست بارحاً مكاني حتّى يحكم الله بيني وبين صاحبك. وإن قتلت ولديّ فالمصير إلى الله ومن ورائنا الحساب». فما كان من معاوية إلاّ أن استجاب للوساطة وأطلق ولدَي زياد.

قبل ذلك كان معاوية كتب إلى زياد يتهدّده إن لم يبايعه. كان ذلك مباشرة بعد مقتل عليّ. فردّ زياد بأن قام خطيباً في ولايته، فقال واصفاً معاوية: «العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب يتهدّدني، وبيني وبينه ابنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ... في سبعين ألفاً، واضعين سيوفهم على عواتقهم! أمّا والله لئن خلص اليّ ليجدني أحمزَ ضرّابا بالسيف[3]».

١ - المرجع السابق.
٢ - تجد تفاصيل الرواية في: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٤١ - ٤٤٦
٣ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤١٥ - ٤١٦

غير أنّه بعد أن استلحق معاوية زياداً، فجعله أخاه، وولاّه البصرة وخراسان، وسجستان، ثمّ جمع له الهند والبحرين وعُمان، ها هو يقول خطيباً: «... أيّها النّاس إنّا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُلّينا ... وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله، وإنّ لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي». ... وكان زياد «أوّل من شدّد أمر السلطان، وأكّد الملك لمعاوية، وجرّد سيفه، وأخذ بالظنّة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس خوفاً شديداً حتّى أمن بعضهم بعضاً، وحتّى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه[1]».

وهكذا، تمكّن معاوية بتدابيره الذكيّة، من أن يحكم قبضته على الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وأصبح الشيعة بلا قيادة، ولا إمامة. ولم يكتفِ معاوية بهذا القدر من إضعاف الشيعة، فلجأ إلى تدبير سياسيّ - حربيّ بلغ فيه الدهاء ذروته، وذلك عندما أجبر الشيعة على التصدّي للخوارج، ومقاتلتهم، لأنّ الخوارج كانوا قد أزعجوا معاوية بأعمالهم الحربيّة البغيضة. وبتدابيره هذه، ضرب الشيعة بالخوارج، فقضى على الأخيرين، وأضعف الشيعة.

وكان معاوية قد بدأ محاولته ضرب الشيعة بالخوارج، إثر مصالحته الحسن.

فالخوارج، كانوا قد توقّفوا عن مقاتلة شيعة عليّ بعد أن تسنّم الحسن سدّة خلافة أبيه. فسار فروة بن نوفل الأشجعيّ، وهو قائد خارجيّ، في خمسمائة من الخوارج إلى شهرزور في فارس، واعتزلوا القتال. فلمّا سلّم الحسن الأمر إلى معاوية، قرّر هؤلاء مقاومة الخليفة الأمويّ الذي فشلوا قبلا في اغتياله. وفي شهرزور، صدر الأمر الخارجيّ التالي: «قد جاء الآن ما لا شكّ فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه».

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠

وبينما كان هؤلاء الخوارج في طريقهم إلى مجاهدة معاوية، وقد وصلوا إلى النخيلة عند الكوفة، كان الحسن في طريقه إلى المدينة، إثر صلحه مع معاوية، فكتب هذا الأخير إليه يدعوه إلى مقاتلة الخوارج، وقد لحق رسول معاوية الحسن وهو بقرب القادسيّة؛ إلاّ أنّ الحسن رفض التجاوب مع معاوية، وأجاب قائلاً: «لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فإنّي تركتك لصلاح الأمّة وحقن دمائها».

وإذا فشل معاوية في محاولته هذه، فإنّه لم ييأس. فأرسل فرقة شاميّة صغيرة ألهت الخوارج ببعض القتال، وبعث إلى أهل الكوفة الشيعة، يهدّدهم، إن لم يهبّوا إلى سحق الخوارج. وكان له هذه المرّة ما أراد. وإذ حاول الخوارج ردّ فتنة معاوية، بقولهم لشيعة الكوفة: «أليس معاوية عدوّنا وعدوّكم؟ دعونا حتّى نقاتله، فإن أصبناه نكون قد كفيناكم عدوّكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا». فجاء ردّ شيعة الكوفة معبّراً عن صراحة موقفهم وعن خوفهم من معاوية، إذ قالوا: «لا بدّ لنا من قتالكم[1]».

وبعد معارك دامية، تغلّب شيعة الكوفة على فرقة الخوارج التي كادت أن تُباد، على أنّ الشيعة قد دفعوا ثمن ذلك من دمائهم.

كان ذلك سنة ٤٢ هـ (٦٦٢ م). وفي السنة التالية، جمع الخوارج شملهم، وقرّروا تسمية خليفة لهم في مواجهة معاوية، فبايعوا المستورد بن علفة التيميّ، ولقّبوه بأمير المؤمنين، وراحوا يستعدّون للثورة، فانبثّوا في بيوت الكوفة، وقد أواهم الشيعة سرّاً، على ما يبدو.

في هذه الأثناء، كان والي الكوفة، المغيرة بن شعبة[2]. وإذ علم معاوية، من خلال جواسيسه، بما يجري في الكوفة، أرسل إلى المغيرة تعليماته، فقام هذا الأخير

---

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٩ - ٤١٠.

٢ - المغيرة بن شعبة (ت ٥٠ هـ / ٦٧٠ م) ثقفي. من دهاة العرب. صحابي. قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشام وفارس. ولاّه عمر البصرة والكوفة. عزل في عهد عثمان. ولاّه معاوية الكوفة. شدّد التنكيل بشيعة عليّ. كان مزواجاً مطلاقاً - المنجد -

في الناس خطيباً، مهدّداً، متوعّداً، وقال: «كفّوا عنّا سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامّكم». وهدّد بتدمير كل حيّ من أحياء العرب، يخرج منه خارجيّ. الأمر الذي جعل أحد كبار مشايعي عليّ: صعصعة بن صوحان[1]، يتوجّه إلى قومه بخطبة معبّرة من شأن مطالعتها أن تفيد عن معاناة الشيعة في ذلك المكان والزمان. قال صعصعة:

«أيّها الناس، إن الله، وله الحمد، لمّا قسّم الفضل خصّكم بأحسن القسم فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره لنفسه وارتضاه لملائكته ورسله. ثم أقمتم حتّى قبض الله رسوله، صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ اختلف الناس بعده فثبتت طائفة وارتدّت طائفة وأدهنت طائفة وتربّصت طائفة، فلزمتم دين الله إيماناً به وبرسوله وقاتلتم المرتدّين حتى قام الدين وأهلك الله الظالمين، ولم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً حتّى اختلفت الأمّة بينها فقالت طائفة: نريد طلحة والزبير وعائشة. وقالت طائفة: نريد أهل المغرب. وقالت طائفة: نريد عبد الله بن وهب الراسبي. وقلتم أنتم: لا نريد إلاّ أهل بيت نبّينا الذين ابتدأنا الله، عزّ وجل، من قبلهم بالكرامة تسديداً من الله، عزّ وجلّ، لكم وتوفيقاً. فلم تزالوا على الحقّ لازمين له آخذين به حتّى أهلك بكم وبمَن كان على مثل هديكم الناكثين يوم الجمل، والمارقين يوم النهر[2]، فلا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيّكم من هذه المارقة[3] الخاطئة الذين فارقوا إمامنا واستحلّوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر، فإياكم أن تؤووهم في دوركم أو تكتموا عليهم شيئاً، فإنه لا ينبغي لحيّ من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد ذُكر لي أن بعضهم في جانب من الحيّ، وأنا باحث عن ذلك، فإن يكُ حقاً، تقرّبتِ إلى الله بدمائهم، فإن دماءهم حلال».

وختم صعصعة خطبته إلى الشيعة في الكوفة بكلمات من شأنها أن تدلّ على قرار قادة الشيعة يومذاك، القاضي باتّقاء المواجهة مع حكم معاوية الصارم، فقال:

«يا معشر عبد القيس إن ولاتنا هؤلاء أعرف شيء بكم وبرأيكم، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً، فإنّهم أسرع شيء إليكم وإلى مثلكم[4]».

إثر هذه الخطبة، طرد الشيعة الخوارج من دورهم، وراح أعيان الشيعة

---

١ - صعصعة بن صُوحان (ت ٦٠ هـ / ٦٨٠ م): من سادات عبد القيس والعارفين بأنساب العرب وأحوال قومه في الجاهلية. شهد صفّين مع عليّ. نفاه المغيرة بأمر معاوية من الكوفة إلى البحرين - المنجد -

٢ - لم يذكر صعصعة هنا معاوية، أو أهل الشام، لأن السلطان كان لهم. ولهذا دلالة هامة - المؤلف -

٣ - المقصود بـ «المارقة» حيث وردت في هذه الخطبة: الخوارج - المؤلف -

٤ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٢٧ - ٤٢٨

يعلنون للوالي عن استعدادهم لمقاتلة الخوارج. وإذ جهّز المغيرة ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم المعقل بن قيس للقضاء على الخوارج الذين تجمعوا في الصّراة، قال الوالي الأمويّ، لصاحب شرطته: «ألصق بمعقل شيعة عليّ، فإنّه كان من رؤساء أصحابه، فإذا اجتمعوا استأنس بعضهم ببعض وهم أشدّ استحلالاً لدماء هذه المارقة وأجرأ عليهم من غيرهم، فقد قاتلوهم قبل هذه المرّة[1]».

وعلى غرار والي الكوفة، جنّد والي البصرة الأمويّ ثلاثة آلاف فارس شيعيّ، لمحاربة الخوارج. وكانت المعركة في المذار من أرض العراق، حيث أبادت فرقتا الشيعة فرقة الخوارج، وقد قُتل الخليفة الخارجي: المستورد، كما قُتل قائد فرقة الشيعة الكوفيّة: معقل.

وهكذا، نجحت سياسة معاوية القاضية بضرب خصومه بعضهم ببعض، فأضعف الشيعة، ودمّر الخوارج، وألهى القوّتين عن حكمه. وفي الوقت نفسه، أحكم قبضته على مناطق الشيعة، على يد زياد ابن أبيه، الذي أصبح الآن ابن أبي سفيان، فمنع هذا التجوّل ليلاً، ومنع التجمّعات.

أمّا نظام منع التجوّل ليلاً، فقد قضى بأن «يقرأ رجلٌ بعد صلاة العشاء الآخرة سورة البقرة أو مثلها، ترتيلاً، فإذا فرغ، أمهل بقدر ما يرى أن يبلغ إنسان منزله، ثمّ يأمر صاحب شرطته بالخروج، وبأن يقتل أيّ إنسان يراه متجوّلاً». وفي إحدى الليالي، قُبض على إعرابيّ سائراً مع ناقته، واذ لم يكن هذا الرجل قد علم بأمر منع التجوّل، أُحضر إلى زياد، الذي سأله: «سمعت النداء؟». قال الإعرابيّ: «لا والله! قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير». فقال زياد: «أظنّك والله صادقاً، ولكن في قتلك صلاح الأمّة». ثمّ أمر به فضُربت عنقه[2].

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٢٩

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٥٠

ومن الأمثلة على منع التجمُّعات، أنّه قد بلغ زياداً وهو في الكوفة، أنّ الشيعة يجتمعون عند أحدهم، واسمه عمرو ابن الحمق، فأرسل إليه زياد: «ما هذه الجماعات عندك؟ من أردت كلامه ففي المسجد[1]».

وحرص معاوية على الاستمرار في شتم عليّ ولعنه في المساجد، وقد كان يروم من خلال ذلك الإبقاء على كسر شوكة الشيعة، وإثارة المتعلّقين بعليّ، لكشفهم، وبالتالي القضاء عليهم. من ذلك أنّ معاوية، قد أوصى المغيرة بن شعبة، عندما ولاّه على الكوفة، بأن «لا يترك شتم عليّ وذمّه والترحّم على عثمان والاستغفار له، والعيب لأصحاب عليّ والإقصاء لهم، والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم».

وإذ نفّذ المغيرة أوامر معاوية، تصدّى له في المسجد حُجر بن عدي[2]، عندما شتم الأوّل عليّاً، وقال: «... أنا أشهد أنّ من تذمّون أحقّ بالفضل، ومن تزكّون أولى بالذمّ».

وكان المغيرة من الحكمة بحيث كان يكتفي بتنبيه حجر بمثل قوله: «يا حجر إتّقِ هذا السلطان وغضبه وسطوته، فإنّ غضب السلطان يهلك أمثالك...».

وفي آخر أيّام إمارة المغيرة على الكوفة، وإذ قال في عليّ وعثمان ما كان يقوله، صاح حجر به صيحة سمعها كل من بالمسجد، وقد قال: «مر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنّا وليس ذلك لك، وقد أصبحت مولعاً بذمّ أمير المؤمنين». فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون: «صدق حجر وبرّ. مر لنا بأرزاقنا فإنّ ما أنت عليه لا يجدي علينا نفعاً». وإذ تصاعد الضجيج والصراخ، نزل المغيرة عن المنبر، وقد تبعه بعض المقرَّبين منه وسألوه عن سرِّ غضّه الطرف عن المغيرة وجماعته فقال: «إنّي قد قتلته، سيأتي من بعدي أمير يحسبه حجر مثلي، فيصنع

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٦٢

٢ ـ حجر بن عدي الكندي (ت ٥١ هـ / ٦٧١ م): من صلحاء الصحابة. قاتل في فتوح فارس. كان مع عليّ في الجمل والنهروان وصفّين.

به ما ترونه يصنع بي فيأخذه ويقتله! إنّي قد قرب أجلي ولا أحبّ أن أقتل خيار أهل هذا المصر فيسعدوا وأشقى ويعزّ في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة».

وقد صدق حدس هذا الذي عُدّ من أدهى دهاة العرب، فبعد أن توفّي، ووُلّيَ زياد، قام هذا الذي تخلّى عن مشايعته لعليّ مقابل اسم وسلطة، فخطب، وترحّم على عثمان، وأثنى على أصحابه ولعن قاتليه، ولم يكن عدم ذكر زياد لاسم عليّ كافياً ليمنع حجر من أن يتصرّف مثلما كان يفعل أيّام المغيرة. فسارع زياد إلى القبض على حجر وأصحابه، وهم كبار شيعة عليّ في الكوفة، وأرسلهم إلى معاوية في دمشق، وعددهم أربعة عشر رجلاً. وفي سجن الخليفة، عرض السجّانون، بأمر معاوية، على ابن عديّ وستّة من أصحابه، أن يتبرّأوا من عليّ ويلعنوه، ليعفي عنهم، وإلاّ أعدموا. فرفضوا العرض، وصمدوا في ولائهم لعليّ حتى بعد أن حُفرت قبورهم وأحضرت أكفانهم أمام أعينهم. فقتلوهم جميعاً. أمّا الباقون، وعددهم سبعة، فقد أفرج عنهم معاوية إمّا تجاوباً مع رغبات بعض المقرّبين منه، أو لأنّ بعضهم أنكر عليّا[1].

وبقي معاوية حتّى وفاته سنة ٦٠ هـ (٦٧٩ م) وطيلة عهد خلافته الذي استمر أقلّ من عشرين سنة بقليل، مضطهداً لشيعة عليّ. وإذ تأكّد معاوية من دنوّ أجله، أوصى ابنه يزيد، بعد أن كان بايع له الخلافة في سابقة لا مثيل لها في الاسلام، بأن «ينظر» أهل العراق «فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإنّ عزل عامل أيسر من أن يُشهَر عليك مائة الف سيف... ». وتوقّع معاوية، في وصيّته، أن لا ينازع ابنه في الخلافة إلاّ «أربعة نفر من قريش: الحسين ابن عليّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأمّا ابن عمر، فإنّه رجل قد وقذته العبادة، فإذا لم يبقَ أحد غيره بايعك؛ وأمّا الحسين ابن عليّ، فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتّى يخرجوه، فإن خرج

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٧٢ - ٤٨٥؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرات ١٧٧٤ و١٧٧٥: ٥ - ١٧ و ٥ - ١٨؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١.

وظفرت به فاصفح عنه، فإنّ له رحماً ماسّة وحقّاً عظيماً وقرابة من محمّد، (صلعم)؛ وأمّا ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، ليس له همّة إلاّ في النساء واللهو؛ وأمّا الذي لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطّعه إرباً إرباً، واحقن دماء قومك ما استطعت[1]».

... ومات واحد من هؤلاء الأربعة: عبد الرحمن أبو بكر، بعد أن كتب معاوية وصيّته، وقبل أن يتسلّمها ابنه يزيد. وبقي الحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وحقدٌ، وكبتٌ، وتململٌ بانتظار أن يضع الله نهاية لمعاوية... وها هي النهاية تؤذن ... ببدايات.

الحسين ومأساته

لمّا توفّي الحسن مسموماً، وقبل أن يموت معاوية، اجتمع الشيعة بالكوفة في دار سليمان بن صرد، وكتبوا إلى الحسين بن عليّ يعزّونه على مصابه بالحسن:

«بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين سلام عليك، فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد، فقد بلغنا وفاة الحسن بن عليّ. يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيّاً، غفر الله ذنبه وتقبّل حسناته، وألحقه بنبيّه، وضاعف لك الأجر في المصاب به، وجبر بك المصيبة من بعده فعند الله نحتسبه، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. ما أعظم ما أصيب به هذه الامة عامة، وأنت وهذه الشيعة خاصة، بهلاك ابن الوصي وابن بنت النبيّ، علم الهدى، ونور البلاد المرجوّ لاقامة الدين وإعادة سير الصالحين. فاصبر رحمك الله على ما أصابك، إنّ ذلك لمن عزم الأمور، فإنّ فيك خلفاً ممّن كان قبلك، وإنّ الله يؤتي رشده من يُهدى بهديك، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، المسرورة بسرورك، السائرة بسيرتك، المنتظرة لأمرك، شرح الله صدرك، ورفع ذكرك، وأعظم أجرك، وغفر ذنبك، وردّ عليك حقّك[2]».

لم يكن الحسين قد نسي الخيبة التي مُني بها أخوه الحسن، والتي سبّبها أهل

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٥

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٨

الكوفة، ولا ما أصاب منهم أباه، لذلك لم تغرِه الدعوة المبطّنة التي تضمّنتها رسالة التعزية بأخيه الحسن التي وردته منهم، فامتنع عن التحرّك، وبقي ملازماً المدينة طوال ما تبقّى من زمن الحكم الصارم لمعاوية. أمّا الآن، فقد طرأ ما يدعو لإعادة النظر في الموقف.

ما أن مات معاوية، وكان يزيد غائباً عن دمشق، حتّى سارع هذا الأخير بالحضور إلى مركز الخلافة، فصلّى على قبر أبيه، وتصدّر الملك. وكان أوّل ما أقدم عليه أنّه لم يعمل بوصيّة أبيه، إذ كتب إلى عامل الخلافة الأمويّة في المدينة: الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان، ما نصّه: « إذا أتاك كتابي هذا، فأحضر الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، فخذهما بالبيعة لي. فإن امتنعا فاضرب أعناقهما، وابعث لي برؤوسهما، وخذ الناس بالبيعة، فمن امتنع فانفذ فيه الحكم، وفي الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير والسلام[1] ».

أعلم الوليد إبنَي عليّ والزبير بمضمون الكتاب الذي ورده ليلاً، تاركاً لهما مجال النجاة، رغم تحريض مروان بن الحكم له « بأخذهما أو ضرب عنقيهما ».

وكان الحسين بن عليّ، وابن عمر، وابن الزبير، قد رفضوا مبايعة يزيد يوم أرسل والده معاوية، لمروان بن الحكم، إذ كان عامل المدينة، يطلب إليه الحصول من أهل المدينة على المبايعة ليزيد. ومَن رفض المبايعة ليزيد يوم كان والده حيّاً، لن يبايع بعد موت معاوية.

وقبل أن ينبلج الفجر، كان الحسين في طريقه من المدينة إلى مكّة[2]، بناء على نصيحة أخيه من أبيه: محمّد ابن الحنفيّة. ولم يبقَ من أبناء الحسين وإخوته وبني أخيه وأهل بيته في المدينة سوى أخيه محمّد. وكذلك فعل ابن الزبير. أمّا ابن عمر، فكان جوابه كما توقّع معاوية تماماً: « إذا بايع الناس بايعت[3] ».

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤١؛ قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٤
٢ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤١؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٨٤ و ١٨٨٥: ٥ ـ ١٢٨ و ١٢٩؛ قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٥ ـ ١٦
٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٧

ما أن وصل الحسين إلى مكّة حتى جاءه الرسل من العراق، يطالبونه بإعلان نفسه خليفة على المسلمين، إذ كانوا قد علموا بموت معاوية، ووجدوا الظرف مؤاتياً لاستعادة الحقّ السليب. ومن تلك الرسائل، كتاب يقول:

« بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ من شيعته المؤمنين والمسلمين. أمّا بعد فحيّ هلا، فإنّ الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعجَل ثمّ العجَل والسلام[1] ».

وتوالت الرسائل تلحُّ على الحسين بالانتقال إلى العراق، ليبايعوه. وقد بلغ عددها أكثر من مائة رسالة، جلّها على نمط النموذج الوارد أعلاه، أو على تلك التي أرسلها جمع من قادة شيعة الكوفة الذين اجتمعوا هذه المرّة أيضاً في منزل سليمان بن صرد، وبعد أن استعرضوا الوضع، كتبوا إلى الحسين:

« بسم الله الرحمن الرحيم، سلام عليك، فإنّنا نحمد الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد الذي انتزى على هذه الأمّة فابتزّها أمرها وغصبها فيئها وتأمّر عليها بغير رضى منها ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها، وإنّه ليس علينا إمام، فاقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ، والنعمان بن بشير (والي الكوفة آنذاك) في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جُمعة ولا عيد، ولو بلغنا إقبالك إلينا أخرجناه حتّى نُلحقه بالشام إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[2] ».

رغم كثرة المراسلات الواردة من أهل الكوفة، بقي الحسين حذراً، خاصّة وأنّ أصحابه وأقرباءه كانوا ينصحونه بعدم الركون لأهل الكوفة، ويذكّرونه بخذلان هؤلاء لأبيه ولأخيه.

واحد فقط من الأعيان كان يتمنّى أن يبتعد الحسين عن مكّة في هذا الظرف، هو ابن الزّبير، الطامح بالخلافة، والذي كان يرى في الحسين خصماً قويّاً، « وما كان الناس يعدلونه بالحسين[3] »، و « أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين باقياً بالبلد[4] ».

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٠
٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٨٨: ٥ ـ ١٣١
٤ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٠

أمام هذا الواقع، قرّر الحسين أن يرسل إلى الكوفة ابن عمه: مسلم بن عقيل ابن أبي طالب، ليستطلع الوضع هناك، ويتأكّد من استعداد القوم وحُسن نواياهم. فأمره بأن «يسير إلى الكوفة، فإن كان حقّاً ما كتبوا به، عرّفتني حتّى ألحق بك[1]».

وممّا يؤكّد إصرار الحسين على عزمه، أنّ ابن عمّه قد واجه خطورة شديدة وهو في طريقه من مكّة إلى الكوفة عبر المدينة فالصحراء، فمات على الطريق الدليلان اللذان رافقاه، عطشاً، لأنّهما ضلاّ الطريق إلى الماء، وقد نجا مسلم بأعجوبة، إذ عثر على الماء بعد موت رفيقيه بقليل، وكان معه بضعة رجال. فتوقّف مسلم عن السفر، وردّ أحد الرجال إلى الحسين لينقل له الرسالة التالية:

«إني أقبلت إلى المدينة واستأجرت دليلين فضلاّ الطريق واشتدّ عليهما العطش فماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننجُ إلاّ بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخَبيت، وقد تطيّرت، فإن رأيتَ أعفيتني وبعثت غيري».

فكتب إليه الحسين:

«أمّا بعد، فقد خشيت أن لا يكون حملك على الكتاب إليّ إلاّ الجبن، فأمضِ لوجهك، والسلام[2]».

ومضى مسلم في سبيله، حتّى وصل الكوفة، ونزل في بيت مسلم بن عوسجة[3] مستتراً. ولمّا ذاع خبر قدوم ابن عمّ الحسين، أقبل أشراف الشيعة إليه، فكان كلّما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين، وقد جاء فيه:

«أمّا بعد، فقد فهمت كل الذي اقتصصتم، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مُسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إليّ أنّه قد اجتمع رأي ملإكم (أو بلادكم) وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٨٥ : ٥ ـ ١٢٨ ؛ قابل: الطبري، ٢ : ٢٢٨ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢١

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٢

٣ ـ راجع، المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٨٥ : ٥ ـ ١٢٨ ؛ قابل: الطبري، ٢ : ٢٢٨ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢١

أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله، فلعمري ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحقّ، والسلام[1]».

وكان الناس، عندما يستمعون إلى رسالة الحسين، يبكون، ويعِدون بالقتال والنصرة، حتى بلغ عدد الذين مثّلهم المشايخ والأشراف حوالى ثمانية عشر ألفاً، أُعطيت باسمهم المبايعة والمعاهدة والمعاقدة والمواثيق على النصرة والمشايعة والوفاء للحسين. فكتب مسلم بالخبر إلى الحسين، واستحثّه القدوم إلى الكوفة.

جزع محبّو الحسين في الحجاز على الحسين لمّا قرّر الانتقال إلى الكوفة، فهم ما زالوا لا يأمنون أهل العراق، وقد خشوا أن يحلّ بالحسين على أيديهم مثلما حلّ بأبيه عليّ، أو بأخيه الحسن.

وكان من جملة الذين حاولوا ثني الحسين عن عزمه، عمر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، الذي سارع إليه ليقول له: «إنّك تأتي بلداً فيه عمّاله وأمراؤه، ومعهم بيوت الأموال، وإنّما الناس عبيد الدنيا والدراهم، فلا آمن عليك أن يقاتلك مَن وعدك نصرة، وما أنت أحبّ إليه ممّن يقاتلك معه[2]».

كذلك أتاه عبد الله بن عبّاس، ناصحاً، بقوله: «يا ابن عمّ، قد بلغني أنّك تريد العراق، وإنّهم أهل غدر، وإنّما يدعونك للحرب! فلا تعجّل، وإن أبيت إلاّ محاربة هذا الجبّار وكرهت المقام بمكّة فاشخص إلى اليمن، فإنّها في عزلة ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم بها وبُثَّ دُعاتك واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك في العراق فليُخرجوا أميرهم، فإن قروا[3] على ذلك ونفوه عنها ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم وما أنا لغدرهم بآمن؛ وإن لم يفعلوا أقمتَ بمكانك إلى أن يأتي الله بأمره؛ فإنّ فيها حصوناً وشعاباً».

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢١

٢ ـ هذا ما ورد في ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧ ؛ وكذلك في الطبري، ٢ : ٢٤١ ـ ٢٤٤ ؛ أمّا المسعودي فيذكر أن الذي نصح الحسين بهذه النصيحة، إنما هو «أبو بكر إبن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: المسعودي، الفقرة ١٨٨٩ : ٥ ـ ١٣٢.

٣ ـ لعلّ الصواب «قدروا» ـ المؤلّف ـ

بعد أن أصغى الحسين إلى ابن العبّاس، كان جوابه: «يا ابن عمّ، إنّي لأعلم أنّك لي ناصح وعليّ شفيق، ولكنّ مسلم بن عقيل كتب إليّ بإجماع أهل المصر على بيعتي ونصرتي، وقد أجمعت على المسير إليهم».

ولكن ابن العبّاس أصرّ على رأيه، ولم ييأس في محاولته. فراح يذكّر الحسين بأنّهم «من خبرت وجرّبت! إنّهم أصحاب أبيك وأخيك وقتَلَتُك غدا مع أميرهم». ثمّ نبّهه منذراً: «إنّك لو خرجت فبلغ ابن زياد خروجك، إستنفرهم إليك، وكان الذين كتبوا إليك أشدّ عليك من عدوّك. فإن عصيتني وأبيت إلاّ الخروج إلى الكوفة فلا تُخرجنّ نساءك وولدك معك؛ فوالله إنّي لخائف أن تُقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه».

كلّ هذا، لم يُقنع الحسين. ليس لأنّه كان واثقاً من أهل الكوفة، بل لسبب آخر، تضمّنه جوابه لابن عباس، إذ ردّ عليه بقوله: «لأن أُقتل والله بمكانٍ كذا، أحبّ إليّ من أن أستحيي (أو استخفي) بمكّة[1]».

أمّا ابن الزبير، فكانت نصيحته مختلفة، إذ قال للحسين: «لو كان لي بالكوفة مثل شيعتك لما عدلتُ عنها». وتذكر المراجع أنّ ابن الزبير قد استدرك، خوفاً من أن يسيء الحسين الظنّ به، فأضاف إلى قوله: «... ولو أقمتَ بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك أجبناك وكنّا إليك سراعاً وكنت أحقّ بذلك من يزيد وأبي يزيد[2]».

على أيّ حال، فإنّ ابن الزبير الذي كان، على ما يبدو، طامحاً بالخلافة، ما كان في وضع آمن من ذلك الذي اختاره الحسين. وإنّ مصير ابن الزبير بمكّة، لن يكون أفضل من مصير الحسين وهو بطريقه إلى الكوفة، ممّا يدل على أنّ الحسين، ولو بقي في مكّة، كان سيلاقي ما لاقاه. وأغلب الظنّ، أن ابن عليّ، كان مدركاً لهذا الواقع.

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٨٦: ٥ ـ ١٢٩، ١٣٠؛ قابل: الطبري، ٢ : ٢٧٣؛ وابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٨٨: ٥ ـ ١٣١؛ الطبري، ٢ : ٢٧٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٣٨

وبينما كان الحسين وصحبه من عيال وأقارب ومؤيّدين في بداية طريقهم إلى العراق، كان رسوله إلى الكوفة، ابن عمه مسلم بن عقيل، يواجه بداية الغيث الذي خاف محبّو الحسين عليه من مآسيه. ولقد كان أكثر هؤلاء إيجازاً، الشاعر الفرزدق، الذي التقى موكب الحسين خارج مكّة في طريقه إلى العراق، بينما كان هو في الطريق المعاكس، فقال للحسين: «قلوبُ الناس معك، وسيوفهم مع بني أميّة[1]».

عندما وصل مسلم إلى الكوفة، كان واليها الأمير النعمان بن بشير الأنصاري، وكان هذا الأمير حليماً، مسالماً، طيّباً، يكره الحروب. فلمّا بلغه ما يجري في الكوفة من مبايعة للحسين على يد مسلم، إكتفى بأن صعد إلى المنبر وقال: «أمّا بعد، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإنّ فيهما تهلك الرجال وتُسفك الدماء وتُغصَبُ الأموال... إنّي لا أقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليّ، ولا أنبّه نائمكم، ولا أتحرّش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظِّنّة ولا التُهمة، ولكنّكم إن أبديتم صفحتكم، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنّكم بسيفي ما ثبت قائمهُ بيدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر ولا مُعين، أما إنّي أرجو أن يكون مَن يعرف الحقّ منكم أكثر ممن يُرديه الباطل». فقام إليه حلفاء بني أميّة يحثّونه على ضرب مسلم وأتباعه، متّهمينه بأنّه يتصرّف تصرّف المستضعفين، فقال النعمان: «أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبّ اليّ من أن أكون من الأعزّين في معصية الله...» ونزل عن المنبر.

أمام هذا الواقع، كتب أنصار الأمويّين في الكوفة إلى الخليفة يزيد، يصفون له الحال، ويدعونه إلى إرسال رجل قوي «ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوّك[2]».

أخذ يزيد بن معاوية برأي أنصاره في الكوفة على الفور، فعزل واليها، وعيّن عليها عبيد الله بن زياد، والي البصرة بعد أبيه، وأمر ابن معاوية ابن زياد باعتقال

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٤٠

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٢ ـ ٢٣

ابن عقيل وبقتله أو نفيه. وما أن وصل أمر يزيد إلى ابن زياد، حتّى سارع في الانتقال من البصرة إلى الكوفة، فدخلها ومعه أهله وحشمه، وعلى رأسه عمامة سوداء تلثّم بها، وهو راكب بغلة. وإذ كان الناس يتوقّعون قدوم الحسين، راح ابن زياد يحيّي أهل الكوفة الذين ظنّوه ابن عليّ بن أبي طالب، فكانوا يردّون عليه السلام بقولهم: «وعليك السلام يا ابن رسول الله قدمت خير مَقْدَم». ولمّا وصل ابن زياد إلى القصر، كان قد شاع في الكوفة أنّ هذا القادم ما هو سوى الحسين، فتحصّن الأمير النعمان في قصر الولاية، ثم أشرف على القادم، وقال: «يا ابن رسول الله، مالي ولك، وما حملك على قصد بلدي من بين البلدان؟». وهنا، أسفر ابن زياد عن وجهه، وتوجّه إلى النعمان ساخراً بقوله: «لقد طال نومك يا نُعَيم» ... ودخل القصر[1].

ما أن أدرك الناس أنّ القادم ما هو إلاّ «ابن مرجانة» كما كانوا يلقّبون عبيد الله بن زياد، حتّى تفرّقوا. وفي صباح اليوم التالي، جلس الوالي الجديد على المنبر، وألقى كلمة موجزة، فيها الترغيب... والترهيب، فقال:

> «أمّا بعد، فإن أمير المؤمنين ولاّني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالاحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم، وأنا مُتّبع فيكم أمره، ومنفذٌ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم كالوالد البرّ، ولمطيعكم كالأخ الشقيق، (أو الشفيق) وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبقِ امرؤ على نفسه».

وبدأ ابن زياد بإلقاء الرهبة وهو ينزل عن المنبر، موزّعاً أوامره على الناس بأن يفيده كلّ منهم بكلّ ما يعرفه عن «أهل الخلاف والشقاق». وهدّد كل من يُلجيء خارجاً على طاعة الخليفة، بأنّه ممّن «برئت منهم الذمّة، وحلال لنا دمه وماله، وسيُصلب على باب داره[2]». ثمّ بثّ جواسيسه في أنحاء الكوفة، وأمر

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٩١: ٥ ـ ١٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٤؛ قابل: الطبري، ٢: ٢٤١ ـ ٢٤٤

٢ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٤ ـ ٢٥

أحدهم بأن يتظاهر بأنّه من شيعة عليّ، ومن أنصار الحسين، وبأن يجتمع إلى مسلم ابن عقيل، حيث يجتمع إليه الناس، لينقل له كلّ أخبار ابن عمّ الحسين ويفيده عن تحرُّكاته. وقد نفّذ المأمور المهمّة بنجاح.

كان مسلم، عندما عاهده القوم على نصرة الحسين، قد اتّفق مع شيعة أهل الكوفة على كلمة سر، هي: يا منصور، يعني نداؤها الدعوة إلى التجمّع والاستعداد للقتال.

وإذ بدأ ابن زياد باعتقال الذين استضافوا مسلمة شعر هذا الأخير بالخطر، فبثّ النداء: يا منصور. فتنادى أهل الكوفة، وسرعان ما اجتمع ثمانية عشر ألف رجل، سار بهم مسلم إلى قصر الوالي، وحاصره. إلاّ أنّه قبل حلول المساء، كان قد تفرَّق القوم، ولم يبقَ مع مسلم سوى أقلّ من مائة رجل. فرأى مسلم أن يدخل القصر بمائة رجل قبل أن يتفرَّقوا. وقبل أن يبلغ الباب، لم يبقَ منهم سوى ثلاثة... لبعض الوقت، إذ لاذوا بالفرار بعد وقت قصير، وبقي الرجل وحيداً، حائراً، وراح يبحث عمّن يأويه... إلى أن رقّت لحاله إحدى النساء، فسقته، وأوته، لكنّ ابنها وشى به، حتّى اعتُقل، وقُتل، بعد مقاومة بطوليّة، ضدّ أهل الكوفة الذين ساعدوا جند الوالي عليه، بصعودهم إلى السطوح ورجمه بالحجارة، ومن ثمّ تجميعهم أطنان الحطب، وإضرام النار فيها، من أجل حرقه. وعندما رأى مسلم كلّ هذا، قال: «أكلّ ما أرى من الإحلاب لقتل مسلم بن عقيل؟ يا نفسي اخرجي إلى الموت الذي ليس عنه محيص!»

وبعد قتل مسلم، أمر ابن زياد بقتل الذي استضافه: هانئ بن عروة، «فأُخرج إلى السوق، فضربت عنقه... وهو يصيح: «يا آل مراد» وهو شيخهم وزعيمهم وقائدهم، وعدد مقاتليهم «أربعة آلاف درع وثمانية آلاف راجل، وإذا أجابت أحلاف مراد من كندة وغيرها كانوا ثلاثين ألف دارع... ولكنّه لم يجد منهم أحداً[1]»...

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، من الفقرة ١٨٩٢ إلى ١٨٩٧: ٥ ـ ١٣٥ إلى ١٤٠؛ قابل: الطبري، ٢: ٢٤٥ ـ ٢٦٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٢٤ ـ ٢٣٥.

بعد ذلك، أمر ابن زياد بقطع رأس مسلم، وصلب جثّته، وإرسال رأسه إلى دمشق. وكان هذا، أوّل قتيل صُلبت جثّته من بني هاشم، وأوّل رأس حُمل من رؤوسهم إلى دمشق[١].

***

بينما كان مسلم، ابن عمّ الحسين، يقاتل يائساً، وسط خذلان القوم له، إقترب منه محمّد بن الأشعث، وقال له: «لك الأمان، فلا تقتل نفسك». بيدَ أنّ مسلماً استمر يقاتل، وهو يقول: «أقسمت ألاّ أُقتل إلاّ حرّاً...». ولكنّه عندما أُثخن برجم الحجارة بعد مقاومة مستميتة، عجز عن القتال، فأسند ظهره إلى حائط... فاقترب منه ابن الأشعث، ليعتقله، فرآه وعيناه تدمعان، ثم قال: «هذا هو أوّل الغدر. أين أمانكم؟» وبكى. وعندما قيل له: «من يطلب مثل الذي تطلب، إذا نزل به مثل الذي نزل بك، لم يبكِ» قال: «ما أبكي لنفسي ولكنّي أبكي لأهلي المنتقلين إليكم. أبكي للحسين وآل الحسين». ثمّ توجّه بكلامه لابن الأشعث: «إنّي أراك ستعجز عن أماني، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عنّي ليرجع بأهل بيته، ولا يغرّه أهل الكوفة فإنّهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل؟». فقال له ابن الأشعث: «والله لأفعلنّ!». ثمّ كتب بما قال مسلم إلى الحسين[٢].

وصل رسول ابن الأشعث إلى الحسين، وهو وموكبه في منطقة زبالة. فأخبره عن مقتل مسلم، ونقل إليه ما أوصى به ابن عمّه من تمنّيه في ألاّ يكمل مسيره إلى الكوفة. فقال الحسين: «كلّما قدر نازل عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمّتنا[٣]» وأكمل مسيره.

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٨٩٩: ٥ ـ ١٤٢
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٣
٣ ـ المرجع السابق.

الفصل الثالث

مأساة الحسين

- درب الكوفة
- كربلاء

«دعونا لينصرونا
فعَدوا علينا فقتلونا!»

الحسين

درب الكوفة

القادسيّة، موقع من أرض العراق، غربيّ النجف، حدثت فيه المعركة الكبرى بين الجيشين: العربيّ بقيادة سعد بن أبي وقاص، والفارسيّ بقيادة رستم، فانتصر فيها العرب، وانفتحت لهم أبواب الامبراطوريّة الفارسيّة.

كان ذلك سنة ٦٣٥، قبل خمسة وأربعين عاماً من وصول الحسين بن عليّ وصحبه إليها، وهو في طريقه إلى الكوفة. وكان قد مضى على هجرة جدّه الرسول إلى المدينة احدى وستّون سنة، وعلى مقتل أبيه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، على يد الخوارج، ستّ عشرة سنة، وعلى اغتيال أخيه الحسن بالسمّ بعد أن خذله الكوفيّون، عشر سنوات. ولم يكن دم مسلم بن عقيل، ابن عمّ الحسين، قد جفّ بعد، ورأسه قد صار، مقطوعاً، في دمشق، ولا بدّ من أن تكون جثّته قد أُنزلت عن الصليب، ودُفنت بلا رأس.

تختلف الروايات حول ما جرى مع الحسين لدى وصوله إلى القادسيّة. فمن قائل إنّ الحُرّ بن يزيد التميميّ، قد لقيه إلى هناك، وقال له: «أين تريد يا ابن رسول الله؟». قال الحسين: «أريد هذا المصر»؛ فعرّفه بقتل مسلم وما كان من خبره، ثم قال: «إرجع فإنّي لم أدَع خلفي خيراً أرجوه لك»؛ فهمّ بالرجوع؛ فقال له إخوة مسلم: «والله لا نرجع حتّى نصيب بثأرنا أو نُقتل كلّنا!». فقال الحسين: «لا خير في الحياة بعدكم[1]»؛ ثمّ سار باتّجاه الكوفة.

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٠٠: ٤ - ١٤٢ و ١٤٣؛ راجع: الطبري، ٢ : ٢٨١

الى قائل لمّا بلغ ابن زياد مسير الحسين من مكّة، بعث الحصين بن نُمير التميميّ، صاحب شرطته، فنزل القادسيّة، ونظّم الخيل ما بين القادسيّة إلى خفّان، وما بين القادسيّة إلى القطقطانة إلى جبل لعلع. فلمّا بلغ الحسين الحاجر، كتب إلى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداويّ يعرّفهم قدومه، ويأمرهم بالجدّ في أمرهم، فلّما انتهى قيس إلى القادسيّة أخذه الحُصين، فبعث به إلى ابن زياد؛ فقال له ابن زياد: «إصعد القصر فسبَّ الكذّاب ابن الكذّاب الحسين بن عليّ». فصعد قيس فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «إنّ هذا الحسين بن عليّ خير خلقِ الله، ابن فاطمة بنت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، أنا رسوله إليكم وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه». ثمّ لعن ابن زياد وأباه واستغفر لعليّ. فأمر به ابن زياد فرُمي من أعلى القصر فتقطّع فمات. وإذ كان الحسين في طريقه، آنذاك، إلى الكوفة، إنتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مطيع، فلمّا رآه قام إليه فقال: «بأبي أنت وأمّي يا ابنَ رسول الله! ما أقدمك؟» فاحتمله فأنزله، فأخبره الحسينُ، فقال له عبد الله: «أذكّرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب، فوالله لئن طلبتَ ما في أيدي بني أميّة ليقتلُنّك، وإن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً، والله إنّها لحرمة الإسلام تُنتهك وحرمة قريش وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأتِ الكوفة ولا تعرّض نفسك لبني أميّة!» فأبى الحسين إلاّ أن يمضي[1].

الى قائل بأنّ الحسين، لمّا «بلغ القطقطانة، أتاه الخبر بقتل مسلم بن عقيل؛ وانّ عبيد الله بن زياد، لمّا بلغه قربه من الكوفة، وجّه نحوه الحرّ بن يزيد، فمنعه من أن يعدل[2]».

كذلك اختلف المؤرّخون في ذكر هويّة الرسول الذي بعثه الحسين إلى الكوفة،

١ ـ ابن الاثير، الكامل، ج ٤ ص ٤١

٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤٣

والذي قتله ابن زياد، بين قائل بأنّه قيس بن مُسهر الصيداويّ، كما ذكرنا سابقاً، وقائل بأنّ اسمه «عبد الله بن بقطر» أو «عبد الله بن القطر» وإنّ عبد الله هذا، كان أخاً للحسين بالرضاعة. وذكروا أنّه لمّا أتى الحسين خبر قتل أخيه بالرضاعة ومسلم بن عقيل، «أعلم الناس ذلك، وقال: ـ قد خذلنا شيعتُنا، فمن أحبّ أن ينصرف فلينصرف، ليس عليه منّا ذِمام. فتفرّقوا يميناً وشمالاً حتّى بقي أصحابه الذين جاؤوا معه من مكّة. وإنّما فعل ذلك لأنّه علم أن الأعراب ظنّوا أنّه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فأراد أن يعلموا علامَ يُقدمون[1]».

بتنسيق أخبار المراجع، يتبيّن أنّه عندما أكمل الحسين وأهله الأدنون من أقربائه وخاصّته الطريق، كان عددهم بحدود الخمسمائة نسمة، وقد عقد الحسين العزم على الاتجاه نحو كربلاء[2]، فلاحَ لهم في الأفق البعيد للصحراء ما ظنّوه شجر النخيل، غير أنّ الأدلاّء أكّدوا أنه ما من نخلة في هذه الأرض. وسرعان ما تنبّهوا إلى أنّ ما يرونه ليس سوى خيّالة قادمين في اتجاههم باعداد كبيرة. ويبدو أنّ الحسين قد تخوّف من أمر هؤلاء، فطلب إلى أصحابه أن يسرعوا إلى إيجاد ملجأ طبيعيّ يحمي ظهورهم وجوانبهم، كي يستقبلوا القادمين من وجه واحد. فقصدوا جبلاً صغيراً قريباً من المكان يُعرف بـ «ذي حُسُم»، حيث اتخذوا منه حصناً من ثلاثة جوانب.

كان على رأس هؤلاء الفوارس الألف، الذين أرسلهم الحصين بن نُمير التميميّ قائد جيش يزيد: الحرّ بن يزيد التميميّ. وقد جاءَ هؤلاء من القادسيّة، حيث كان تمركز الحصين بجيشه.

لم يُبدِ هؤلاء القادمون في البداية أيّ عداء. وكذلك فعل فريق الحسين، الذي أمر بسقي القوم وترشيف الخيل. وإذ حلّ موعد صلاة الظهر، أمر الحسين مؤذّنه

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٤٣

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٠٠ : ٤ : ١٤٣.

بالآذان. بعدها، خرج الحسين ليقوم بمحاولة عقلانيّة ودينيّة وإنسانيّة، علّه يتمكّن من خلق الحسّ بالوفاء في قلوب هؤلاء الذين جاؤوا لينفّذوا أمراً ما، يمكن أن يكون عدائيّاً.

وقف الحسين، في محاولته هذه، بعد الآذان، خطيباً. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيّها الناس، إنها معذرة إلى الله وإليكم. إنّي لم آتِكم حتّى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدمْ إلينا، فليس لنا إمام، لعلّ الله يجعلنا بك على الهدى. فقد جئتكم؛ فإن تُعطوني ما أطمئنُّ إليه من عهودكم أُقدم مصركم، وإن لم تفعلوا أو كنتم لَمقْدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه[1] ».

لم يلقَ الحسين أيّة ردّة فعل على خطبته. فتوجّه إذ ذاك، في محاولة وديّة، إلى قائدهم، الحرّ، قائلاً: «أتريد أن تصلّي أنت بأصحابك؟»

إلاّ أنّ الحرّ، لم يستطع أن يتجاهل مكانة الحسين، حفيد الرّسول، رغم المهمّة التي جاء من أجلها. فردّ بقوله: «بل صلِّ أنت ونصلّي بصلاتك».

وبعد الصلاة، عاد الحسين إلى أصحابه، وانصرف الحرّ إلى رجاله. وبقي الوضع هادئاً وقد حان موعد صلاة العصر. وكرّر الحسين المحاولة، فوقف هذه المرّة أيضاً قبالة القوم، خطيباً:

«أمّا بعد أيّها الناس، فإنّكم إن تتّقوا الله وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان. فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم ورسلكم إنصرفت عنكم[2] ».

وفيما لم يتغيّر مضمون هذا القول عن سابقه في الخطبة القصيرة الأولى التي لم تلق ردّاً من القادمين من القادسيّة، فقد ردّ هذه المرّة قائد الجماعة، قائلاً: «إنّا والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر!».

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٤٧

٢ ـ المرجع السابق.

هنا، أخرج الحسين خرجين من هذه الرسائل، ونثرها بين أيدي العراقيّين. فلم يجد الحرُّ بدّاً من القول: «... فإنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك». وقد كان في بقيّة ما قاله الحرّ هذه المرّة، بداية المأساة. قال الحرّ: «لقد أُمرنا أنّا إذا لقيناك أن لا نفارقك حتّى نُقدمِك الكوفة على عُبيدْ الله بن زياد». فانفعل الحسين، وردّ بقوله: «الموت أدنى إليك من ذلك!». ثمّ أمر أصحابه بالتهيّؤ للانصراف. وكانت البادرة العدائية الثانية، عندما همّ صحب الحسين بالركوب، إذ منعهم الحرّ من التحرّك. ومن خلال شكل تعاطي الحسين مع الحرّ، يتّضح مدى انفعاله أمام هذا الموقف المخيّب الخطر، الذي وضعه فيه العراقيّون كما وضعوا قبلاً أباه وأخاه. فقال للحرّ: «ثكلتك أمّك! ما تريد؟».

كان الحرّ على رأس ألف مسلّح، ولم يكن سهلاً عليه أن يتجاهل مثل هذه الإهانة من الحسين، كما لم يكن بوسعه أن يتجاهل مكانة الرجل في دينه. فردّ للحسين الصاع، بحنكة، إذ قال: «أمّا والله لو غيرك من العرب يقولها لي، ما تركت ذكر أمّه بالثكل كائناً من كان، ولكنّي والله ما لي إلى ذكر أمّك من سبيل إلاّ بأحسن ما يُقدر عليه».

هذا الكلام، جعل ابن بنت الرسول، يسأل الحرّ هذه المرّة بهدوء: «ماذا تريد؟».

فكان جواب الحرّ التميميّ صريحاً: «أريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد». وإذ ردّ الحسين برفضه الانصياع، ردّ الحرّ بالإصرار، فاحتدم النقاش وعاد الحسين يقسو على القائد المأمور بالكلام أمام رجاله، إلاّ أنّ ما بدر من الحرّ، شكّل تحولاً غير متوقَّع في الموقف إذ، قال: «إنّي لم أؤمر بقتلك وإنّما أُمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة، ولا تردّك إلى المدينة، حتّى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد أو إلى ابن زياد، فلعلّ الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك[1] ».

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٤٨

رأى الحسين متنفّساً في موقف الحرّ التميميّ، فعاد إلى صحبه، وأمرهم بأن يحيدوا عن طريق العُذيب والقادسيّة، شمالاً، فسار الحرّ برجاله قريباً من موكب الحسين، الذي، بعد مسير بعض الوقت، أمر بالتوقّف، وتوجّه من العراقيّين بخطبة جديدة، هي، وإن شابهت خطبته الثانية في مضمونها لما فيها من دعوة للانتفاض على الأمويّين ولمبايعته، قد تميّزت بقوّتها من حيث تأنيبهم على ما تسبّبوا فيه لأبيه ولأخيه، وعلى ما ينوون تنفيذه من نقض للعهد معه، فقال:

«أيّها الناس، إنّ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنّة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يُدخله مدخَله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمَن وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيءِ وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ مَن غيَّر، وقد أَتتني كتبكم ورسلكم وبيعتكم، وأنّكم لا تُسلّموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تُصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن عليّ بن فاطمة بنت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم فيَّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي، فلَعمْري ما هي لكم بنكير، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبَكم ضيّعتم، ـ فَمَنْ نكَثَ فإنّما ينكثُ على نفسه[1] ـ وسيغني الله عنكم والسلام[2] ».

حاول القائد المكلّف بنقل الحسين إلى الكوفة وإحضاره إلى ابن زياد أن ينبّه حفيد الرسول إلى خطورة وضعه بقوله له ردّاً على ما جاء في خطبته: «إنّي أذكّرك الله في نفسك، فإنّي أشهد لئن قاتلتَ لتُقتلنَّ».

بيدَ أن ردّ الحسين كان عنيفاً:

«أبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ وما أدري ما أقول لك! ولكنّي أقول كما قال أخو الأوسي لابن عمّه وهو يريد نصرة رسول الله، (صلعم)، فقال له: أين تذهب؟ فإنّك مقتول! فقال:

١ ـ سورة الفتح، ١٠ : ٤٨

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٤٨

سأمضي وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً
وواسى رجالاً صالحين بنفسه ... وخالف مثبوراً وفارق مجرماً
فإن عشت لم أندم وان متُّ لم أُلم ... كفى بك ذلاّ أن تعيش وتُرغما »

عندما انتهى الحسين من كلامه، رأى الحرّ أن يتنحّى عنه برجاله. وعاد القوم إلى المسير، وأهل العراق وقائدهم يسيرون بموازاتهم حتّى لا يفلتوا من مراقبتهم. وإذ وصلوا إلى مكان يعرف بـ «عُذيب الهجانات» وصل أربعة رجال من الكوفة، وحاولوا الانضمام إلى موكب الحسين. وإذ حاول الحرّ منعهم من ذلك، تصدّى له الحسين:

«لأمنعنّهم ممّا أمنع منه نفسي. إنّما هؤلاء أنصاري وهم بمنزل من جاء معي، فإن تممتَ على ما كان بيني وبينك والاّ ناجزتك».

مرّة أخرى، تنحّى الحرّ. وتبيّن أنّ ما حمله الكوفيّون الأربعة إلى الحسين، لم يكن مشجّعاً: «... أمّا أشراف الناس فقد أُعظمت رشوتهم، ومُلئت غرائرهم، فهم ألبٌ واحدٌ عليك، وأمّا سائر الناس بعدهم فإنّ قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك». ولمّا وصفوا له كيف أنّ أهل الكوفة تعاونوا على قتل ابن عمّه ورسوله مسلم بن عقيل، وأخبروه عن كيفيّة استشهاد رسوله الآخر: قيس بن مُسهر، ترقرقت عيناه بالدموع، ليس فقط حزناً على من استشهدوا، بل وعلى من سيستشهدون. وفي الآية التي قرأها في تلك اللحظة تعليقاً على أخبار وفد الكوفة، ما يعبّر عن مدى جزع الحسين مما سوف تحمله الساعات المقبلة. لقد قرأ: «فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً». وقال: «اللهم اجعل لنا ولهم الجنّة واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ رحمتك رغائب مذخور ثوبك[1] ».

رغم أن الحسين كان شبه واثق من فظاعة الآتي، بقي مصرّاً على عدم الفرار. فإذا كان الحرّ قد منعه من إكمال طريقه إلى الكوفة، كما منعه من العودة إلى المدينة، فقد كان بوسعه الهرب تحت جناح الليل، إلاّ أنه أبى ذلك.

١ ـ المرجع السابق، ص ٤٩

كان من جملة الأربعة الذين قدموا من الكوفة، الطّرماح بن عديّ. وكانت قبيلته تنزل في جبلٍ منيع قصيّ عن عيون الأمويّين وأيديهم، يُعرف بجبل أجأ. وكان من الطرماح للحسين عرض مهمّ في هذا الظرف الخطير، إذ قال له: «والله ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلاّ هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم، ولقد رأيت قبل خروجي من الكوفة بيوم، ظهر الكوفة، من الناس ما لم ترَ عيناي جمعاً في صعيد واحد أكثرَ منه قطّ ليسيروا إليك، فأُنشدك الله إن قدرتَ على أن لا تُقدم إليهم شبراً فافعل، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتّى ترى رأيك ويستبين لك ما أنت صانع فسر حتّى أنزلك جبلنا أجأ، فهو والله جبل امتنعنا به من ملوك غسّان وحِمْير والنعمان بن المنذر ومن الأحمر والأبيض، والله ما إن دخل علينا ذلّ قط، فأسير معك حتّى أنزلك القريّة، ثم تبعث إلى الرجال ممّن بأجأ وسلمى من طيء، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيّام حتّى يأتيك طيء رجالاً وركباناً، ثمّ أقِم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، فوالله لا يُوصَل إليك أبداً وفيهم عين تطرف».

وإذ أبى الحسين الهرب بلطف، مقدّراً للرجل موقفه واستعداد قومه، ودّعه الطرماح قاصداً أهله ليعود بهم كي يشترك في الدفاع عن الحسين. ولكنّ الأمر قُضي قبل أن يصلوا إلى ساحة القتال، واستشهد الحسين بينما كانوا في «عُذيب الهجانات».

في هذه الأثناء، أتت التوجيهات من الكوفة، حيث ابن زياد عاملِ ابن معاوية، إلى رئيس الفرقة العسكريّة الحرّ بن يزيد التميميّ، تأمر بالتضييق على الحسين وصحبه، وبمنعهم من الوصول إلى الماء، أو إلى قريةٍ عامرة.

ويتّضح من سير الأحداث التي جرت بتوجيه من يزيد بن معاوية، أنّ هذا الأخير أراد أن يُخرج أكبر عدد ممكن لقتال الحسين، وقتله. وفي ذلك دهاء سياسي واضح، فإنّ الخليفة أراد ان يُشرك كلّ الكوفيّين، إذا أمكن، في قتل الحسين، كي يسدّ الطريق سلفاً على أيّة نقمة محتملة. ثمّ إنّ فرقة القادسيّة، وعدد أفرادها

حوالى ألف مقاتل، كانت قادرة على سحق الحسين وصحبه، إذ عدد المقاتلين معه لم يكن يتجاوز التسعين. إلاّ أنّ قائد هذه الفرقة لم يكن مقتنعاً بجواز قتل الحسين.

وبالفعل، فقد وجّه ابن زياد، عملاً بأوامر يزيد، أربعة آلاف مقاتل نحو الحسين، بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقّاص. وإذ أبدى عمر تململاً إزاء هذه المهمّة، هدّده ابن زياد بأقسى العقوبات إن لم ينفّذ المهمّة التي تقضي: إمّا بانتزاع المبايعة من الحسين ليزيد بن معاوية، أو بقتله.

كان عمر، ذا مرتبة مرموقة في الجيش الأمويّ، ولكنّه قد صعب عليه أن يُقدم على ذبح حفيد الرسول. ذلك أنّ أباه سعداً، وهو من قريش، كان صحابيّاً، وهو خامس السبّاقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشّرة. وقاتَل سعد إلى جانب الرسّول في جميع الغزوات، وقاد جيوش فتح فارس، وانتصر على رستم في القادسيّة، واتّخذ الكوفة مقرّاً له، وشيّد فيها أوّل مسجد. ولم يكن مرّ على موته سوى ستّ سنوات.

ثمّ إنّ أقارب عمر بن سعد، جاؤوا ناصحين بأن «يتنازل عن الدنيا والمال والسلطان» وألاّ «يلقى الله بدم الحسين».

وهكذا، فعندما وصل عمر على رأس الآلاف الأربعة إلى الحسين وهو محاصر، بعث إليه رسولاً يسأله عن سبب مجيئه إلى أرض العراق. فكان جواب الحسين كما في كل مرّة: «كتبَ اليّ أهل مصركم لأقدم عليهم، فأمّا إذا كرهوني، فإنّي أنصرف عنهم».

حاول عمر بن سعد أن يتّقي الشرّ، فبعث إلى ابن زياد رسولاً على جناح السرعة، يعرض عليه حقيقة الأمر: فالحسين لم يأتِ مقاتلاً، بل جاء مسالماً، وهو مستعدٌّ للعودة من حيث أتى. غيرَ أنّ جواب العامل الأمويّ كان: المبايعة، وإلاّ فاستمرار الحصار، ومنعُ الماء عن الحسين وجماعته.

لم يكن بدّ من تنفيذ الأمر، فبدأ حصارٌ قاسٍ، شمل منع القوم عن الماء. إلاّ أنّ عمرَ، على ما يبدو، قد غضَّ الطرف لمّا أرسل الحسين أخاه العبّاس بن عليّ مع عشرين راجلاً وثلاثين فارساً يحملون القرَب، قصدوا الماء وعادوا بها ملأى. هنا حاول الحسين أن يتفاوض مع ابن سعد، ليلاً، في نقطة من المساحة الفاصلة بين المعسكَرَين.

وتذكر المدوّنات أنّ الحسين فاوض عمر على أن يخرجا معاً إلى الخليفة يزيد بن معاوية، على أن يبقى الوضع العسكريّ على ما هوعليه، بانتظار نتيجة المفاوضة. ولكنّ عمرَ، وهو الذي جاء على رأس الحملة جبراً، قال: «أخشى أن تُهدم داري». ولم يقتنع بوعد الحسين الذي عرض عليه أن يبني له خيراً منها إذ قال: «تؤخذ ضياعي»! فعرض عليه الحسين خيراً منها ممّا له في الحجاز. لكنّ عمر كره ذلك.

ويختلف المؤرّخون حولما إذا كان الحسين قد أعرب لعمر عن استعداده لوضع يده بيد يزيد بن معاوية، كما جاء في بعض التواريخ. وقد يكون لنفي هذا الاحتمال ما يبرّره منطقيّاً، ذلك أنّ الحسين كان بوسعه أن ينجوَ، بمجرّد مبايعة يزيد. وقد نُقل عن الذين نجوا من كربلاء، فحوى شهادتهم بأنّ جلّ ما عرضه الحسين قبيل المجزرة، كان: إمّا عودته من حيث أتى، أو فك الحصار عنه ليذهب «في هذه الأرض العريضة، حتّى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس». وقد تكون خلاصة الحقيقة في ما كتبه عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد في رسالته الثانية التي جاء فيها: «أمّا بعد... فإنّ الله أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وقد أعطاني الحسين أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه أو أن نسيّره إلى أيّ ثغر من الثغور شئنا، أو أن يأتي يزيدَ أميرَ المؤمنين فيضع يده في يده، وفي هذا لكم رضى وللأمّة صلاح».

لقد توصّل عمر إلى هذه النتيجة مع الحسين، بعد أن اجتمع إليه بين

المعسكرين ثلاث مرات على الأقل. وكان من المفترض أن يُنهي استعداد الحسين، المشكلة. وهذا في الواقع ما كاد يحصل، لأنّ ابن زياد، عندما قرأ كتاب عمر، قال: «هذا كتاب رجل ناصح لأميره، مشفق على قومه. نَعم قد قبلت». إلاّ أنّ مستشاري ابن زياد والمقرَّبين منه من أمويّي الكوفة، حرّضوه على الحسين، بحجّة أنّ هذا الأخير سينقضّ على الإمارة، والخلافة، فإنّ العفو عنه سيمنحه قوّة شعبيّة مخبوءة بفضل قساوة الحكم. وهكذا خشي ابن زياد سوءَ العاقبة... فغيّر رأيه بسرعة.

اختار أمير الكوفة أحد هؤلاء الذين ألّبوه على الحسين: شمِر بن ذي الجوشَن، ليرسله إلى عمر بن سعد ومعه كتاب يأمره بأن يعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمه، «فإن فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً، وإن أبوا فليقاتلهم». ويشترط الكتاب على عمر الطاعة، وتنفيذ الأوامر، وإذا أبى، يتسلّم القيادة حامل الرسالة شمِر، ويكون مأموراً بضرب عنق عمر وإرساله إلى ابن زياد. وجاء في كتاب هذا الأخير إلى عمر بن سعد:

«... أمّا بعد، فإنّي لم أبعثك إلى الحسين لتكفّ عنه ولا لتمنّيه ولا لتُطاوله ولا لتقعد له عندي شافعاً، أنظر فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إليّ سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتّى تقتلهم وتمثّل بهم فإنهم لذلك مستحقّون، فإن قُتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنّه عاقّ شاقّ قاطع ظلوم. فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخلّ بين شمِر وبين العسكر والسلام[1]».

أدرك عمر عندما قرأ الكتاب أن شمراً واحد من الذين كانوا وراء هذا الموقف. وينمّ الكلام الذي وجّهه إلى شمر عن مرارته، وحراجة موقفه، وإدراكه للواقع. قال: «... ما لك ويلك قبّح الله ما جئت به! والله وإني لأظنّك أنت ثنيته

١ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٨٤ ـ ٩١

أن يقبل ما كنتُ كتبت إليه به. أفسدت علينا أمراً كنّا رجونا أن يصلُح. والله لا يستسلم الحسين أبداً. والله إنّ نفس أبيه لَبين جنبيه».

لكنّ ابن سعد، رغم هذا، انصاع لأمر ابن زياد، أي، ابن عم يزيد بن معاوية، بعد أن صار اسم زياد ابن أبيه، زياد ابن أبي سفيان.

كان بين أصحاب الحسين وأقاربه، إخوته من زوجة أبيه «أمّ البنين» وهم: العبّاس، وعبد الله، وجعفر، وعثمان. وكانت أمّ البنين أخت حامل الرسالة ومحرّض ابن زياد على الحسين: شمِر بن ذي الجوشن. وقد تمكّن هذا من انتزاع عفو من ابن زياد، لأبناء اخته، إخوة الحسين من عليّ. فعندما وثق من أنّ ابن سعد سينفّذ الامر، نهض شمِر إلى قبالة معسكر الحسين، ودعا العبّاس بن عليّ وإخوته فخرجوا إليه، فقال: «أنتم يا بني أختي آمنون» فقال له العبّاس وإخوته: «لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟».

كـــــــربلاء

عشيّة العاشر من محرّم السنة ٦١ للهجرة، أيقن الحسين أنّ ساعته قد دنت، فإنّ الذين ناشدوه المجيء إلى الكوفة، باعوا عهدهم بدنياهم، وقد صدق ظنّ الذين نصحوه بعدم الوثوق بهم. وممّا زاده يقيناً ـ إلاّ إذا كانت الأحلام تعبيراً عن الظنّ ـ أنّه قد غفا لهنيهة وهو جالس أمام خيمته محتبياً بسيفه، فرأى في منامه الرسول الذي قال له: «إنّك تروح إلينا». وكانت أخته زينب أوّل من أخبرها الحسين بمنامه، بينما كان عمر وأهل الكوفة معه يتّجهون نحو مضارب الحسين وأهله.

وإذ كان الحسين يكفكف دموع أخته المُولولة، كان أخوه العبّاس متّجهاً ليفاوض ابن سعد، بناء على تكليف الحسين الذي طلب إليه محاولة تأجيل القتال حتى الصباح «لعلّنا نصلّي إلى ربّنا».

جرى التفاوض السريع على مسافة قصيرة من مكان الحسين، وقد أبلغ ابن سعد رسول الحسين بمضمون أمر ابن زياد: «إمّا الاستسلام، أو الموت». ولقد كان عمر هذه المرّة مصمّماً على تنفيذ الأمر، فإنّ عدم التنفيذ بات يعني خسارة عنقه بالذات.

تردّد عمر بن سعد في منح الحسين المهلة التي طلبها، ولكنّه في النهاية وافق بعد أن كلّمه عمرو بن الحجّاج الزبيديّ لائمًا: «سبحان الله! والله لو كانوا من الديلم ثمّ سألوكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوهم!».

يتّضح من تصرّفات الحسين في تلك الليلة، أنّ أوّل ما كان يبغيه من تأخير الواقعة حتّى الصباح، محاولة انقاذ أقاربه وأصحابه. فلقد تيقّن أنّ الأمر قد أصبح في حكم المقضيّ، ولن تفيد دماء أحبّائه في إنقاذ الوضع، فدفعت به شهامته إلى أن دعا مريديه المرافقين له في ذلك الظرف المأساوي، وقال:

«أُثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللهمّ إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة وعلّمتنا القرآن وفقّهتنا في الدين فاجعلنا لك من الشاكرِين. أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عنّي خيراً. ألا وإنّي لأظنّ يومنا مع هؤلاء الأعداء غداً، وإنّي قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم منّي ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثمّ تفرّقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم حتّى يفرّج الله، فإنّ القوم يطلبونني ولو أصابوني لهَوا عن طلب غيري».

كان الحسين جادّاً في طلبه هذا، بيدَ أنّ الأجوبة التي جاءَته من محبّيه ومريديه وإخوته وأقربائه، بيّنت عمق المأساة. فلقد فضّل هؤلاء الموت المحتّم على العار والذلّ والجبن. قالوا له: «لمَ نفعل هذا؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً!».

كرّر الحسين محاولته موجّهاً كلامه إلى أبناء عمّه عقيل: «حسْبكم من القتل بمسلم يا بني عقيل! إذهبوا فقد أذنت لكم!».

وكان جواب بني عقيل معبّراً وصريحاً: «ماذا نقول للناس؟ نقول تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب بسيف ولا ندري ما صنعوا؟ والله لا نفعل. ولكنّا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتّى نردَ موردك، فقبّح الله العيش بعدك!».

شعور آخر، كان يختلج في صدور أولئك الذين رافقوا الحسين. إنّه ذلك الشعور الدينيّ العميق الذي عبّر عنه مسلم بن عوسجة الأسدي: «أنحن نتخلّى عنك ولم نُعذِر إلى الله في أداء حقّك؟ أمَّا والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، والله لو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت معك».

ليس بوسع المرء إلاّ أن يقدّر، بإعجاب ورهبة، صمود الحسين ورجاله في تلك الليلة التي لم يجزع فيها سوى بعض النسوة من أهل الحسين، لفرط حبّهنّ له، بعد فقدانهنّ الأب والأخ والأمّ. منهنّ زينب، التي وثبت نحو أخيها الحسين، ثاكلة: «ليت الموت أعدمني الحياة اليوم. ماتت فاطمة أمّي، وعليّ أبي، والحسن أخي، يا خليفة الماضي وثمال الباقي!».

وفي تعزية الحسين لأخته، وفي آخر ما حدّث به أصحابه ليلة عاشوراء، كان ذلك الدستور الذي سيسود الشيعة فيما بعد: دستور التضحية بالحياة من أجل الآخرة. قال الحسين لأخته زينب:

«يا أخيّة، لا يُذهبنّ حلمك الشيطان... إتّقي الله وتعزّي بعزاء الله وأعلمي أنّ أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وأنّ كل شيء هالك إلاّ وجه الله، أبي خير منّي وأمّي خير منّي وأخي خير منّي، ولي ولهم ولكلّ مسلم برسول الله أسوة... يا أخيّة إنّي أقسم عليك لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إن أنا هلكت[1]».

---

١ ـ المرجع السابق؛ راجع اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤٤

بعد هذا، خرج الحسين إلى أصحابه. وكان آخر ما قاله لهم قبل المعركة:

«... فإن كنتم وطّنتم أنفسكم على ما وطّنت عليه نفسي، فاعلموا أنّ الله تعالى إنّما يهب المنازل الشريفة لعباده باحتمال المكاره، وإنّ الله تعالى كان قد خصّني مع من مضى من أهلي الذين أنا آخرهم بقاء في الدنيا من الكرامات، بما يسهُل عليّ معها احتمال المكاره، فإنّ لكم شطر ذلك من كرامات الله. واعلموا أنّ الدنيا مرّها وحلوها حلم، والانتباه في الآخرة، والفائز من فاز فيها، والشقيّ من شقى فيها[1]».

قال الحسين هذا، وبات وأصحابه تلك الليلة ولهم دويّ كدويّ النحل ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد... بينما كان جيش الكوفة يقوم بأعمال الدوريّة حول المكان. ثم لمّا انشقّ أديم الليل عن صبحه. وقد كان مؤذّن الحسين: الحجّاج ابن مسروق الجعفيّ. لكنّ الحسين قال لولده عليّ: «يا بنيّ. قم أنت في هذا اليوم فأذّن».

لقد أراد الحسين من خلال ذلك تسمية خليفته.

بينما كان القوم في الدّعاء، علت أصوات الطّبل والزّمر من عسكر أهل الكوفة، الذين أقبلوا إلى ناحية معسكر الحسين، يجولون زرافات ووحداناً راجلين وفرساناً. فجرت التعبئة فوراً، وانتظمت الصفوف من الجانبين ميمنة وميسرة. ويذكر الرواة الموثوقون أنّ عدد المقاتلين مع الحسين، كان قوامه مائة راجل وخمسة وأربعين فارساً. بينما كان بأمرة عمر بن سعد أربعة آلاف مقاتل[2].

كان الحسين قد أمر تلك الليلة أن يُحفر خندق وراء الخيام ويُلقى فيه الحطب والقصب وتُشعل فيها النيران كي لا يبقى للعدوّ مجال للاقتحام من الخلف، وليكون القتال وجهاً لوجه، ولا يكون سبيل للهجوم على حرم الرسالة...

---

١ ـ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء، مقتل الحسين، المكتبة الحيدريّة، (النجف ١٩٦٤) ص ١١

٢ ـ تعدّدت تقديرات عديد المقاتلين بين قائل بأن عسكر الكوفة كان عدده سبعين ألفاً، وقائل بأنّ مقاتلي الحسين كان عددهم ألف فارس ومائة راجل، وبين مفرط في تقليل العدد. الاّ أن العدد المذكور في النص، هو الأكثر اعتماداً من قبل كبار المؤرّخين. راجع: الكامل، ابن الأثير، ج ٤ ص ٦٠؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤٣؛ الطبري، ٢ : ٢٨١؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٠٠: ٥ ـ ١٤٣

أقبل عسكر ابن سعد محاولاً الالتفاف على عسكر الحسين. ولمّا فوجئوا بالنيّران مضطرمة، نادى القائد الكوفيّ شمّر هازئاً: «يا حسين، تعجّلتَ بالنار قبل يوم القيامة». فردّ الحسين بقوله: «يا ابن راعية المعزى أنت أولى بها صليًا». فأخذ مسلم بن عوسجة، من أصحاب الحسين، سهماً ليرمي به شمرا، ولكنّ الحسين منعه قائلاً: «لا ترمه. فإني أكره أن أبدأهم بالقتال».

وحاول بعض مأموري الكوفة استفزاز الحسين وصحبه ليبدأوا القتال، فراحوا يوجّهون لهم كلاماً هازئاً ومثيراً، غير أنّ الحسين منع الردّ قتالاً، مصمّماً على ألاّ يكون البادئ. وممّا سمعه الحسين في هذا المجال، قول الكوفيّ، محمّد بن الأشعث الكندي منادياً: «يا حسين ابن فاطمة، أيّ حرمة لك من رسول الله ليست لغيرك؟» فتلا الحسين:

«إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين» - الآية - وأضاف: «وإنّ محمّداً لمن آل إبراهيم والعترة الهادية من آل محمّد[1]»...

وبينما استمرّت تلك المضايقات، عاد الحسين ليحاول مع هؤلاء الغوغاء انفاذ ومضة ضمير ودين ومنطق. فركب راحلته، والصفوف ملتئمة في الجهتين، ونادى: «اسمعوا!» فانصتوا له. فخطب بأعلى صوته:

«يا أهل العراق، إسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يحقّ لكم عَليّ وحتّى أعذر فيكم. فإن أعطيتموني النصَف من أنفسكم، وإلاّ - فاجمعوا أمركم وشركاءهم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون[2] - . - إنّ وليَّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين[3] - ... أمّا بعد: فانسبوني وانظروا من أنا، ثمّ راجعوا أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل مصدّق به؟ أوليس حمزة سيد الشُهداء عمّي؟ أوليس جعفر الطيّار في الجنّة بجناحين عمّي؟ أو لم يَبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟.

١ - العترة: ولْد الرجل وذريته أو عشيرته ممن مضى.
٢ - سورة يونس، ١٠ : ٧١
٣ - سورة الاعراف، ٧ : ١٩٦

فإن صدّقتموني في ما أقول، وهو الحقّ، والله ما تعمّدت الكذب منذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، وإن كذَّبتموني فإنّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاريّ، وأبا سعيد الخدريّ، وسهل بن سعد الساعديّ، وزيد بن أرقم، وأُنس بن مالك، يخبروكم أنّهم سمعوا تلك المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ ... فإن كنتم تشكّون في ذلك، أفتشكّون في أنّي ابن بنت نبيّكم؟ والله ما في المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم ولا في غيركم. أتطلبونني بقتيل منكم قتلته أو بمال استهلكته او بقصاص جراحة؟». وعندما أخذوا لا يكلّمونه، نادى: «يا شَبَث بن ربعي. ويا حجّار بن أبجر. ويا قيس بن الأشعث. ويا زيد بن الحارث. ألم تكتبوا إليّ أن أقدم فقد أينعت الثمار وأخضرّ الجناب وإنّما تُقدم على جند لك مجنّدة؟»

فقال ابن الأشعث: «ما ندري ما تقول ولكن إنزل على حكم من ابن عمّك[1] فإنّك لن ترى الاّ ما تحبّ». فقال له الحسين: «لا والله لا أعطيهم بيدي عطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبد. عباد الله إنّي عُذتُ بربّي وربّكم أن ترجمونِ (كذا). أعوذ بربّي وربّكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب». ثمّ أناخ راحلته ونزل عنها[2].

قد يكون في الكلام الذي وجّهه، بعد الحسين، زهير بن القيّن، إلى أهل الكوفة، الذين كانوا يقاتلون تحت اللواء الأمويّ، بوادر أخطر ما سوف يشهده الإسلام من انقسام بعد مقتل الحسين. ولا بدّ من التوقّف عند مضمون هذا الكلام، الذي أهمله المؤرّخون والمدقّقون.

خرج زهير بن القيّن على فرس له في السلاح، حتّى صار قبالة الكوفيّين، فقال:

«يا أهل الكوفة. نَذَار لكم من عذاب الله نذار. إنّ حقّاً على المسلم نصيحة المسلم. ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنّا نحن امّة وانتم أمّة، إنّ الله قد ابتلانا وأيّاكم بذرّية نبيّه محمّد،

١ - عنى بـ «ابن عمّك» ابن زياد.
٢ - ذكر التستري أنه لمّا نزل عن راحلته، أمر عقبة بن سمعان أن يعقلها فعقلها، وبقيت تلك الناقة معقولة حتّى قتل الحسين، فلم تزل تضرب برأسها الأرض حتى ماتت.

صلّى الله عليه وسلّم، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلاّ سوءاً، يسملان أعينكم، ويقطّعان أرجلكم وأيديكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال حَجر بن عديّ وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه».

غير أنّ أهل الكوفة، وهم الجازعون من بطش ابن زياد، ما كان بوسعهم أن يدَعوا سابّ ابن زياد على رؤوس الأشهاد، يكمل خطبته على مسمعهم دون استنكار. فقاطعوه، وسبّوه، وأثنوا على ابن زياد وقالوا: «والله لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد مسلّماً». كذا كانت الأوامر. ولكنّ زهيراً، لم ييأس. فاستأنف كلامه قائلاً:

يا عباد الله إنّ ولد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة[1]، فإن كنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم. خلّوا بين الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية، فلَعمري إنّ يزيدَ لَيرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين[2]».

وإذ لم يجد هذا الكلام الهمَم المرجوّة، تحوّل التخاطب إلى سباب. فإنّ شمراً، رمى زهيراً بسهم وقال: «أسكُت أسكَت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك!». فردّ زهير: «يا ابن البوّال على عقبيه، ما إيّاك أخاطب إنّما أنت بهيمة! والله ما أظنّك تُحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم». فردّ شمر: «إنّ الله قاتلِك وصاحبك من ساعة». قال زهير: «أفبالموت تخوّفني؟ والله لَلموتُ معه أحبّ إليّ من الخلد معكم!». ثمّ رفع صوته وقال: «عباد الله لا يغرّنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي، فوالله لا تنال شفاعة محمّد قوماً أهرقوا دماء ذريّته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم».

١ ـ سميّة: هي أم زياد (جدّة عبيد الله لأبيه) وهي باغية، حملت بزياد من أب مجهول، لذلك لُقّب زياد بابن أبيه، إلى أن اثبت معاوية أن والده أبا سفيان هو الرجل الذي حملت منه الباغية وانجبت زياداً؛ راجع الفصل الاوّل من هذا الكتاب.

٢ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٦٣

وكان الحسين قد دعا بفرس الرسول، المرتجز، وركبها وتوجّه نحو عسكر ابن سعد وبين يديه جماعة من أصحابه، فيهم برير بن خضير، فلمّا دنوا منهم، أمر الحسين زهيراً بالعودة إلى المعسكر، فامتثل. وهنا نادى برير أهل الكوفة:

«يا قوم، إتقوا الله فإنّ ثقل محمّد أصبح بين أظهركم. هؤلاء ذريّته وعترته وحرمه، فهاتوا ما عندكم وما تريدون أن تصنعوا بهم». فقالوا: «نريد أن نأتي بهم الأمير عبيد الله بن زياد». فقال لهم: «أفلا تقبلون أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟ ويلكم يا أهل الكوفة: أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها وأشهدتم الله عليها؟ ويلكم يا أهل الكوفة: دعوتم أهل بيت نبيّكم وزعمتم أنّكم تقتلون أنفسكم دونهم حتّى اذا أتوكم أسلمتموهم إلى ابن زياد ومنعتموهم عن ماء الفرات... بئس ما خلفتم نبيّكم في عترته. مالكم لاسقاكم الله يوم القيامة. فبئس القوم أنتم». فقالوا «أكفف يا برير فما ندري ما تقول». فقال: «الحمد لله الذي زادني بصيرة فيكم. اللهمّ إنّي أبرأ إليك من أفعال هؤلاء القوم. اللهم ألقِ بأسهم بينهم حتّى يلقوك وأنت عليهم غضبان[1]».

ثمّ دنا الحسين، وخطب خطبته الثانية في ذلك اليوم، وقد قال فيها:

ـ «أنشدكم الله: هل تعرفونني من أنا؟»

قالوا: «نعم أنت ابن بنت رسول الله وسبطه إلى آخرها». وكان آخر جوابهم في هذه الخطبة: ـ «... وقد علمنا كلّ ذلك ونحن غير تاركيك أبا عبد الله حتى تذوق الموت عطشاً». فلمّا سمع ذلك دمعت عيناه وضرب لحيته وقال:

ـ «إشتدّ غضبُ الله على اليهود حين قالوا عزير ابن الله. وعلى النصارى إذ قالوا المسيح ابن الله. وعلى المجوسيّ إذ عبدوا النار دونه. واشتدَّ غضبه على هذه العصابة التي قد اجتمعت على قتل ابن بنت نبيّهم. أمّا والله لا أجيبهم إلى شيء ممّا يريدون حتّى ألقى الله مخضّباً بدمي».

١ ـ آل كاشف الغطاء، ص ١٦

وإذ زاد التوتّر، ولاح أنّ المعركة ستشتعل، حاول الحسين مرّة أخرى اتّقاءها، فخطب خطبته الثالثة في ذلك اليوم، فقال:

«الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته، والشقيّ من فتنته، فلا تغرّنّكم هذه الدنيا، فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته وجنّبكم رحمته، فنِعم الربّ ربّنا وبئس العبيد أنتم. أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول ثمّ زحفتم إلى ذريّته وعترته تريدون قتلهم، قد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبّاً لكم ولما تريدون. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين».

وقد خشي ابن سعد، إثر هذه الخطبة للحسين، أن تقع الفتنة في عسكره، وترجع إلى الحقّ عزائمُهم، فقطع على الحسين كلامه وقال لهم: «هذا ابن أبي طالب أُقسم بالله لو وقف فيكم سحابة يومه خطيباً ما كلّ ولا انقطع». فتقدّم شمِر وقال: «ما تقول يا حسين؟ أفهمنا ما تريد؟». فقال الحسين: «أقول اتقوا الله ربّكم ولا تقتلوني فإنّه لا يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي وأنا ابن بنت نبيّكم».

ولمّا رأى ابن سعد أنّ كلمات الحسين وخطبه كادت أن تلين لها الصخور، نادى بعسكره فاحاطوا بالإمام وجعلوه في مثل الدائرة، وأحدقت به الخيل، وأُشرعت نحوه السيوف والرماح، وأرادوا أن يناجزوه القتال، فقال لهم: - «ويلكم، ما عليكم ان تنصتوا إليّ وتسمعوا قولي، وإنّما أدعوكم إلى سبيل الرشاد. فمن أطاعني كان من الفائزين، ومن عصاني كان من الهالكين».

هنا، تلاغط العسكر فيما بينهم. وقال بعضهم لبعض: «ما عليكم لو سمعتم ما يقول؟». فخطب الحسين خطبته الرابعة في ذلك اليوم، وهي أشدّ خطبه في تقريعهم وبيان غدرهم ونفاقهم وكفرهم ومكرهم، ويقول فيها:

«تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحاً. أَحين استصرختمونا والهين فأَصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيوفاً كانت لنا في إيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم، فأَصبحتم ألباً لأَعدائكم على أَوليائكم بغير عدل؟ أَفشُوّه فيكم ولا أَمل أصبح لكم فيهم؟»

... إلى أن قال: - فسحقاً لكم يا عبيد الأمّة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكُلم، وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن». ثم ختم خطبته هذه بالدعاء عليهم، فقال: - «اللهم أحبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة، فإنّهم كذّبونا وخذلونا وأنت ربّنا عليك توكّلنا وإليك أبنا وإليك المصير».

ثمّ دعا بعمر بن سعد، فجاءه على كراهية منه، فقال له الحسين:

- «يا عمر، أنت تقتلني وتزعم أن يوليك الدعي ابن الدعي بلاد الريّ وجرجان؟ والله لا تهنأ بذلك أَبداً عهداً معهوداً، فاصنع ما أنت صانع فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنّي برأسك على قصبة قد نصب في الكوفة يتراماه الصبيان».

صرف عمر بن سعد وجهه عن الحسين وقد امتلأ غيظاً وغضباً ثمّ صاح بغلامه: «يا دُريد، أدنِ رايتك». فأدناها. فوضع سهماً في كبد قوسه، ثمّ رمى، وقال: «إشهدوا لي عند الأمير أنّي أوّل من رمى». ثمّ أقبلت السهام من تلك الجموع كأنّها الليل».

قال التستري[1]. «قُتل بهذه السهام التي انصبّت كالمطر ما يقرب النصف من عسكر الحسين الواقفين في الميمنة والميسرة. وكانت كلّ تلك الخطب المتقدّمة قبل الشروع في الحرب، لا للاعتذار والإنذار وإتمام الحجّة فقط، ولا تفادياً من الحرب وخوفاً من الموت وركوناً إلى حبِّ الحياة.. ولكنّه سلام الله عليه (الحسين) بما أنّه باب الوسيلة ومفتاح خزائن الرحمة وينبوع مجاري النجاة، لا جرم أنّ غرائز الحنان والرحمة كانت تدفعه إلى مدافعة ذلك الخلف المتعوّس عمّا حاولوه وصمّموا عليه من قتله الذي فيه هلاكهم المؤبّد. وغير بعيد أنّ أكثر تلك الرقّة والاستعبار والطلب والإصرار في أن يتركوه ولا يقتلوه، كان إشفاقاً عليهم من ارتكاب تلك الجرائم الفظيعة التي ما ارتكب واحدة منها أشقى أمّة من الأمم. ولعلَّ هذا هو السرّ

١ - التستري (أسد الله بن اسماعيل الكاظمي) (ت ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩م.): فقيه شيعي له: «مقاييس الأنوار» و «كشف القناع عن وجوه حجّة الاجماع».

أيضاً في تكرار الاستغاثة وطلب الناصر والمعين، فإنّه ليس حرصاً في البقاء على نفسه بل للبقاء عليهم وطلباً لنجاة بعضهم على الأقلّ، بعد أن تعذّرت نجاة كلّهم.

فأوّل استغاثة صدرت منه كانت عندما رأى تصميم القوم على قتاله وعدم انتفاعهم بتلك المواعظ والخطب، فلمّا أقبلت السهام منهم كقطع الغمام، وقُتل من أصحابه من قُتل، نادى: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذاب يذبّ عنا؟». فأثّرت هذه الاستغاثة في ثلاثة نفر ممن سبقت لهم العناية وأدركتهم السعادة وهم: الحرّ وولده عليّ وأخوه مصعب، فجاء الحرّ إلى ابن سعد وقال له: «أمقاتل أنت هذا الرجل؟» فقال: «أي والله قتالاً أيسره أن تطير الرؤوس وتطيح الأيدي». فقال: «أما لكم فيما عرضه عليكم رأي؟» فقال: «لو كان الأمر لي لفعلت، ولكنّ أميرك قد أبى» فمضى الحرّ ووقف ناحية وأخذه مثل الأنكل، وهذه هي الإنابة إلى الله والهزّة الإلهية، فقال له المهاجر بن أوس: «والله إنّ أمرك لمريب. ولو قيل مَن أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك؟» فقال: «والله إنّي اخيّر نفسي بين الجنّة والنار، والله لا أختار على الجنّة شيئاً، ولو قُطّعت وأُحرقت». ثم التفت إلى ولده عليّ، وقال: «يا بُنَيّ، لا صبر لي على النار، فسر بنا إلى الحسين لننصره ونقاتل بين يديه لعل الله يرزقنا الشهادة والسعادة التي لا انقطاع لها». ثمّ ضرب فرسه وأقبل نحو عسكر الحسين واضعاً يده على رأسه وهو يقول: «اللهمَّ إليك أبنتُ فتب عَليَّ فقد أرعبت قلوب أوليائك». فلمّا قرب من الحسين وقف قريباً منه مطأطئاً رأسه، فقال الحسين: «من أنت؟ إرفع رأسك». فرفع رأسه وقال: «سيّدي أنا صاحبك الذي حبسك عن الرجوع وجعجع بك في هذا المكان الموحش، وما ظننت أنّ القوم يبلغون بك ما أرى، وأنا تائب للّه، فهل ترى لي من توبة؟». فقال: «نعم، يتوب الله عليك، إنزل» فقال: «أنا فارساً خير لك منّي راجلاً» ثم استقبل بوجهه عسكر ابن سعد، وقال: «يا أهل الكوفة، لأمكم الهَبل والعير، دعوتم هذا العبد الصالح حتّى إذا جاءكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثمّ عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتم بنفسه وأخذتم بكلكله وأحطتم به من كلّ جانب

لتمنعوه التوجه إلى بلاد الله العريضة، فصار كالأسير في أيديكم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرّاً، ومالأْتموه ونساءه وصبيته عن ماء الفرات الجاري تشربه اليهود والنصارى والمجوس، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هم قد صرعهم العطش، بئساً خلفتم محمّداً في ذريّته فلا سقاكم الله يوم الظما..».

فقطعوا كلامه برشق النبّال ورمي النصال. فرجع ووقف أمام الحسين ينتظر الرخصة. وكانت الوجوه والقوّاد والأعيان من عسكر ابن سعد متثاقلين عن المبارزة لأنّهم أجمع ممّن كتب إلى الحسين وألحّ عليه بالتوجّه وإعطاء البيعة، لذا بقي الحال برهة من النهار على المصاف والترامي بالنبال دون المكافحة والنّزال. وكان أوّل من تقدّم من عسكر ابن سعد، يسار غلام زياد، فطلب المبارزة، فتقدّم إليه عبد الله ابن عمير الكلبيّ، فسأله يسار عن نسبه، فانتسب له، فقال له يسار: «لا أعرفك، إرجع وليبرز إليّ زهير بن القيّن أو حبيب بن مظاهر فإنّ هؤلاء أقراني لا أنت». فقال له عبد الله: «يا ابن الفاعلة، أوبك رغبة عن مبارزتي؟» ثمّ شدّ عليه فضربه بسيفه حتّى برد، وإنّه لمشتغل بضربه إذ شدّ عليه سالم، مولى زياد أيضاً، فصاحوا به: قد رهقك. فلم يشعر به، حتّى بدره بضربة اتّقاها ابن عمير بكفّه اليسرى، فأطارت أصابعه. ثمّ شدّ عليه حتّى قتله. وأقبل ابن عمير، وقد قتلهما جميعاً وهو يرتجز ويقول: «إن تنكروني فأنا ابن كلبي».

عندها أتى الحرّ إلى الحسين وقال: «يا ابن رسول الله إنّي حين خرجت من الكوفة مع عسكر هذا الطاغي سمعت منادياً ينادي من خلفي أبشر يا حرّ بخير، فالتفتُّ فلم أرَ أحداً، فقلت والله ما هي ببشارة أخرج إلى حرب ابن رسول الله وأبشر بخير. والآن علمت صواب ذلك القول. ولمّا كنت أوّلَ خارج عليك فأذنِ لي أن أكون أوّل شهيد بين يديك[1]».

في الواقع، لم يكن قد قُتل من أصحاب الحسين أحد. إنّما كان قد جُرح

---

١ ـ راجع: آل كاشف الغطاء، ص ٣٢ وما يليها؛ قابل: إبن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٦٤ وما يليها.

بعضهم. وإذ أذِن له الحسين، حمل الحرّ حملة الليوث الغاضبة، فلم يُحصر عدد من قتله الحرّ. أمّا ولده عليّ فقتل بحسب بعض الروايات سبعين فارساً، ثمّ استشهد، فلمّا رآه أبوه الحرّ، قال: «الحمد لله الذي رزقك الشهادة».

وكان مصعب، أخو الحرّ، حينئذ في عسكر ابن سعد، فلمّا رأى حملات الحرّ وتكالب القوم عليه وشهادة ابن أخيه، كرّ على الحرّ بفرسه، فحسبوه قد حمل على أخيه ليقاتله، فلمّا وصل إليه عانقه وبكى، فجاء به الحرّ إلى الحسين، فتاب وأناب، ورجع إلى الميدان فقاتل حتّى قُتل. وبقي الحرّ يدير رحى الحرب وحده، حتّى قتل في حملته الأخيرة ثمانين فارساً من أبطالهم، فضجّ العسكر وصعب عليهم أمره، فنادى ابن سعد بالرماة والنبّالة فأحدقوا به من كلّ جانب حتّى صار درعه كالقنفذ. وقد اتّقدت نار الغيرة في فؤاده، ووقف وقفة المستميت، فنزل عن فرسه وعَقرها لأنّها لم تستطع الاقتحام من كثرة السهام. وأخذ يكرّ عليهم راجلاً إلى أن سقط على الأرض وبه رمق، فكرَّ عليه أصحاب الحسين وحملوه حتى ألقوه بين يدي الحسين الذي جعل يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول: «ما أخطأت أمّك إذ سمّتك حرّاً. أنت الحرُّ في الدنيا والحرُّ في الآخرة». ثمّ استصبر.

وكان للحرّ غلام اسمه عروة، تخلّف في جيش ابن سعد، فلمّا رأى شهادة مولاه وابنه وأخيه وتفانيهم في الحرب، أخذه مثلُ الجنون والحيرة، لا بل الإيمان والغيرة، فجعل يضارب ويقاتل في وسط عسكر ابن سعد. وقيل أنّه قتل عن يمينه ويساره حتى أتى الحسين، فاستأذن له، فقاتل حتّى قُتل.

وعندما استعرت نار الحرب... تقدّم برير بن خضير، وكان سيّد القرّاء، ومن أعبد أهل زمانه، فاستأذن الحسين فأذن له، فحمل على الأعداء الذين فرّوا من بين يديه، فجعل يناديهم: «اقتربوا منّي يا قتلة المؤمنين... اقتربوا منّي يا قتلة أولاد النبيّين». فبرز إليه يزيد بن معقل، فتباهلا أن يقتل الله المبطل منهما على يد المحقّ. فتجالدا، ولم يلبث برير أن ضرب يزيد بالسيف على المغفر، فقدّ المغفر وفلق هامته نصفين حتّى سال مخّ دماغه وسقط إلى الأرض، فكبّر العسكران.

وحمل منقذ بن مرّة العبديّ، فاعتنقا وتصارعا فصرعه برير وجلس على صدره ولم يكن معه سيف ليقتله، فشدّ عليه من ورائه كعب بن جابر الآزدي من عسكر ابن سعد، فطعن بريراً في ظهره، فلمّا أحسّ بحرّ السنان، عضّ أنف ابن منقذ فقطعه، وقام عنه. فوجد كعب بن جابر فرصة، فعلاه بالسيف فقتله، وولّى منقذ منهزماً.

ثمّ خرج وهب بن عبد الله الكلبي، وكانت معه أمّه وزوجته، (ويظهر أنّه كان في أصحاب الحسين رجل آخر يسمى وهب بن وهب وكان نصرانياً أسلم على يد الحسين في الطريق). وكانت أمُّ وهب تحثّه على القتال وتقول له: «قم يا بنيّ فانصر ابن بنت الرسول! فاستأذن الحسين وانحدر إلى المعركة فقاتل حتّى قتل جماعة ورجع إلى أمّه. وقال: «أرضيتِ يا أماه؟» فقالت: «لا أرضى حتّى تُقتل بين يدي أبي عبد الله». فرجع من فوره وقتل تسعة عشر فارساً، واثني عشر راجلاً. وقد قطعوا يمينه فصار يقاتل بشماله، فقطعوا شماله، فأخذت زوجته عموداً من حديد وانحدرت إلى المعركة تقاتل، فقال لها وهب: «الآن كنتِ تنهينني عن القتال وتقولين لي لا تعجفْني بنفسك فما بدا لك؟» فقالت: «سمعت من الحسين عليه السلام كلاماً قطّع نياط جناني وهدّ أركاني، ورغبت معه عن الحياة. سمعته ينادي: «واغربتاه، واقلّة ناصراه، واوحدتاه. أما من مجير يجيرنا؟ أما من ذابّ يذبّ عنّا؟ وسمعت أصوات نسائه قد ارتفعت بالبكاء في الخيمة. وخرجت لأُقتل معك وأنال السعادة». ولمّا لم تكن له يد، عضّ بأسنانه على ثيابها ليرجعها إلى الخيمة، فافلتت نفسها منه وعادت إلى الحرب، فاستغاث وهب بالحسين، فقال: «جزيتم من أهل البيت خيراً، إرجعي إلى النساء بارك الله فيك، فإنّه ليس عليكنّ قتال. ولم يزل بها حتى أرجعها، فوقفت تنظر ما يكون من زوجها، حتى قُتل، فجاءت وجعلت تخضّب شعرها بدمه وتمسح جبينها بنحره، فأمر الشمرِ غلاماً له يقال له رستم فضربها بعمود من حديد فصرعت إلى جانب زوجها. وهي أوّل امرأة قتلت في عسكر الحسين... (ويظهر من هذا أنّه قتل في عسكره عدّة نساء).

وحُمل جسد وهب إلى ابن سعد، فجعل ينظر إليه ويقول: «ما أشدّ صولتك». وأمر، فقُطع رأسه، ورُمي به إلى معسكر الحسين، فأخذته أمّه وجعلت تمسح الدم والتراب عنه وتقول: «الحمد لله الذي بيّض وجهي بشهادتك بين يدي أبي عبد الله». ثمّ قالت: «الحكم لله يا أمّة السوء، إنّ النصارى في كنائسها واليهود في بيعها لخير منكم». ثمّ رمت برأس ولدها عسكر ابن سعد ... فأصاب صدر قاتل وهب، وقتله. ثمّ أخذت عمود خيمة وتوجّهت إلى المعركة فقتلت نفرين، وجاء الحسين وردّها إلى الخيمة.

وبرز مسلم بن عوسجة، ونافع بن هلال. فلم يبرز إليهما رجل إلاّ قتلاه. فنادى عمر بن الحجّاج بأصحابه: «يا حُمَقاء أتدرون من تقاتلون؟ هؤلاء شجعان العصر وفرسان المصر، إنّهم قوم مستميتون فلا يبرز إليهم منكم أحد، وإنّهم لقليل وقليل ما يبقون. والله لو لم ترموهم إلاّ بالحجارة لقتلتموهم». فقال ابن سعد: «الرأي ما رأيت». ثمّ دنا ابن الحجّاج إلى صفّ الحسين بأصحابه الأشقياء وراح يحرّضهم على الصبر ورشق النبال ويقول لهم: «لا تخرجوا عن طاعة إمامكم ولا تفرّقوا الحوزة المجتمعة، ولا يكن خروج هذه الشرذمة القليلة عن الدّين وعصيانهم للإمام ليُدخل بالشكّ عليكم». فقال له الحسين:

ـ «يا ابن الحجّاج، أعليَّ تحرّض الناس وأنا الخارج عن الدين زعمت وأنت الثابت عليه؟ أقسم بالله لتعلمنّ من المارق من الدّين إذا انتزع ملك الموت نفسك!». ثمّ حمل ابن الحجّاج بالميمنة من جانب الفرات على أصحاب الحسين، فاقتتلوا ساعة، ثمّ انجلت الغبرة، وإذا بمسلم بن عوسجة صريع في المعركة. فجاء الحسين وحبيب وجلسوا عنده وتكلّموا بما هو معروف، وصرخت جارية مسلم: «واسيّداه يا ابن عوسجتاه». فعلم أصحاب ابن سعد أنّهم قتلوا مسلماً، فتباشروا. فقال شبث ابن ربعي من عسكر سعد: «ثكلتكم أمّهاتكم، تقتلون أنفسكم

بأيديكم وتفرحون بذلك؟ أوَ يفرح مسلم بقتل مسلم؟ أقسم لقد رأيت له مع جيوش المسلمين في حروب المشركين مواقف عظيمة ومقامات كريمة[1]».

وتستمرّ المأساة ويحمل الشمر، من قادة ابن سعد، بالميسرة، على أصحاب الحسين. «فثبتوا عليهم وقاتلوا بقلب ثابت وجأش رابط وهم مع ذلك لم يكونوا بأكثر من اثنين وثلاثين فارساً. وقد ذكرهم أرباب المقاتل بهذه العبارة: ـ فلا يحملون على جانب من خيل الكوفة إلاّ كشفوه ـ.

وأرسل عروة بن قيس، وكان أميراً على فرسان أهل الكوفة، إلى ابن سعد، يقول: «أما ترى إلى ما تلقي خيلي من هذه العدّة اليسيرة؟ إبعث إليهم الرَّجالة والرُّماة». فقال ابن سعد لشبث، وكان أميراً على الرماة: «ألا تذهب إليهم وتكفينا أمرهم؟». فاظهر شبث الكراهية وقال: «سبحان الله! أكبر قبائل مضر وشيخ كافّة أهل الكوفة، ألم تجد في جملة هذه الشجعان ومشاهير الفرسان وسائر الرماة والنبّالة أشجع ولا أقوى منّي؟». فعندها نادى ابن سعد الحصين بن نُمير، وانتخب له خمسمائة من الرماة، فرموا أصحاب الحسين الذين ثبتوا لرشق النّبال وشقّ النصال التي راحت تنهمر عليهم كالمطر، فما مضى غير قليل إلاّ وحمل أصحاب الحسين عليهم وفرّقوهم شرّ تفريق.

وكان الحسين أمر أن تُجعل بيوته وخيامه وخيام أصحابه متلاصقة، وأن يعملوا من أجل مواجهة المهاجمين بوجه واحد. فلمّا رأى ابن سعد ما أعياه من صبرهم وثباتهم، أراد أن يأتيهم من ورائهم ويحيط بهم من جميع جوانبهم، فأمر أن تُقوّض الخيام وتُقطع الأطناب، غير أنّ الحسين أمر بعض أصحابه، فوقفوا بين الأطناب يدافعون عن الخيام، فإذا دنا الفارس عُقر فرسه، وإذا ابتعد شُكَّ بالنبل

١ـ آل كاشف الغطاء، ص ٥٤، عن الإمام الحسين بن علي الهادي العسكري (٢٣١ ـ ٢٦٠ هـ / ٨٤٥ ـ ٨٧٣ م): الامام الحادي عشر للشيعة. لقّب بالعسكري لسكناه وأبيه في محلّه تعرف بالعسكر بسامراء.

فؤاده. هنا أمر ابن سعد بحرق الخيام على من فيها من عترة الرسول لينفتح لهم طريق العبور إلى أصحاب الحسين من خلفهم، فقال الحسين: «لا ضير عليكم من إحراقها، فإنّها تكون خندقاً بينكم وبينهم تمنعهم الوصول إليكم». ولمّا أحرق المهاجمون جملة من الخيام التي على اليمين واليسار، لم يمكنهم العبور كما قال الإمام. وجاء شمر مع عدة من عساكر ابن سعد، فوقف على فسطاط الحسين، وهو مضروب السرداق على حرم الرسالة، فقال: «عَليّ بالنّار لأحرقه على مَنْ فيه» فخرجت الجواري وهنَّ صوائح، فقال الإمام لشمر: «أنت تحرق بيتي على أهلي أحرقك الله بالنار». فمنعه حميد بن مسلم، فلم يمتنع. وما انفكّ يطلب النار حتّى جاءه شبث بن ربعي، فصرفه عن ذلك. ثمّ إنّ الحسين صلّى صلاة الزوال بأصحابه، وتقدّم سعيد بن عبد الله الحنفيّ وجعل بدنه وقاية للإمام الحسين، وقف يقيه بنفسه، وما زال حتّى سقط على الأرض مصاباً وهو يقول: «اللّهمّ إلعنهم لعن عاد وثمود. اللهمّ أبلغ نبيّك عنّي السلام وأبلغه ما لقيت من الجراح» ثمّ قضى. والذين جعلوا أنفسهم للحسين وقاية جماعة من أصحابه. منهم حنظلة بن سعد الشّباهيّ، وعمر بن قرظة الأنصاريّ، فكان لا يأتي الحسين سهم إلاّ اتّقاه، ولا سيف إلاّ تلقّاه، فلم يكن يصل إلى الحسين سوء حتّى أُثخن بالجراح، فالتفت إلى الحسين وقال: «أوافيتُ يا ابن رسول الله؟» فقال: «نعم أنت أمامي في الجنّة فاقرأ جدّي السلام وأعلمه أنّي بالأثر».

والغرض، كما يقول محقق هذا الوصف[1]: «أنّه قد ظهرت ذلك اليوم من تلك الليوث الضواري والبدور السواري شجاعة خارقة وجلادة صادقة. وقد أثر عن ثقات المحدّثين أنّ شجاعة تلك الفئة القليلة وبسالتهم في ذلك الموقف، قد أدهشت عقول ذوي المعرفة وفاقت حدّ النعت والصفة. حتّى إنّ زهير بن القيْن، ما سقط ولا قُتل حتّى قتل منهم مائة وعشرين فارساً. وحبيب بن مطاهر اثنين وستّين من

١ - المرجع السابق.

أبطالهم. وكان نافع بن هلال كتب اسمه على أخواق سهامه وسقى نصاله السمّ، فقتل اثني عشر رجلاً، ولمّا خلت كنانته من السهام قاتل بسيفه حتّى تكسّرت عضداه وأُخذ أسيراً إلى ابن سعد فقتله الشمر صبراً.

وروى ربيع بن تميم: «لمّا دخل المعركة عابس بن شبيب الشاكريّ، وكنت أعرفه في الحروب بأنّه أشجع فارس، ناديت: هذا أسد الأسود، هذا ابن شبيب فلا يبرزنّ إليه أحد؟ فوقف يطلب المبارز وينادي: ألا رجل؟ فلا يجاب. وقد أحجم ذلك الجمع الغفير كلّهم عنه. فنادى ابن سعد: - ويحكم أرجُموه بالحجارة - . فأحاطوا به وجعلوا يرجمونه بالصخور. فلمّا رأى عابس ذلك نزع درعه ومغفره وألقاهما وشدَّ عليهما شدّة الصقر على الرخم، فأُقسم بالله لقد رأيته يطرد أكثر من مائتين. ثمّ رأيت رأسه بعد ذلك بين جماعة، وكلّ يقول أنا قتلته. فقال لهم ابن سعد: - لا تختصموا فإنّ عابساً لم يكن ليقتله رجل واحد، بل كلّ العسكر قتله -. ثمّ تقدّم شوذب مولى شاكر فقال: - يا أبا عبد الله أمّا والله ما أمسى على وجه الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عَليّ ولا أحبّ اليّ منك، ولو قدرت أن أدفع الضيم عنك أو القتل بشيء أعزّ من نفسي وروحي لفعلت. السلام عليك يا أبا عبد الله أشهد الله أنّي على هداك وهدي أبيك - . ثمّ استأذن وبرز فقاتل حتّى قُتل. وعلى مثل هذا جلّهم، بل كلّهم. ففي بعض الأخبار أنّ حبيب بن مظاهر، كان واحداً من السبعين الذين لاقوا جبال الحديد واستقبلوا السيوف والرماح بوجوههم وصدورهم والأموال تبذل لهم والأمان يعرض عليهم والبلاء المحدق بهم وبأهاليهم وهم يمتنعون أشدّ الامتناع، ويقولون لا عذر لنا عند رسول الله أن يصل إلى الحسين سوء وفينا عين تطرف، ولم يزالوا يبرزون إلى الحرب واحداً بعد واحد حتّى قتلوا جميعاً.

ولم يبقَ مع الحسين سوى لحمته من أولاده وخاصّة أهل بيته، فاجتمعوا وجعل يودّع بعضهم بعضاً ويبكون. فقيل أوّل من تقدّم من بني هاشم: بنو عقيل، بدأهم بذلك عبد الله بن مسلم، ثمّ أخوه محمّد، ثمّ عمّه جعفر بن عقيل، ثمّ أولاد جعفر بن أبي طالب، ثمّ أولاد الحسين، ثمّ أولاد أمير المؤمنين وهم يناهزون

العشرة، ولكن الأصحّ أنّ أوّل من تقدّم من بني هاشم، كان عليّ الأكبر، كما في نصّ زيارة الناحية ـ السلام عليك يا أوّل قتيل من نسل خير سليلٍ من نسل إبراهيم الخليل ـ».

وعلى الجملة، فبعد شهادة أنصار الحسين «تقدّم إلى مكافحة الأهوال... أولاده وأولاد عمّه جعفر وعقيل، وأولاد إخوته، فأبدوا من الشهامة والكرامة والبراعة والشجاعة والبسالة والنجدة ما أدهش العقول والألباب، وفاق حدّ العجب والإعجاب، كما هو مقتضى شرف عنصرهم ونفاسة جوهرهم وقداسة ذواتهم، وجدّوا واجتهدوا في إعلاء كلمة الله ومواساة وليّ الله، أمّا عليّ الأكبر، فقد قال أرباب المقاتل إنّه لم يزل يقاتل حتّى ضجّ العسكر من كثرة القتلى، ولذا لمّا صُرع بضربة منقذ بن مرّة العبريّ، وحملته الفرس إلى معسكر الأعداء، قطعوه بسيوفهم إرباً. وأمّا العبّاس، فناهيك عن شجاعته أنّه كان حامل لواء الحسين. وهذا اللّواء حُمل مع السّبايا والصّفايا إلى يزيد، فلمّا نشره لم يجد فيه موضعاً سالماً من رشق السّهام وطعن الرّماح وضرب السّيوف، سوى موضع قبضة كف العبّاس. فلمّا نظر إليه بهذه الصفة أخذه العجب وجعل يقوم ويقعد ويقول: ـ أبيت اللعن... أبا الفضل هكذا يصنع الأخ لأخيه ـ. وأعظم من ذلك قول بني أسد أنّ على المسناة بطلاً كلّما حملنا منه جانباً سقط الآخر. ولم يختصّ ذلك برجالهم وأبطالهم بل ما بدا من غلمانهم وأطفالهم أدهى وأدهش. فهذا القاسم بن الحسن وهو غلام لم يبلغ الحلم، لمّا نظر إليه الحسين قد برز، اعتنقه وجعلا يبكيان حتّى غشي عليهما. فلما أفاقا استأذن عمّه، فأبى ان يأذن له. فلم يزل يقبّل يديه ورجليه ويبكي حتّى أذن له. فانحدر إلى الميدان ودموعه تسيل على خدّيه وهو يقول: إن تنكروني فأنا نجل الحسن ... هذا حسين كالأسير المرتهن. فقاتل قتالاً شديداً حتّى قَتل على صغر سنه اثنين وثلاثين فارساً، وقيل سبعين. وقد وجّهوا لمبارزته فارساً يُعَدّ بألف، فما لبث القاسم أن قسمه نصفين، وقد برز هذا الغلام وهو على أبّهته ووقاره وشارته وشعاره، عليه رداءان وفي رجليه نعلان يتهادى إلى منيّته كأنه يُزفّ إلى

مجلّته. ثمّ لمّا انقطع شسع نعله وهو بين الأسنّة والسيوف، كالبدر في هالته، وقف يشدّ شسع نعله غير مبال ولا مكترث، كأنّ نقيبته الزكيّة وجنانه الثابت، أبيا له أن يمشي في ميدان البسالة والإقدام حافي الأقدام، فبينا هو منحن يشد نعله، إذ شدّ عليه عمر بن سعد الآزدي... فضربه بالسيف على أمّ رأسه، فوقع لوجهه ونادى: ـ يا عمّاه ـ فانقضّ عليه الحسين كالصقر وشدّ على الصفوف شدّة الليث في الحرب، وضرب عمرَ قاتلِه بالسيف، فاتّقاه بيده، فأطَنها من المرفق، فصاح صيحة سمعها العسكر، وحملت خيل أهل الكوفة ليستنقذوه فاستقبلته بصدورها ووطأته بحوافرها حتّى هلك. فانجلت الغبرة، وإذا بالحسين قائم على رأس الغلام وهو يفحص برجليه، والحسين يقول: ـ يعزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك فلا يعينك، هذا والله يوم كثر واتره وقلّ ناصره ـ ثمّ احتمله وقد وضع صدره على صدره فجاء به وألقاه بين القتلى من أهل بيته».

ثمّ إنّ الحسين لما نظر إلى مصارع أنصاره وأهل بيته والتفت يميناً فلم يرَ أحداً، والتفت شمالاً فلم يرَ أحداً، «إستعبر باكياً، واستغاث استغاثته الثانية، ونادى: «هل من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟ هل من موحّد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا؟» فلم يجبه سوى (عليّ) زين العابدين، فمنعته أمّ كلثوم لما به من المرض، فقال: «دعيني يا عمّتاه أقاتل بين يدي ابن رسول الله». فصاح الحسين: «خذيه يا أختاه لئلا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمّد».

ثمّ عزم الحسين لقاء القوم بنفسه، فجاء إلى الخيام للتوديع مرّة ثانية، فنادى: «يا زينب. يا أمّ كلثوم. يا سكينة. يا فاطمة. عليكنّ منّي السلام». ثمّ جعل يوصيهنّ بالصبر والسكينة والتسليم لقضاء الله. وقال لهنّ: «إستعدّوا للبلاء واعلموا أنّ الله حافظكم وحاميكم وسينجيكم من شرّ الاعداء ويعذّب أعداءكم بأنواع العذاب ويعوّضكم من هذه البليّة بأنواع النعم والكرامة، فلا تشكّوا ولا تقولوا بألسنتكم ما يُنقص قدركم ويُحبط أجركم».

فقالت: «يا أبةً استسلمت للموت فإلى من تكلّنا؟» فقال: «يا نور عيني كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين؟ ورحمة الله ونصرته لا تفارقكم في الدنيا ولا في الآخرة، فاصبري لقضاء الله ولا تشكي فإنّ الدنيا فانية والآخرة هي الباقية». وبعد أن فرغ من وداع الأهل، إنحدر إلى المعركة موطّناً العزم على مجالدة القوم بنفسه[1].

عندما لم يبقَ مع الحسين سوى نفر قليل من المدافعين، وكان قد قُتل من بنيه اثنان: عليّ، والقاسم، صعب على أيٍّ من جند الكوفة أن يوجّه إلى الحسين ضربة قاتلة. إلى أن هجم عليه رجل من كندة، اسمه مالك بن النُّسَير، وضربه بالسيف على رأسه، فأدماه، واكتفى الحسين بأن دعا عليه بسوء المصير. وبينما الحسين على هذا الحال، جاءه طفله الصغير عبد الله، وإذ ضمّه إليه، رماه رجل من بني أسد بسهم ذبحه فوراً، وهو بين يدي أبيه الذي صاح قائلاً: «ربّي إن تكن حبست عنّا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم من هؤلاء الظالمين». فكان هذا ولده الثالث الذي يُقتل أمام عينيه. ولم تمضِ لحظات، حتّى رمى كوفيّ آخر، هو عبد الله بن عقبة الغنويّ، ولداً آخر للحسين، هو أبو بكر، فقتله. وعندما اقترب من الحسين طفل من أبناء أخيه، وهو يلعن الأعداء، ضربه أحدهم بالسيف فقطع يده، فراح الطفل يصيح: «يا أمّتاه»، واعتنقه الحسين قائلاً: «يا ابن أخي إصبر على ما نزل بك فإنّ الله يلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين، برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعليّ وحمزة وجعفر والحسن». وأضاف: «اللهمّ أمسك عنهم قطر السماء وامنعهم بركات الأرض! اللهمّ فإن متّعتهم إلى حين ففرّقهم فرقاً واجعلهم طرائق قدداً ولا تُرضِ عنهم الولاة أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا فعدَوا علينا فقتلونا[2]».

وهنا امتشق الحسين سيفه وراح يصارع، «فحمل على مهاجميه من كلّ صوب، ولم تنفع نداءَت أخته زينب وقولها إلى عمر بن سعد: ـ يا عمر أيُقتل أبو

١ ـ المرجع السابق.
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٧٦ ـ ٧٧

عبد الله وأنت تنظر إليه؟ـ بالرغم من أنّ ابن سعد قد بكى، وسالت دموعه على خدّيه ولحيته»، إلاّ أنّه صرف وجهه عن زينب، دون أن يعود عن تنفيذه لقرار ابن زياد.

ويصف المؤرخون آخر مأساة الحسين بالتالي:

«كان على الحسين جبّة من خزّ، وكان مُعتماً مخضوباً بالوَسِمة، وقاتل راجلاً قتال الفارس الشجاع يتّقي الرمية ويفترص العودَة ويشدّ على الخيل وهو يقول: ـ أعلى قتلي تجتمعون؟... أمّا والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله منّي! وأيم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون! أمّا والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءَكم ثمّ لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم ـ... ومكث طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه، ولكنّهم كان يتّقي بعضهم ببعض ويحبُّ هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء، فنادى شمرِ في الناس: ـ ويحكم ماذا تنتظرون بالرّجل؟ اقتلوه ثكلتكم أمّهاتكم!ـ فحملوا عليه من كلّ جانب، فضرب زرعةُ بن شريك التميميّ على كفّه اليسرى، وضُرب أيضاً على عاتقه، ثمّ انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو، وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس النخعيّ فطعنه بالرمح فوقَع وقال لخوَلي بن يزيد الأصبحيّ: ـ إحتزّ رأسه ـ. فأراد أن يفعل فضعف وأرعد، فقال له سنان: ـ فَتّ الله عضدك! ـ. ونزل إليه فذبحه واحتزّ رأسه فدفعه إلى خولي. وسُلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهي من خزّ، وأخذ نعليه الأسود الأودي، وأخذ سيفه. رجل من دارم، ومال الناس على الورس والحلل والابل فانتهبوها، ونهبوا ثَقَله ومتاعه وما على النساء... ووُجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية[1]».

تلك كانت عاشوراء كربلاء، وقد قُتل فيها، إضافة إلى الحسين، أكثر من ثمانين، منهم أربعة من أبنائه، وثلاثة من أبناء أخيه الحسن، وخمسة من إخوته، وأثنان من أبناء عمّه جعفر، وخمسة من أبناء عمّه عقيل، وأربعة من الأنصار، والباقون من أصحابه[2].

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٧٨ ـ ٧٩
٢ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٩٠ ـ ٩٣؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٠٢ إلى ١٩٠٧: ٥ ـ ١٤٥ إلى ١٤٦؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤٥.

وبعد أن قتلوا الحسين، أمر عمر بن سعد أصحابه أن يوطّئوا خيلهم جثّة الحسين المقطوعة الرأس، فانتُدب لذلك إسحاق بن حَيْوَة الحضرميّ في نفر معه فوطئوه بخيلهم. ودفن أهل الغاضريّة، وهم قوم من بني غاضرة من بني أسد، الحسين وأصحابه بعد قتلهم بيوم[1]».

أمّا رأس الحسين، فقد أرسل إلى عبيد الله بن زياد، الذي أرسله ليزيد بن معاوية بدمشق، وأرسل مع رأس الحسين من سلِموا من أهل بيته، مخفورين، وبينهم عليّ بن الحسين، وبناته: فاطمة وسكينة وزينب، وأخته: زينب، وامرأة الحسين: الرباب بنت امرئ القيس[2].

ومن دمشق، أرسل يزيدُ آلَ الحسين إلى حيث ستنتقل الأَحداث بعد مقتل الحسين: إلى الحجاز، وتحديداً إلى المدينة.

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٠٦: ٥ - ١٤٧

٢ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩.

الفصل الرابع

بين الحسين وابنه عليّ

- حركة التوّابين
- المختار بن أبي عُبيد
- محمّد ابن الحنفيّة
- الكيسانيّة وفرقها

كما أنّ القضاء على عليّ بن أبي طالب، لم ينهِ الشيعة، في عهد معاوية، وكذلك القضاء على الحسَن، فإنّ قتل الحسين وبعض بنيه في عهد يزيد بن معاوية، لم يحقّق للأمويّين هدفهم في القضاء على الخطر الشيعيّ نهائيّاً، وإن كان يزيد قد أمَّن بذلك لنفسه استمرار الولاية. ولكن بموت يزيد سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م بحوّارين من أعمال الشام عن ثلاث وثلاثين سنة، بعد ولاية استمرّت ثلاث سنين وثمانية أشهر، وبالتالي بموت ولده العليل معاوية الثاني، الذي لم «يذق حلاوة الخلافة» - على حدّ تعبيره وهو على سرير الموت بعد حوالى أربعين يوماً من موت أبيه يزيد وتسنُّمه سدّة الخلافة[1] - وجد الشيعة، خاصّة في الكوفة، أنَّ الظرف قد بات مؤاتياً، مرّة أخرى، لمناهضة الحكم الأمويّ من جديد، في وقت كانت المنازعات حول الخلافة قائمة بين الأمويّين وحلفائهم الذين بايعوا لمروان بن الحكَم، وأهل الحجاز الذين بايعوا لابن الزُّبَير، بعد مقتل الحسين في كربلاء.

حركة التوّابين

قبل ذلك التاريخ، وإثر مقتل الحسين وأهل بيته في كربلاء، كانت قد ظهرت في الكوفة حركة الذين عُرفوا بالتوّابين.

كان على رأس هؤلاء، سليمان بن صرد الخزاعيّ، ومعه أربعة آخرون من قادة الشيعة هناك، هم: المسيّب بن نجبة الفزاريّ وهو من أصحاب عليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن سعد بن نُفيل الأزديّ، وعبد الله بن والٍ التيميّ، ورفاعة بن شدّاد الجبليّ.

كان مبعث هذه الحركة، شعور بالنّدم على ما بدا من شيعة العراق إزاء الحسين بن عليّ. وقالوا: «لقد كنّا كاذبين في كلّ موطن من مواطن ابن بنت نبيّ الله (صلعم)، وقد بلّغنا قبل ذلك كتبه ورسله وأعذر إلينا، فسألنا نصره عَوْداً وبدءاً

---

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، الفقرتين ١٨٨٢ و ١٨٨٣: ٥ - ١٢٥ والفقرتين ١٩٣٢ و ١٩٣٣: ٥ - ١٦٨؛ قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٢٥ وما بعدها، وهو يرجّح أن يزيداً مات عن ٣٨ سنة.

وعلانية، فبخلنا عنه بأنفسنا حتّى قُتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بألسنتنا ولا قوّيناه بأموالنا ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرُنا عند ربّنا وعند لقاء نبيّنا وقد قُتل فينا ولد حبيبه وذرّيته ونسله؟ لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تُقتَلوا في طلب ذلك، فعسى ربّنا أن يرضى عنّا عند ذلك[1] »...

لقد كانت هذه الحركة فريدة من نوعها في ظاهرات التديّن. وكان مبعثها شعوراً بالذنب، وخوفاً من الله. وهي من الحركات النادرة في تجرّدها الكامل عن الدنيويّات. فلم يكن عند هؤلاء التوّابين أيّ هدف ماديّ أو سياسيّ، جلّ ما كانوا يبغون من حركتهم التي وضعوا لها هدفاً: «قتْل قاتلي الحسين والموالين لهم، أو أن يُقتلوا في طلب ذلك». بمعنى آخر، هي حركة انتحاريّة تكفيريّة. وكان واضحاً لأصحاب هذه الحركة أنّهم إنّما سيموتون. وقد مشوا في قرارهم التكفيريّ الرهيب حتّى النهاية.

ولّى التوّابون عليهم سليمان بن صرد الخزاعيّ. وقد عبّر سليمان عن عمق مفهوم هذه الحركة في خطبته الأولى، بعد ترؤسّه لها، إذ قال:

« ... أمّا بعد، فإنّي خائف ألاّ يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة وعظمت فيه الرزيّة وشمل فيه الجور أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنّا كنّا نمدّ أعناقنا إلى قدوم أهل بيت نبيّنا (صلعم)، نمنّيهم النصر ونحثّهم على القدوم، فلمّا قدموا ونينا وعجزنا وأدهنّا حتّى قتل فينا ولد نبيّنا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه إذ جعل يستصرخ ويسأل النّصَف فلا يُعطى، اتخذه الفاسقون غرضاً للنّبل ودريئة للرّماح حتّى أقصدوه، وعدوا عليه فسلبوه. ألا انهضوا، فقد سخط عليكم ربّكم ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتّى يرضى الله. والله ما أظنّه راضياً دون أن تناجزوا مَن قتله. ألا لا تهابوا الموت فما هابه أحد قط إلاّ ذلّ، وكونوا كبني إسرائيل إذ قال لهم نبيّهم: «إنّكم ظلمتم أنفسكم فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم[2]». ففعلوا وجثوا على الرّكب ومدّوا

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٥٩؛ راجع: المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٧٦: ٥ - ٢١٢ و ٢١٣؛ والطبري، ٢: ٤٠٠ إلى ٥٧٥
٢ - سورة البقرة، ٢: ٥٤

الأعناق حين علموا أنّهم لا ينجيهم من عظيم الذّنب إلاّ القتل، فكيف بكم لو دعيتُم إلى ما دُعوا؟ أحدّوا السيوف وركّبوا الأسنّة «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل[1] حتّى تُدعوا وتُستنفروا[2]».

ما أن أسّس التوّابون حركتهم، ووضعوا أهدافها، وقرّروا أن يحرصوا على سرّيّتها، حتّى راح المؤسّسون يراسلون قادة الشيعة في المناطق، ليعلموهم عن حركتهم وأهدافها، وليدعوهم للانضمام إليها. فوجدوا التجاوب السريع من أهل الشيعة في المدائن، وفي البصرة، وسواهما من المناطق العراقيّة. واستمرّ العمل على حشد الطاقات وجمع الأنصار زهاء ثلاث سنوات، حتّى مات يزيد بن معاوية. فشهدت الحركة إذّاك إقبالاً قويّاً من العراقيّين. وعندما قرّر سليمان بن صرد بدءَ القتال، كان قد بلغ عدد المقاتلين الذين بايعوه ستة عشر ألفاً، إلاّ أنّه عندما نودي في الكوفة بكلمة السرّ التوّابيّة للمرّة الأولى في التاريخ: «يا لثارات الحسين» إيذاناً بالحضور إلى حيث قُتل الحسين في «النخيلة» من كربلاء، لم يحضر سوى أربعة آلاف. وقد حاول رئيس الحركة سليمان بن صرد حثّ المتخلّفين على القدوم بمراسلتهم، فلم يحضر منهم، رغم ذلك، سوى ألف نفر، بعد أن انتظر ابن صرد ثلاثة أيّام بالنخيلة مع الآلاف الأربعة.

أمام هذا الواقع، قرّر قادة التوّابين أن يسيروا بمن حضر، ذلك «أنّ الكاره لا ينفع. ولا يقاتل إلاّ من أخرجته النيّة». وقرّروا «ألاّ ينتظروا أحداً وأن يجدّوا في الأمر».

قبل أن يأمر ابن صرد بالتوجّه لقتال عبيد الله بن يزيد، الذي اعتبروه المسؤول الأوّل عن قتل الحسين، وقف هذا القائد الشيعيّ الانتحاريّ الكهل، ليقدم على آخر «تصفية» لأتباعه، إذ قال:

«أيها الناس، من كان خرج يريد بخروجه وجه الله والآخرة فذلك منّا ونحن منه، فرحمة الله عليه حيّاً وميتاً، ومن كان إنّما يريد الدنيا فوالله ما نأتي فيئاً نأخذه وغنيمة

١ - سورة الانفال، ٨: ٦٠
٢ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٦٠ - ١٦١

نغنمها ما خلاف رضوان الله، وما معنا من ذهب ولا فضّة ولا متاع، وما هي إلاّ سيوفنا على عواتقنا، وزادٌ قدْر البُلغة، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصْحبنا ».

لم يؤدِّ هذا الموقف النادر في بدء المعارك في تلك الأيّام إلى ارتداد أيّ نفر من الآلاف الخمسة المستنفرة. بل قالوا: « إنّا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا إنّما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبيّنا (صلعم) ».

في هذه الأثناء، كان ابن الزّبير، بعد أن بايعه أهل العراق، قد استعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع العدويّ، وأرسل معه إليها إبراهيم بن محمّد بن طلحة. وعندما تأكّد لأهل الكوفة عزم التوّابين على مهاجمة ابن يزيد تكفيراً وتوبةً وانتقاماً لدم الحسين، جاء عبد الله وإبراهيم على رأس وفد من أشراف الكوفة، تغيّب عنه أولئك الذين اشتركوا في قتل الحسين خوفاً من التوّابين، وكان عمر بن سعد يبيت لياليه في تلك الأيّام في قصر الإمارة خوفاً منهم. وعندما وصل الوفد إلى حيث تجمّع التوّابون، تحدّث الوالي، عبد الله، باسم الوفد فقال: « إنّ المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يغشّه، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحبّ أهل مصر خلَقه الله إلينا، فلا تُفجعونا بأنفسكم ولا تنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا، أقيموا معنا حتّى نتهيّأ، فإذا سار عدوّنا إلينا خرجنا إليه بجماعتنا فقاتلناه». ورغم أنّ الوالي الجديد، أمام تشبّث القوم بقرارهم، قد عرض على قائدهم خراج جُوخى إن هم أجّلوا القتال، فقد كان جواب سليمان بن صرد حاسماً: « ... نحن بالله وله، ونسأل الله العزيمة على الرشد ولا نرانا الآ سائرين[1] ».

كان قد بلغ التوّابين أنّ عبيد الله بن زياد، الذي يعتبرونه « ابن الفاسق، الذي قتل الحسين وعبّأ الجنود عليه وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأُمضي فيه حكمي »، قد أقبل من الشام بجنود، فقرّروا مواجهته قبل وصوله إلى الكوفة. فخرجوا لقتاله مساء الخامس من ربيع الآخر سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م. وتوجّهوا أوّلاً إلى قبر الحسين، « فلمّا وصلوا صاحوا صيحة واحدة، فما رُئي أكثر باكياً من ذلك

١ ـ المرجع السابق، ص ١٧٧

اليوم، فترحّموا عنده من خذلانه وترْك القتال معه، وأقاموا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرّعون ويترحّمون عليه وعلى أصحابه، وكان من قولهم عند ضريحه:

« اللهمّ ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهديّ ابن المهديّ، الصدّيق ابن الصدّيق، اللهمّ إنّا نُشهدك أنّا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم وأولياء محبّيهم، اللهمّ إنّا خذلنا ابن بنت نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، فاغفر لنا ما مضى منّا وتُب علينا وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدّيقين، وإنّا نُشهدك أنّا على دينهم وعلى ما قُتلوا عليه، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين[1]! ».

قبل أن يصل القوم إلى قبر الحسين، كان قد تخلّف من الآلاف الخمسة عدد كبير. على أنّ الذين اشتركوا في البكاء على ضريح الحسين، قد زادوا غضباً وعزماً على القتال الانتحاريّ، وقد ألهب ذلك الندم الجماعيّ روح الحماس وبذل الذات في نفوسهم، فراحوا يودّعون القبر إفراديّاً ويتبرّكون منه، وقد بلغ الازدحام أكثر مما كان يبلغه على الحجر الأسود. ومن هناك، اتّجهوا نحو الأهواز، ولم يردّوا على رسل والي الكوفة الذي حاول من جديد ثنيهم عن هذه المعركة الخاسرة، فقد كان عامل ابن الزّبير يروم أن يحتفظ بقوّتهم لصدّ ابن زياد عن الكوفة في دفاع منظّم وحاشد، بيدَ أنّ محاولاته ذهبت أدراج الرّياح، ذلك أنّ باعث القتال في هؤلاء كان دينيّاً تكفيريّاً ثأريّاً من الذات ومن الغير، بينما قتاله هو، كان من أجل ولاية وخلافة. وفي الواقع، لم يكن هناك قوّة مادّيّة تستطيع أن تثني هؤلاء عن عزمهم بعد أن أصبحوا على قاب قوسين من تحقيق التكفير والتوبة. ففي قناعتهم، أنّهم إنّما كانوا نحو الجنّة سائرين.

وبوصولهم إلى قرقيسية، أفادهم شيخها أنّهم سيواجهون في قتالهم قوى خمسة أمراء، هم: الحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وأدهم بن مُحرز، وجبلة بن عبد الله الخثعمي، إضافة إلى عبيد الله بن زياد، في عدد كثير « مثل الشوك والشجر». لكنّ هذا التنبيه لم يثنهم أيضاً عن عزمهم، بل زادوا حماساً وإصراراً على القتال.

١ ـ المرجع السابق، ص ١٧٨ ـ ١٧٩

وكانت الواقعة في مكان يعرف بعين الوردة، ويرجّح أنّ هذا المكان يقع عند ملتقى الخابور بالفرات، وهو اليوم من الأراضي السوريّة، من أعمال محافظة الجزيرة. هناك التقى التوّابون أضعاف أعدادهم من الجيش الأمويّ، وقاتلوهم قتال المستميت، لا بل المنتحر. وقد تمكّن التوّابون من قتل عدد كبير من هذا الجيش في معارك انتحاريّة، سلاحها السيف والقوس والعمود. وكان قائد التوّابين، سليمان بن صرد، من بين أوّل القتلى، ثمّ قُتل اللذان خلفاه في القيادة، بتوالٍ: المسيّب بن نجبة، ثمّ عبد الله بن سعد بن نُفيل.

من الحوادث الفرديّة التي جرت في معمعة يوم عين الوردة، والتي من شأن بعضها أن يساعد على التعبير الصحيح عن حركة التوّابين، أنّه كان بينهم رجل يدعى عبد الله بن عزيز الكنانيّ، جاء يقاتل أهل الشام ومعه ولده الطفل، محمّد، وعندما تيقّن من الهلاك، نادى بني كنانة من أهل الشام، وسلّمهم ولده ليوصلوه إلى الكوفة، فاستجابوا لطلبه، وعرضوا عليه الأمان، ولكنّه أبى، ثمّ قاتلهم حتّى قُتل.

كذلك كان بين التوّابين رجل حِمْيَريّ، هو كرب بن يزيد، وإذ كان بين مقاتلي الشام حميريّون، على رأسهم ابن ذي الكلاع، وقد وجدوا ابن قبيلتهم في وضع المحكوم على أجله، عرضوا عليه الأمان، فأجاب: «قد كنّا آمنين في الدنيا وإنّما خرجنا نطلبَ أمان الآخرة». وبقي يقاتل حتّى قُتل.

ولا شكّ في أنّ الاطّلاع على بعض كلمات قادة التوّابين يومذاك، من شأنه أنْ يفسّر بعض الخلفيّات لمثل ذلك الإصرار على الشهادة. من تلك الكلمات، ما استعمل أحد قادتهم: رفاعة بن شدّاد، عندما استلم الراية، إذ خطب في المقاتلين قائلاً:

«من أراد الحياة التي ليس بعدها موت، والراحة التي ليس بعدها نصب، والسرور الذي ليس بعده حزن، فليتقرّب إلى الله بقتال هؤلاء المحلّين، والرواح إلى الجنّة[1]»...

---

١ - المرجع السابق، ص ١٨٤؛ راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٧؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٧٩ - ١٩٨٣: ٥ - ٢١٦ إلى ٢٢٠.

لكنّ الخطيب بهذه الكلمات، كان القائد الأخير في تلك المعركة. إذ بنهايتها، مع حلول الليل، انسحب مع من نجا من الموت من التوّابين، وكان أكثرهم مصاباً. فساروا ليلاً إلى قرقيسية، حيث لجأوا ثلاثة أيام بضيافة شيخها الذي زوّدهم بعد ذلك ليعودوا إلى الكوفة، وهناك استُقبلوا بالبكاء والنوّاح، واعتُبروا بأنّهم «العصبة الذين عظّم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضي فعلهم حين قُتلوا، ... وما خطا منهم خاط خطوة ولا ربا ربوة إلاّ كان ثواب الله له أعظم من الدنيا».

لقد كانت ظاهرة التوّابين عند الشيعة، ذات تأثير عميق في مسارهم التاريخيّ، لا بل سوف تجعل من نفسها تراثاً في الاستشهاد والفداء، سيبقى متّبعاً إلى الأبد. وسيبقى شعور التوّابين ملازماً أجيال الشيعة أبداً، وهم يُحيون الذكرى سنة بعد سنة، محمّلين جدودهم... وأنفسهم، عبء التفريط بدم الحسين، ولا سبيل للصفح عن أحفاد قتلة الحسين. وتستمرّ المأساة خالدة خلود مسائل الرسل والأنبياء على كوكب البشر العجيب.

وإذا كانت الدوافع الحقيقيّة الواضحة لحركة التوّابين دوافع محض دينيّة تكفيريّة، من منطلق وجوب قتل قتلة الحسين وأهله وإلاّ فالموت في سبيل ذلك، فإنّ طلب الثأر للحسين وأهله لم يكن دوماً مجرّداً من الغايات السياسيّة والسلطويّة، حتّى إنّ بعض الطموحين في مجال القيادة، قد جعلوا من تلك المسألة أحياناً وسيلة لبلوغ أهدافهم، كما هي الحال مع «المختار بن أبي عبيد».

المختار بن أبي عبيد

هو: المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عون بن عفرة بن عوف بن ثقيف[1].

تختلف الأخبار المنقولة عن المختار، إلى حدّ التناقض. فبينما بعضها يفيد

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ : ٢٨٩

بأنّ العواطف التي كانت تحرّك المختار، إنّما هي عواطف صادقة نحو أهل البيت، يفيد بعضها الآخر بأنّ ما كان يحرّك المختار، إنّما هو طلب الزعامة والدنيا. وبغضّ النظر عن استنتاجات السابقين، قد يكون في بعض السرد السريع لظاهرة الرّجل بالاستناد إلى أوثق المراجع، ما من شأنه أن يكشف عن الحقيقة المجرّدة.

أوّل ما يظهر اسم «المختار بن أبي عبيد» كان في مجال تأريخ الأحداث المتعلّقة بتنازل الحسن بن عليّ بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، بعد أن تخلّى عنه أهل الكوفة، وطعنوه، وسلبوه وهو في المدائن. فنفر الحسن منهم، مذعوراً، ودخل المقصورة البيضاء، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد. يومها، قال المختار لعمّه: «هل لك في الغنى والشرف؟» قال عمّه سعد: «وما ذاك؟» فقال المختار: «تستوثق من الحسن وتستأمن به إلى معاوية». فقال له عمّه: «عليك لعنة الله! أثب على ابن بنت رسول الله (صلعم)، وأوثقه؟ بئس الرجل أنتَ[1]».

كان ذلك سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م. ويغيب اسم المختار عن الأحداث عشرين سنة، إلى يوم جاء مسلم بن عقيل مبعوثاً من قبل الحسين بن عليّ إلى الكوفة، إذ كان المختار «في قرية له تدعى لفغا، ... فأقبل المختار في مواليه إلى الكوفة». ولقد كانت الشيعة، في ذلك الوقت، «تسبُّ المختار وتعيبه لما كان منه في أمر الحسن... حين طُعن في ساباط وحُمل إلى أبيض المدائن[2]».

ما أن وصل المختار إلى الكوفة حتّى قبض عليه عبيد الله بن زياد، وكان لا يزال واليها، وأودعه السجن بعد أن ضربه على وجهه بقضيب جرح عينه. وبقي المختار في سجن الكوفة إلى ما بعد مقتل الحسين، إذ تمكّن من مراسلة صهره عبد الله بن عمر بن الخطّاب، زوج أخته صفيّة، طالباً شفاعته لدى الخليفة يزيد بن معاوية، وقد تجاوب الخليفة الأمويّ لشفاعة ابن عمر، وأرسل إلى ابن زياد يأمره

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٤
٢ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٦٨

بإطلاق المختار. لكنّ ابن زياد لم يسمح للمختار بالبقاء في الكوفة بعد إطلاق سراحه، بل أمره بمغادرتها بخلال ثلاثة أيّام[1].

وبينما كان المختار متّجهاً إلى الحجاز، قال لمن سألوه عمّا أصاب عينه: «خبطها ابن الزانية بالقضيب فصارت كما ترى... قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأعضاءه إرباً إرباً[2]».

إلى هنا يُسجَّل على المختار ملاحظتان: الأولى أنّه هاوي «غنىً وشرف» وإن كان الثمن تسليم الحسن إلى معاوية. والثاني حقده على عبيد الله بن زياد الذي مزّق له عينه.

ويصل المختار إلى الحجاز، حيث ابن الزبير ما زال يحاول سرّاً جمع الأنصار لمبايعته خليفة، بعدما قُتل الحسين. وكان عدد مهمّ من أشراف المدينة قد رفض مبايعة يزيد بن معاوية. إلاّ أنّ ابن الزَبير لم يفاتح المختار بالموضوع حين قابله، فرحل هذا الأخير عن المدينة متوجّهاً إلى الطائف، وبقي هناك سنة كاملة منقطعاً عن مراكز القرار الإسلاميّ، وهناك راح يعلن بأنّه «صاحب الغضب ومسيّر الجبّارين». ثم عاد إلى المدينة، حيث جمعه أنصار ابن الزبَير به من جديد، بعد أن ردّ على تساؤلهم حول سبب «غيابه عن الذي قد اجتمع عليه الأشراف من قريش والأنصار وثقيف ولم تبقَ قبيلة إلاّ وقد أتاه زعيمها فبايع هذا الرجل» بقوله: «إنّي أتيته العام الماضي وكتم عنّي خبره، فلمّا استغنى عنّي أحببت أن أريه أنّي مستغنٍ عنه».

وبعد محاورة قصيرة، اشترط بخلالها المختار على ابن الزبَير أن «يستعين به على أفضل عمله» تمّت المبايعة، وأقام عنده، واشترك في قتال ابن الزبَير ضدّ الجيش الأمويّ، «وأبلى أحسن بلاء، وقاتل أشدّ قتال، وكان أشدّ الناس على أهل الشام». وإذ مات يزيد، واستتبّ الأمر لابن الزبَير في العراق، وقد يئس المختار

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٦٨ - ١٦٩
٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٦٩

من توليته من قبل ابن الزبَير، وكان قد علم أنّ أهل الكوفة «لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض» شدَّ رحاله إلى الكوفة[1].

قبل أن يصل المختار إلى مستقرّه الجديد، مرّ على القبائل التي كانت تدين بالولاء لأهل البيت، وراح يبشّرهم بقرب الانتقام لدم الحسين، ويقول: «أبشروا بالنصرة والفلَج... أتاكم من تحبّون».

وإذ كان ابن عليّ: محمّد بن الحنفيّة، قد رفض أن يبايع لابن الزّبَير، وكانت العلاقة بينهما على أسوأ حال، فلدى وصول المختار إلى مسجد الكوفة، وقدوم الشيعة إليه، دعاهم إلى منزله، وهناك أبلغهم بالتالي:

«إنّ المهدي ابن الوصي بعثني إليكم، أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً وأمرني بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته والدفع عن الضعفاء، فكونوا أوّل خلق الله إجابة[2]».

أمّا «المهديّ ابن الوصيّ» فالمقصود به: محمّد ابن الحنفيّة. ويتّضح من الصيغة التي استعملها المختار في كلامه: «... المهديّ ابن الوصيّ» أنّه كان كيسانيّاً، والكيسانيّة أصلاً، متأثّرة بالدعوة السبئيّة، إن لم تكن استمراراً لها، وهذه أوّل إشارة واضحة في المدوّنات، من شأنها أن تدلّ على كيسانيّة المختار، الذي اختلفت الاعتبارات حول موقعه من الكيسانيّة، بين قائل بأنّه مؤسّسها، وقائل بأنّه أحد أتباعها، وسيكون لهذا البحث صلة.

عندما وصل المختار إلى الكوفة كان التوّابون في صدد التجمّع للبدء بحركتهم، فحاول المختار أن يثبّط الناس عن اتّباع سليمان بن صرد[3]، وقال: «إنّ سليمان ليس له بصر بالحرب ولا تجربة بالأمور، وإنّما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه، وأنا أعمل على مثال مُثّل لي وأمر بُيّن لي عن وليّكم، وأقتل عدوّكم

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٧١؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٨
٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٧٢
٣ - راجع: الطبري، ٢ : ٥٤٠؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٧٦ : ٥ - ٢١٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٧٢.

وأشفي صدوركم، فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري، ثم انتشروا». ولقد تمكّن المختار فعلاً من سلخ عدد كبير من أولئك الذين كانوا بايعوا ابن صرد.

ولمّا سار التوّابون للانتقام لدم الحسين، فإن عاملَي ابن الزّبَير، عبد الله وإبراهيم، قد خشيا من تفاقم أمر المختار، فاعتقلاه. وفي سجنه في الكوفة، راح المختار يردّد على مسامع حرّاسه ومن يستطيع أن يسمعه من أهل الكوفة:

«أما وربّ البحار، النخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلنّ كلّ جبّار، بكلّ لدن خطّار، ومهنّد بتّار، بجموع الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار؛ حتّى إذا أقمت عمود الدّين، وزايلت شعب صدع المسلمين، وشفيتُ غليل صدور المؤمنين، وأدركت ثأر النبيّين، لم يكبر عليّ زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى[1]».

ولمّا عاد الناجون من التوّابين بعد معركة عين الوردة، وقد تأكّد لهم أنّ ما نبّههم إليه المختار من أنّ سليمان بن صرد إنّما كان «يخرجهم فيقتلهم ويقتل نفسه» وكان على رأس العائدين الناجين رفاعة بن شدّاد البجلي، أرسل المختار من سجنه إلى رفاعة يقول:

«أمّا بعد، فمرحباً بالعصبة الذين عظّم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضي فعلهم حين قُتلوا. أمّا وربّ البيت ما خطا خاطٍ منكم خطوة ولا ربا ربوة، إلاّ كان ثواب الله له أعظم من الدنيا! إنّ سليمان قد قضى ما عليه وتوفّاه الله، وجعل وجهه مع أرواح النبيّين والصدّيقين والشهداء الصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تُنصرون، إنّي أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون، وقاتل الجبّارين، والمنتقم من أعداء الدين، المقيّد من الأوتار، فاعدّوا واستعدّوا وأبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله، وسنّة نبيّه، والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المُحلّين، والسلام[2]».

لمّا قرأ التوّابون الناجون كتاب المختار، أجابوه: «إنّنا بحيث يسرّك، فإن شئت أن نأتيك ونُخرجك من الحبس فعلنا».

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٧٣
٢ - المرجع السابق.

وهكذا فقد عرف المختار كيف يستوعب شيعة التوّابين الباقين، إلاّ أنّه شكر لهم استعدادهم اقتحام السجن، وأجابهم بأنّه «خارجٌ في وقت قريب». ذلك أنّه كان، مرّة أخرى، قد راسل صهره، ابن عمر بن الخطّاب، يطلب إليه أن يشفع فيه إلى عاملَي ابن الزبَير: عبد الله وإبراهيم، وهكذا حصل «فشفّعاه وأخرجاه من السجن، وضمناه، وحلّفاه أنّه لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن فعل فعليه ألف بدانة ينحرها عند الكعبة ومماليكه أحرار ذكَرهم وأنثاهم».

وإذ أصبح المختار حرّاً، في داره، قال للمقرّبين منه:

«قاتلهم الله ما أحمقهم، حين يرون أنّي أفي لهم! أمّا حلفي بالله فإنّني إذا حلفتُ على يمين فرأيت خيراً منها كفرت عن يميني! وخروجي عليهم خير من كفّي عنهم، وأمّا هدي البدن وعتق المماليك فهو أهون عليّ من بَصْقة، فوددتُ إن تمّ لي أمري ولا أملك بعده مملوكاً أبداً».

وفي وقت قصير، إستقطب المختار شيعة العراق، الذين وثقوا به، وبايعوه على القتال معه. وعندما قويت شوكته، عزل ابن الزبَير عبد الله بن يزيد وإبراهيم ابن محمّد ابن طلحة، واستعمل عبد الله بن مطيع مكانهما.

جُوبه العامل الجديد بموقف معبّر فور وصوله إلى الكوفة واعتلائه المنبر وقوله «إنّه سيتّبع وصيّة عمر بن الخطّاب التي أوصى بها عند وفاته، وسيرة عثمان بن عفّان». فكان جواب من تكلّم معبّراً عن مشاعر الناس: «... لا نرضى أن يُسار فينا إلاّ بسيرة عليّ بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتّى هلك، ولا حاجة في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، ولا في سيرة عمر بن الخطّاب فينا، وإن كانت أهون السيرة علينا، وقد كان يفعل بالناس خيراً». فما كان بوسع عامل ابن الزبَير سوى أن يقول: «نسير فيكم بكلّ سيرة أحببتموها».

لم يمض سوى أيّام قليلة على تسلّم الوالي الجديد مهامّه، حتّى جاء المختار

وبضعة عشر من أنصاره، إلى إبراهيم بن الأشتر النخعيّ[1] ومعهم كتاب من محمّد ابن الحنفيّة، فيه التالي:

«من محمّد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلام عليك فإنّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد فإنّي قد بعثت إليكم وزيري وأميني الذي ارتضيته لنفسي وأمرته بقتال عدوّي والطلب بدماء أهل بيتي، فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنّك إن نصرتني وأجبت دعوتي كانت لك بذلك عندي فضيلة، ولك أعنّة الخيل وكلّ جيش غازٍ وكلّ مصر ومنبر وثغر ظهَرتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام[2]».

تعجّب إبراهيم الأشتر لأن يكون محمّد ابن الحنفيّة قد لقّب نفسه في كتابه بـ «المهديّ»، وقد أفصح عن تعجّبه أمام المختار وجماعته بقوله: «قد كتب إليّ ابن الحنفيّة قبل اليوم وكتبت إليه فلم يكتب إليّ إلاّ باسمه واسم أبيه». قال المختار: «إنّ ذلك زمان وهذا زمان». وإذ شكّك الأشتر بصحّة الكتاب، شهد أعضاء جماعة المختار بأنّ الكتاب إنّما هو من محمّد ابن الحنفيّة. ذلك أنّ عدداً من أشراف شيعة الكوفة، عندما جاءهم المختار مدّعياً أنّه مفوّض من قبَل محمّد ابن الحنفيّة، قرّروا التأكّد من صحّة هذا الادّعاء، فقصدوا ابن الحنفيّة وأخبروه عن ادّعاء المختار ودعوته لهم بأن يؤازروه في الطلب بدم الحسين وأهل بيته، فأجابهم محمّد ابن الحنفيّة بقوله: «... أمّا ما ذكرتم ممّن دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددتُ أنّ الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه. ولو كره لقال لا تفعلوا[3]». وقد اعتبر أشراف شيعة الكوفة جواب ابن الحنفيّة تصديقاً لادّعاء المختار، فرجعوا إلى الكوفة، وانضووا تحت لوائه. وإذ سمع إبراهيم الأشتر ما سمع، زاح عن صدر المجلس، وأجلس المختار مكانه، وبايعه. وبذلك أصبح المختار الزعيم الشيعي بلا منازع في الكوفة، وأصبحت كلّ الظروف مؤاتية له من أجل القيام بضربته.

---

١ - الأشتر النخعي (ابراهيم بن مالك) (ت ٧١ هـ / ٦٩٠ م) قائد شجاع قاد جيش المختار الثقفي في معركة الخازر في شمالي العراق.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢١٥ - ٢١٦

٣ - المرجع السابق، ج ٤ ص ٢١٤ - ٢١٥

بدأ المختار حركته بالثورة على عامل ابن الزّبير في الكوفة، عبد الله بن مطيع، الذي عجز عن مقاومة المختار ومقاتليه الثائرين بقيادة إبراهيم بن الأشتر، وشعارهم: يا لثارات الحسين.

فبعد قتال عنيف بين الشيعة الذين تبعوا المختار، وبين سائر أهل الكوفة ومعهم جند الولاية تحت أمرة عامل ابن الزبير عبد الله بن مطيع، حاصر مقاتلو المختار، بقيادة ابن الأشتر، والي الكوفة في قصر الولاية، فاضطر الوالي إلى الهرب ليلاً بناء على نصيحة من ناصروه من أهل الكوفة. وإذ دخل ابن الأشتر القصر، وأمّن من كان فيه بعد هرب الوالي، تسارع هؤلاء إلى مبايعة المختار الذي انتقل إلى القصر. وجاء أهل الكوفة بشبه إجماع، يهنّئون ويبايعون. ولمّا تحلّق الناس حول القصر والمسجد، صعد المختار المنبر، وقال:

«الحمد لله الذي وعد وليّه النصر، وعدوّه الخُسر، وجعله فيه إلى آخر الدهر، وعداً مفعولاً وقضاء مقضيّاً، وقد خاب من افترى. أيّها الناس إنّا رُفعت لنا راية وعُدّت لنا غاية، فقيل لنا في الراية أنِ ارفعوها، وفي الغاية أن اجروا إليها ولا تعدوها، فسمعنا دعوة الداعي ومقالة الواعي، فكم من ناعٍ وناعية لقتلى في الواعية، وبعداً لمن طغى وأدبر وعصى وكذب وتولّى، ألا فادخلوا أيّها الناس وبايعوا بيعة هدى، فلا والذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً والأرض فُجاجاً سُبُلاً، ما بايعتم بعد بيعة عليّ بن أبي طالب وآل عليّ أهدى منها!».

ونزل المختار عن المنبر، ليتلقّى المبايعة من أشراف الكوفة، «على كتاب الله وسنّة رسوله، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلّين، والدفاع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا وسلم من سالمَنا[1]».

ما أن حصل المختار على مبتغاه بمبايعة أهل الكوفة له، حتّى راح ينتقم لدم الحسين، كما وعد، بقتل أولئك الذين اشتركوا في كربلاء. وكان من بين هؤلاء من بايعوا المختار، بيدَ أنّ ذلك لم يمنع من قتلهم. ومن الكوفة، راح المختار يعيّن الولاة على أرمينية، وأذربيجان، والموصل، والمدائن وأرض جُوخى، وبهقباذ الأعلى

---

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢١٥ - ٢٢٦؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٨؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرات ١٩٣٥ - ١٩٣٨: ٥ - ١٧١ إلى ١٧٤.

والأوسط، وحلوان. وعيّن القضاة. وراح يتجهّز للانتقام من الأمويّين. وكان الخليفة الأمويّ آنذاك قد أضحى عبد الملك بن مروان، بعد قيام امرأة مروان، التي كانت زوجة لسلفه يزيد بن معاوية، واسمها فاختة، بقتله خنقاً إذ وضعت على وجهه وسادة وهو نائم وجلست فوقها مع جواريها حتّى مات، وذلك انتقاماً لأنّه تهكّم على ولدها خالد الذي كان قد بويع على الخلافة من بعد مروان يوم بويع مروان، غير أنّ هذا الأخير قد انقلب على هذه المبايعة، فأوصى بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك[1].

بعد موت مروان وتسنّم ابنه عبد الملك سدّة الخلافة، أقرّ هذا الأخير عبيد الله بن زياد على ما كان أبوه ولاّه، وأمَره بالجدّ في أمر استرجاع الحجاز والعراق وفارس. وإذ كان ابن زياد قد قضى على التوّابين، توجّه نحو الموصل، فوجّه المختار يزيد بن أنس الأسديّ على رأس ثلاثة آلاف مقاتل للقضاء على ابن زياد، قاتِل الحسين، فوصل ابن أنس إلى الموصل مريضاً، وما لبث أن توفّي بعد بدء المعركة بقليل. وكان ابن زياد قد جمع جيشاً قوامه ثمانون ألف مقاتل، فتفرّقت فرقة ابن أنس، ممّا جعل المختار يرسل إبراهيم بن الأشتر على سبعة آلاف.

ما أن خرج إبراهيم بن الأشتر قاصداً منازلة ابن زياد، وهو كبير قادة المختار، حتّى وجد أهل الكوفة الفرصة مؤاتية للانقضاض على هذا الاخير. ولمّا أحسّ المختار بالخطر، بعث رسولاً على جناح السرعة يطلب إلى ابن الأشتر العودة فوراً إلى الكوفة، وتمكّن بدهائه ومداهنته الكوفيّين من كسب الوقت، حتّى عاد ابن الأشتر.

وبعودة ابن الأشتر، إنقضّ المختار على أهل الكوفة انقضاضاً شنيعاً، وقد بلغ عدد القتلى الذين سقطوا من مقاتليه، حوالى ثمانمائة قتيل، بخلال يومين، أمّا عدد قتلى خصومه، فبلغ الآلاف، واستغلّ المختار المناسبة ليبيد كلّ الذين اشتركوا في جيش الكوفة عند قتل الحسين، وعلى رأس هؤلاء عمر بن سعد بن أبي وقّاص، الذي بعث المختار برأسه ورأس ابنه مقطوعَين إلى محمّد ابن الحنفيّة.

---

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٧٠: ٥ - ٢٠٦؛ قابل: الطبري، ٢ : ٥٧٧؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٧

وإذ أحكم المختار قبضته على الكوفة، أرسل فرقة إلى المدينة بحجة نصرة ابن الزّبير على أهل الشام، إنّما غايته الحقيقيّة كانت محاصرة ابن الزّبَير. وقد تمكّن صاحب ابن الزّبير: عبّاس بن سهل، من الفتك بهؤلاء قبل دخولهم المدينة.

في هذه الأثناء، كان ابن الزّبير قد أودع السجن كلاّ من محمّد ابن الحنفيّة، وعبد الله بن عبّاس، وأربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم لرفضهم المبايعة له، وحلف بالله أنّه سيحرقهم بالنار إن لم يبايعوا، فكتب ابن الحنفيّة إلى المختار مستغيثاً، وسرعان ما وجّه المختار أربعة آلاف فارس إلى مكّة، اقتحموا السجن، (حجرة زمزم) وأفرجوا عن محمّد وأقربائه. وعندما طلب قائد المجموعة، عبد الله الجدليّ، إلى محمّد ابن الحنفيّة أن يأذن له بالانقضاض على ابن الزبَير، أبى محمّد ذلك، وقال: «لا أستحلّ من قطع رحمه ما استحلّ منّي[1]».

كان ذلك سنة ٦٦ هـ / ٦٨٥ م. ولمّا فرغ المختار من أهل الكوفة وبعض قَتَلة الحسين، أرسل قائده إبراهيم بن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد الذي كان قد سيطر على الموصل، فكانت الواقعة بجوار الموصل، في أرض الخازر، حيث تمّ للشيعة الانتقام من عبيد الله بن زياد، أخيراً، في تلك المعركة الهائلة التي سقط فيها مئات القتلى من الطرفين، وحمل إبراهيم بن الأشتر رأس ابن زياد وغيره إلى المختار الذي بعث برأس قاتل الحسين إلى محمّد ابن الحنفيّة بمكّة[2].

إلاّ أنّ هذا النصر الذي حقّقه المختار بانتقامه للشيعة، لم يكن كافياً لتثبيت أقدامه على الكوفة، ولدرء الخطر عنه. ذلك أنّ الصراع يومها، كان بين أكثر من فريقين. ففي تلك السنة (٦٦ هـ) ولأوّل مرّة بتاريخ الإسلام، وقفت، بموسم الحجّ،

١ ـ راجع اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٦١؛ قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٤٩؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٤٢: ٥ ـ ١٧٧

٢ ـ اختلف المؤرخون في أمر من أرسل إليه المختار رأس ابن زياد، بين قائل بأنّه أرسله إلى ابن الزّبير بمكّة (المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٨٥: ٥ ـ ٢٢٣) وقائل بأنّه أرسله إلى عليّ بن الحسين بالمدينة (اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥٩) وقائل بأنّه أرسله إلى ابن الحنفيّة (الطبري، ٢: ٧٠٨) وقائل بأنّه احتفظ به في قصره بالكوفة (ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٦٥)

أربعة ألوية بجبل عرفات، بدلاً من لواء واحد، الذي هو عادة لواء الخليفة. أمّا تلك الأربعة فهي ألوية: محمّد ابن الحنفيّة في أصحابه، وابن الزبَير في أصحابه، ونجدة ابن عامر الحروري[1]، ولواء بني أميّة[2].

ما أن انتهى المختار من أمر قَتَلة الحسين، حتى عزل عبدُ الله بن الزبَير الحارثَ بن أبي ربيعة عن البصرة، واستعمل عليها أخاه مصعباً، الذي لقّب نفسه بالجزّار.

سارع أشراف الكوفة الفارّون من المختار في القدوم إلى مصعب بن الزبَير، وبايعوه على مقاتلة المختار وجماعته في الكوفة. ولم يتأخّر مصعب عن شنّ الحرب على المختار في بدءِ ولايته، فأغار على الكوفة، وسحق المختار وجماعته في خطّهم الدفاعيّ الأوّل بحاروراء، فانهزم المختار إلى قصره الحصين، حيث حاصره مصعب، ومعه في القصر رهط من قادته. وبلمح البصر، انقلبت الكوفة على المختار كما انقلبت قبلاً على مسلم بن عقيل، وراح أهلها يرمون جماعة المختار، من على السطوح، بالمياه القذرة. ولمّا اشتدّ الحصار على المختار وجماعته الذين افتقروا الى الغذاء والماء، قرّر هؤلاء أن «يُقتلوا كراماً».

تطيّب المختار وتحنّط وخرج من القصر في تسعة عشر رجلاً، لكنّه بقي وحيداً بعد لحظات، إذ عاد رفاقه ليحتموا بالقصر، بينما راح هو يقاتل وحيداً قتالاً انتحاريّاً حتّى قتله رجلان من بني حنيفة. وإذ حاول قادة المختار أن يبايعوا ابن الزّبَير مقابل الإفراج عنهم، وكاد مصعب يستجيب لهم، رفض أشراف الكوفة العفو، وصاحوا: «اقتلهم، اقتلهم». وكان عدد الذين تمّت تصفيتهم من جماعة المختار على يد مصعب بن الزبَير بتحريض من أشراف الكوفة، حوالى سبعمائة من العرب، وستّة آلاف من الفرس وسواهم[3].

١ ـ هو خارجي من الحروريّة، رأس الفرقة النجديّة، وكان للخوارج في تلك الحقبة حروب طاحنة مع الولاة. وقد استقلّ نجدة بالبحرين، وعجز ابن الزّبير عن التغلّب عليه، وفي النهاية خلعه أصحابه وقتلوه.

٢ ـ راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٦٣

٣ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٦٦ ـ ٢٧٨؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرتين ١٩٩٠ و ١٩٩١: ٥ ـ ٢٢٧ إلى ٢٢٩؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤

قد لا تكون هذه المدوّنات كافية للحكم على حقيقة المختار بن أبي عبيد الثقفيّ، إلاّ أنّ بعض الإشارات، وإن كان فيها شيء من التناقض، كما وردت في المدوّنات القديمة، من شأنها أن تبيّن بعض الجوانب من حقيقة شخصيّة المختار.

حرص مصعب ابن الزّبَير، بخلال هجومه على المختار، على تلقيب المختار بالكذّاب. وقد اعتمد بعض المراجع لقب الكذّاب للمختار، وقال «إنّه ادّعى النبّوة... لعنة الله عليه[1]».

كذلك فقد سَمّى مصعب المختار وجماعته، بـ «الخشبيّة» على أنّهم فرقة من الكيسانيّة. أمّا سبب تسميتهم بالخشبيّة، فلأنّ جماعة الفرقة التي أرسلها المختار لإنقاذ محمّد ابن الحنفيّة من سجن مكّة يوم حبسه ابن الزبَير، وأعدّ الحطب لإحراقه، مع بعض بني هاشم، قد دخلوا مكّة «وبأيديهم الخشب، لأنّهم لم يستحلّوا حمل السلاح في الحرم[2]».

بعض من ترجم للمختار بن عبيد، ذكر أنّه «من زعماء الثائرين على بني أميّة، وأحد الشجعان الأفذاذ من أهل الطائف، انتقل إلى المدينة مع أبيه زمن عمر، وتوجّه أبوه إلى العراق فاستشهد هناك يوم الجسر، وبقي المختار في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، ثمّ كان مع عليّ بالعراق وسكن البصرة بعد عليّ. ولمّا مات يزيد ابن معاوية سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م. وقام عبد الله في المدينة بطلب الخلافة، ذهب إليه المختار وعاهده وشهد معه بداية حرب الحصين بن نُمير. ثمّ استأذنه في التوجّه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته، فوثق به وأرسله ووصّى عليه، غير أنّ أكبر همّه منذ دخل الكوفة كان أن يقتل من قاتلوا الحسين، وقتلوه، فدعا إلى إمامة محمّد ابن الحنفيّة. وقال إنّ زهاء سبعة عشر ألف رجل بايعوا له سرّاً، واستولى على الكوفة والموصل وعظم شأنه وتتبّع قتلة الحسين فقتلهم وشاعت في الناس أخبار عنه بأنّه ادّعى النبوّة ونزول الوحي عليه، وبأنّه كان يوقَف له ذهب[3]»...

١ - السيوطي، ص ٢١٤
٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٥١
٣ - الدكتور صابر طعيمة، الشيعة معتقداً ومذهباً، مكتبة الثقافة، (بيروت ١٩٨٨) ص ١٥٦ عن: الزركلي، الأعلام ٧ : ٢٠

في الواقع، تختلف النظريّات حولما إذا كان المختار، هو مؤسّس الكيسانيّة، أم إذا كانت الكيسانيّة تنتسب إلى سواه ممّن سبقوه.

فالبعض يعتبر أنّ نسبة الكيسانيّة تعود إلى «كيسان مولى محمّد ابن الحنفيّة. وقيل بل المختار كان لقبه كيسان. وقيل أيضاً إنّما سمُّوا بذلك لأنّ رئيس شرطة المختار كان اسمه كيسان، وكان يُعرف أيضاً بأبي عمرة، وكان جبّاراً مغرماً بتخريب الدور يهدم الدار بلحظة[1]». وقد اعتبر بعضهم أنّ أبا عمرة، ما هو سوى المختار الملقّب بكيسان[2].

غير أنّ المدقق في المدوّنات الكلاسيكيّة، لا يستطيع أن يعتبر المختار مؤسّس الكيسانيّة، ولا أنّه مدّعي النبوّة، وإن كان المختار قد قام ببعض المناورات التي من شأنها أن تشدّ الكيسانيّين إليه، خاصّة وأنّ هؤلاء كانوا فعلاً من الغلاة الذين تأثّروا كثيراً بمقولات السبئيّة التي كانت بدورها، متأثّرة بالمفاهيم اليهوديّة. من تلك المناورات أنّ المختار كان يحتفظ بكرسيّ، جلبه من بيت أخت عليّ بن أبي طالب: أمّ جعدة، وقال إنّه كرسيّ عليّ. وعندما حصل المختار على هذا الكرسيّ، «دعا للصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال المختار: - إنّه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلاّ وهو كائن في هذه الأمّة مثله، وإنّه كان في بني اسرائيل التابوت، وإنّ هذا (الكرسيّ) فينا مثل التابوت - . فكشفوا عنه، وقامت السبئيّة فكبّروا[3]».

وخلاصةً، يبدو راجحاً أنّ المختار، قد استمال إليه، بشتّى الوسائل، جميع الفرق الشيعيّة التي كانت قائمة في ذلك الوقت، بما فيها السبئيّة والكيسانيّة، إلاّ أنّ تقرّبه من محمّد ابن الحنفيّة، جعله، برأي البعض، كيسانيّاً، وأحياناً مؤسّساً للكيسانيّة، ولكنّ هذا الاعتبار يفتقر الى الدليل الصحيح.

١ - المرجع السابق، ص ١٥٧
٢ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٤٥: ٥ - ١٨٠ و ١٨١
٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٥٨

عندما توفي أمير المؤمنين، الإمام عليّ بن أبي طالب، انتقلت إمامة الشيعة إلى ابنه الأوّل: الحسن، (٤٠ هـ / ٦٦١م). ثمّ انتقلت، بعد موت الحسن (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) إلى ابن عليّ الثاني: الحسين. وفيما اعتبر بعض المؤرّخين، أنّه لم يكن من خلاف على إمامة الحسن، فالحسين، بعد عليّ، إعتبر بعضهم الآخر أنّ فرقة منهم زعمت أنّ عليّ بن أبي طالب نصّ على إمامة ابنه محمّد ابن الحنفيّة «لأنّه دفع إليه الراية بالبصرة[١]». وقد عُرفت هذه الفرقة بالكيسانيَّة نسبة إلى كيسان مولّى الإمام عليّ[٢]. وإذا كان هذا الرأي يفتقر إلى الإثبات التاريخي، فمن الثابت أنّه بعد مقتل الحسين، مال فريق من الشيعة إلى اعتبار أنّ عليّ بن أبي طالب، نصّ على إمامة ابنه الحسن، وأن الحسين بن عليّ نصّ على إمامة أخيه محمّد ابن الحنفيّة[٣].

على أيّ حال، فإنّ الجامع المشترك بين فرق الكيسانيّة التي سيأتي الحديث حولها، والتي يصل عددها إلى اثنتي عشرة فرقة، هو القول بإمامة محمّد ابن الحنفيّة. إنّما الغريب في هذا الأمر، أنّه لا يوجد في المدوّنات ما من شأنه أن يفيد عن موقف محمّد ابن الحنفيّة من هذا الاعتبار. كما أنّه ليس هنالك ما يدلّ على أيّة مدرسة له، أو أيّة تعاليم وضعها، إنّما يقتصر وضع التعاليم والمعتقدات عند الفرق الكيسانيَّة على مؤسِّسي تلك الفرق، من دون أن يكون لابن الحنفيّة كلام واضح في الموضوع.

يرد ذكر محمّد ابن الحنفيّة، في التواريخ، عند وفاة عليّ، إذ أوصاه «بما أوصى به أخويه (الحسن والحسين) وبتوقيرهما وتزيين أمرهما وبألاّ يقطعنَّ أمراً دونهما»، وأوصى الحسن والحسين به، «فإنّه صغيركما وابن أبيكما فأكرماه واعرفا حقّه[٤]».

---

١ - راجع: د. صابر طعيمة، ص ١٥٩

٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، ج١ ص ١٤٧؛ النوبختي، فرق الشيعة، ص ٤٤

٣ - راجع د. صابر طعيمة، ص ١٥٩

٤ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٧٣٤: ٤ ـ ٤٣٢؛ انظر: شرح نهج البلاغة، ٤: ٥٤٥

وعندما توفّي الحسن مسموماً، «وقف محمّد ابن الحنفيّة أخوه على قبره فقال: «لئن عزّت حياتك لقد هدّت وفاتك ولنِعم الروح روح تضمّنها كفنك ولنعم الكفن كفن تضمّن بدنك! وكيف لا يكون هكذا وأنت عقيد الهدى وحليف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء؛ غذّتك بالتقوى أكفّ الحقّ وأرضعتك ثدي الإيمان وربيت في حجر الإسلام، فطبت حيّاً وميتاً؛ وإن كانت أنفسنا غير سخيّة بفراقك رحمك الله أبا محمّد[١]». كان ذلك سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠م.

بعد ذلك بعشر سنوات، عندما سار الحسين من المدينة إلى مكّة ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجلّ أهل بيته، بسبب محاولة يزيد أخذ المبايعة منه عنوة، لم يبقَ في المدينة من أبناء عليّ سوى محمّد ابن الحنفيّة، الذي نصح أخاه الحسين بقوله: «يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عَليّ ولستُ أدّخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تنحَّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت وابعث رسلك إلى الناس وادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم يُنقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك، إنّي أخاف أن تأتي مصراً وجماعة من الناس فيختلفوا عليك، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأمّة كلّها نفساً وأباً وأمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً».

بعد هذا الكلام لابن الحنفيّة، النامّ عن كرهه للقتال ولهدر الدماء، وعن زهده بالمناصب، وعن حبّه وإخلاصه لأخيه، قال الحسن: «فأين أذهب يا أخي؟» قال: «إنزل مكّة فإن اطمأنّت بك الدار فبسبيل ذلك. وإن نأت بك لحقتَ بالرّمال وشَعَف الجبال وخرجتَ من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ويفرّق لك الرأي، فإنّك أصوب ما يكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها[٢]».

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٧٦٣: ٥ ـ ٦؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٥

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٦ ـ ١٧؛ راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٥٠.

ببقاء ابن الحنفيّة في المدينة، نجا من كربلاء. ولكنّه سوف يجد نفسه، بعد وقت قصير، في وضع أخيه الحسين مع يزيد، على أنّ مشكلة محمّد، كانت مع ابن الزبَير، الذي كان قد انتقل، قبل الحسين بليلة واحدة، من المدينة إلى مكّة، للأسباب نفسها التي حتّمت الانتقال على الحسين.

فبعد مقتل الحسين، وظهور المختار بن عبيد، الذي استولى على الكوفة، كما ورد في ما سبق، وتمرّده على ابن الزبَير، كتب المختار إلى عليّ بن الحسين عارضاً عليه «أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته»، ذلك أن الشيعة، بعد مقتل الحسين، كانت لا تزال بلا إمام. غير أنّ عليّاً لم يكتفِ برفض عرض المختار، بل سارع إلى سبّه على رؤوس الملأ في مسجد النبيّ، وأظهر كذبه، ... ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبي طالب. فلمّا يئس المختار من عليّ، كتب إلى عمّه محمّد ابن الحنفيّة يعرض عليه ما عرض على ابن أخيه، فأشار عليّ بن الحسين على محمّد بأن يحذوَ حذوه، فقصد ابن الحنفيّة قريبه ابن عبّاس، وسأله رأيه، فأشار إليه ابن عبّاس بعدم الإقدام على ما أقدم عليه عليّ، وبالسكوت عن أمر المختار، «فإنّك لا تدري ما أنت عليه من ابن الزُّبير[1]». وقد عمل محمّد ابن الحنفيّة بنصيحة ابن العبّاس، الذي كان مصيباً في توقعه.

ذلك أنّه لم يمضِ وقت طويل حتّى دعا ابن الزبَير محمّد ابن الحنفيّة، ومن معه من أهل بيته وشيعته وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة... ليبايعوه، فامتنعوا وقالوا: «لا نبايع حتّى تجتمع الأمّة»؛ فراح ابن الزبَير يسبّ ابن الحنفيّة ويذمّه. وإذ حاول أنصار محمّد مهاجمة ابن الزبير «أمرهم بالصبر». إلاّ أنّ استيلاء الشيعة على الكوفة، وظهور دعاء أهلها لابن الحنفيّة، أخاف ابن الزبَير، فراح «يلحّ على ابن عليّ وعلى أصحابه في البيعة له، فحبسهم بزمزم، وتوعّدهم بالقتل والإحراق، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفّذ فيهم ما توعّدهم به،

١ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرتان ١٩٣٦ و ١٩٣٧: ٥ - ١٧٢ و ١٧٣

وضرب لهم في ذلك أجلاً... فأشار بعض من كان مع ابن الحنفيّة عليه أن يبعث إلى المختار يعلمه بحالهم[1]» فكتب إلى المختار طالباً النجدة، وقد سارع المختار إلى نجدته كما ذكرنا سابقاً.

غير أن تصفية المختار وجماعته بالكوفة، قد ضعضعت الأنصار الذين لازموا ابن الحنفيّة في مكّة لحمايته. وقد قويت شوكة ابن الزبَير بعد قتل المختار، فأرسل إلى ابن الحنفيّة هذه المرّة، يقول جازماً: «أدخل في بيعتي وإلاّ نابذتك». أمام هذا الواقع، أذن ابن الحنفيّة لمن أحبّ الانصراف عنه بأن ينصرف، بعد أن نبّههم إلى أنّ ابن الزبَير ينوي الشرّ. ولكنّهم رفضوا مفارقته.

هنا، تختلف الروايات حول مصير ابن الحنفيّة. بعضها يقول بأن ابن الحنفيّة قد راسل الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان بدمشق، كي ينزل عنده، وبعد موافقة الخليفة، خرج وأصحابه إلى الشام... ولكن قبل وصوله إليها، جاءه رسول من الخليفة ينقل منه التالي: «إنّه لا يكون في سلطاني من لم يبايعني». فعاد محمّد ابن الحنفيّة باتجاه مكّة، ونزل شعَب أبي طالب، لكنّ ابن الزبَير بعث إليه يأمره بالانتقال إلى مكّة. وإذ استأذنه أصحابه، أمام هذا الضغط، في قتال ابن الزبَير، رفض ذلك قائلاً: «اللهمّ ألبِس ابن الزّبَير لباس الذلّ والخوف وسلّط عليه وعلى أشياعه من يسومهم الذي يسوم الناس». ثمّ سار إلى الطائف، وبقي هناك حتّى إقدام الحجّاج على حصار ابن الزبَير، فعاد إلى الشعِب، وراسل الخليفة عبد الملك طالباً منه الامان، فكان له ذلك[2].

رواية أخرى تذكر أنّ إبن الزبَير قد أخرج محمّد ابن الحنفيّة إلى ناحية رضوى[3].

وتقول ثالثة بأنّه قد «خرج إلى الطائف ومات بها».

ورابعة بأنّه مات ببلاد أيلة.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٢٤٩ - ٢٥٠
٢ - المرجع السابق، ج ٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٣
٣ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٦٢

وخامسة بأنه في سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م. مات بالمدينة ودُفن بالبقيع وصلّى عليه أبان بن عثمان بإذن ابنه (ابن محمّد) أبي هاشم، وقبض وهو ابن خمس وستّين سنة وله من الولد: الحسن وأبو هاشم وعبد الله وجعفر الأكبر وحمزة وعليّ لأمّ ولد؛ وجعفر الأصغر وعون أمّهما أمّ جعفر؛ والقاسم وإبراهيم لأمّ ثالثة[١].

وفي الاعتبار الشيعيّ، لم يُعَدّ محمّد ابن الحنفيّة إماماً. فبعد الأئمّة الثلاثة: عليّ، فالحسن، فالحسين، يُعتبر الإمام الرابع عند الشيعة، عليّ بن الحسين الملقّب بزين العابدين. ولقد انحصر الاعتقاد بإمامة ابن الحنفيّة بالفرق الكيسانيّة المنقرضة التي يتبرّأ الشيعة منها، كما يتبرّؤون من السبئيّة، وإن كان المذهبان قد شايَعا في البداية عليّ بن أبي طالب، إلاّ أنّ المناحي التي اتّبعها كل من المذهبين، قد أخرجتهما عن الخطّ الشيعيّ الأساسيّ، واعتُبرا، ليس فقط من الغلاة، بل من أصحاب البدع التي لا يقرّها الإسلام.

الكيسانية وفرقها

مهما كان أمر «كيسان» الذي تنتسبُ إليه الكيسانيّة أصلاً، فإنّ الكيسانيّة بدأت في الأساس بقولها بإمامة محمّد ابن الحنفيّة. وما لبث الكيسانيّة فيما بعد أن تفرّقت إلى فرق، بلغ عددها اثنتي عشرة فرقة. وقد اجتمعت الكيسانيّة، بعد محمّد ابن الحنفيّة، على القول بإمامة ابن محمّد، أبي هاشم. إلاّ أنّهم اختلفوا بعد أبي هاشم في خمس فرق، منها فرقة قالت إنّ أبا هاشم أوصى بالإمامة إلى عبد الله بن عمرو بن صرب الكنديّ، وإنّ الإمامة خرجت من بني هاشم إلى عبد الله، إذ تحوّلت روح أبي هاشم إليه. ولكن، على ما يبدو، كان عبد الله يفتقر الى العلم والى المزايا الدينيّة وللاستقامة، «فاطّلع بعض القوم على خيانته وكذبه، فأعرضوا عنه» وقالوا بإمامة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن

---

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ٢٠٣١: ٥ - ٢٦٨

جعفر بن أبي طالب. ثمّ لمّا هلك عبد الله (١٢٩ هـ / ٧٤٦ م) افترق أتباعه، فمنهم من قال: «إنّه حيّ، ومنهم من قال إنّه مات وتحوّلت روحه إلى إسحاق بن زيد بن الحارث الأنصاري، وقد عُرف هؤلاء بالحارثيّة... وقد أباحوا المحرّمات وعاشوا عيشة من لا تكليف عليه[١]».

وقد زعمت فرقة، بعد موت أبي هاشم، بأنّ هذا الأخير قد أوصى بالإمامة إلى محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، الذي أوصى بدوره إلى ابنه إبراهيم، وانتقلت في ولده إلى آخرهم. هذه الفرقة هي التي عُرفت بالهاشميّة بدولة بني العبّاس[٢].

يتّضح من ذلك، أنّ الكيسانيّة قد خالفوا الشيعة في أصول الإمامة، لأنّهم أخرجوها من بني عليّ بن أبي طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول، إلى بني العبّاس، والى ابن الكنديّ، وابن الحارث. ولم يقتصر خروج الكيسانيّة عن الأصول الشيعيّة على مسألة الإمامة، بل تعدّاها إلى صميم المعتقد والدِّين، فإنّ بعض هذه الفرق قد أباح المحرّمات، ومنها من قال بتناسخ الأرواح، وبغير ذلك ممّا لا علاقة للشيعة به من بدع.

أمّا الفرق التي ظهرت في الكيسانيّة، منذ بدايتها حتّى انقراضها، فأُولاها كانت تلك التي قالت بأنّ عليّ بن أبي طالب قد نصّ على إمامة ابنه محمّد ابن الحنفيّة «لأنّه رفع إليه الرّاية بالبصرة». وثانيها، كانت تلك التي قالت بأنّ عليّ بن أبي طالب نصّ على إمامة ابنه الحسن، وبأنّ الحسين بن عليّ نصّ على إمامة أخيه محمّد ابن الحنفيّة. وثالثها كانت تلك التي قالت بأنّ ابن الحنفيّة لم يمت، إنّما هو حيّ بجبل رضوى «وعن يمينه أسد وعن يساره نمر يحفظانه، يأتيه رزقه غدوة وعشيّة إلى وقت خروجه»، ويعتقدون بأنّ السبب الذي من أجله صبر على هذه الحالة هو أن يكون مغيّباً عن الخلق. «فإنّ لله تعالى فيه تدبيراً لا يعلمه غيره». أصحاب هذا القول هم أتباع أبي كرب الضرير، الذي اتّبعت مذهبه في حوالى سنة

---

١ - د. صابر طعيمة، ص ١٥٧ - ١٥٨ بالاستناد إلى الشهرستاني.
٢ - المرجع السابق بالاستناد إلى ابن خلدون.

٨١ هـ / ٧٠٠ م. هذه الفرقة التي تقول بأنّ «الإمام محمّد ابن الحنفيّة حيّ لم يمت، وهو المهديّ المنتظر» ونُسبت إلى أبي كرب، فعُرفت بالكربيّة. لكن عند «الكربيّة» تطوّر للعقائد الغالية، إضافة إلى التكرار للعقائد السبئيّة[1]، فإنّ إنكار وفاة الإمام والقول بغيبته في جبل رضوى هو تقليد لقول السبئيّة بأنّ عليّاً لم يمت، إنّما هو في السحاب. وكما قالت السبئيّة برجعة عليّ لملء الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً، كذلك قالت الكربيّة بعودة محمّد ابن الحنفيّة «الذي يظهر بنفسه بعد الاستتار عن خلقه، ينزل إلى الدنيا ويكون أمير المؤمنين وهذه آخرتهم». هنا نلاحظ تطوّراً واضحاً للعقائد الغالية عند السبئيّة، التي لم تربط عودة عليّ بالقيامة، مثلما فعلت الكربيّة بالنسبة لقولهم بعودة ابن الحنفيّة. فبينما اكتفى ابن سبأ بالقول «برجعة عليّ وهدمه دمشق حجراً حجراً ونزوله للانتقام من أعدائه وكشفه الأسرار لهم وتعريفه لهم أنّه ربّهم» طوّرت الكربيّة هذا المفهوم، وقالت «بقيام القيامة على يد ابن الحنفيّة».

كان من جملة أتباع هذه الفرقة، شاعر أمويّ، اسمه كُثيّر عزّة[2] (توفيّ سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م) كان قد أقام في المدينة، وغالى في تشيّعه، وقال بالرجعة والتناسخ وبإمامة المهديّ محمّد ابن الحنفيّة. وقد رأى ابن كثيّر في الآية: «في أيّ صورة ما شاء ركّبَكَ[3]» حجّة على صحّة تناسخ الأرواح، كما ذكر أبو الفرج الأصفهاني.

ومن جملة من اتّبعوا «الكربيّة» الشاعر السيّد الحِميريّ[4] الذي عُدَّ من أشهر الكيسانيّين، والذي وُلد في السّنة التي توفّي فيها كثيّر، (١٠٥ هـ /٧٢٣ م) ونشأ بالبصرة، وتوفّي سنة (١٧٣ هـ / ٧٨٩ م). وقد ذكر أبو الفرج الاصفهاني

١ ـ راجع: مجلّد السنّة من هذه الموسوعة، الفصل الرابع، ص ١٥٢ وما بعدها.
٢ ـ راجع: المسعودي، الفقرة ١٩٤٦: ٥ ـ ١٨١؛ ديوان كثيير، ٢ : ١٨٦؛ ابو الفرج الاصفهاني، الاغاني (بيروت) ٩ : ١٤
٣ ـ سورة الانفطار، ١ : ٨
٤ ـ راجع: المسعودي، الفقرة ١٩٤٧: ٥ ـ ١٨٢

في ترجمته للسيّد الحِميَري كثيراً من أشعاره التي توضّح جوانب من عقيدته الكيسانيّة، منها «سبّ الخلفاء الراشدين الثلاثة قبل عليّ، وادّعاء العلم الخاص لعليّ بن أبي طالب، والقول بالرجعة[1]». ومن نوادر هذا الشاعر، أنّه جاءه رجل يقول له: «بلغني أنّك تقول بالرجعة». فقال: «صدق الذي أخبرك وهذا ديني». قال الرجل: «أفتُعطيني مهياراً بمائة دينار إلى الرجعة؟» قال السيّد: «نعم وأكثر من ذلك إن وثقت لي بأنّك ترجع إنساناً... أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً[2]».

ومن الذين اشتهروا من فرقة الكربيّة الكيسانيّة، حمزة بن عمارة البربريّ، الذي اختلف الباحثون حول هويّته الحقيقيّة، والثابت أنّه كان من أهل المدينة، وكان يقول بمقالة الكربيّ، وقد فارقهم، فتبعه أُناس من أهل الكوفة منهم رجلان من نهد هما: صائد، وبيان. وكان معاصراً لمحمّد بن عليّ بن الحسين الباقر الذي توفّي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.، وقد لعن محمّد حمزه وتبرّأ منه. كما أنّ جعفراً الصادق (٨٠ ـ ١٤٨ هـ / ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م) الإمام السادس للشيعة، قد لعنه لكذبه وعدّه من الذين تنزل عليهم الشياطين[3]. ذلك أنّ حمزه قد قال بأنّ «محمّد ابن الحنفيّة هو الله، وأمّا هو، فنبيّ، وإمام، ينزل عليه سبعة أسباب من السماء فيفتح بها الأرض ويملكها».

ثمّ تظهر في الكيسانيّة، الفرقة الهاشميّة، التي تنتسب إلى عبد الله بن محمّد ابن الحنفيّة المعروف بأبي هاشم، وقد قال بإمامته الذين اعترفوا بموت محمّد ابن الحنفيّة من الكيسانيّين، وقالوا بانتقال الأسرار إليه من أبيه «الذي أطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس وتقدير التنزيل على التأويل، وتصوير الظاهر على الباطن» فقالوا: إنّ «لكل ظاهر باطناً، ولكل شخص روحاً، ولكل تنزيل تأويل، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم. والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار يجتمع في الشخص الإنسانيّ. وكلّ من اجتمع فيه هذا العلم هو الإمام

١ ـ راجع: أبو الفرج الاصفهاني، الاغاني (بيروت) ٩ : ١٤
٢ ـ راجع: د. صابر طعيمة، ص ١٧٣
٣ ـ راجع: د. صابر طعيمة، ص ١٧٤ ـ ١٧٦

حقاً». ونسبت الهاشميّة إلى أبي هاشم معجزات، منها إحياء الموتى، ونسبوا إليه قوله: «إنّ الإمام يعلم كلّ شيء، ومن لم يعرف إمامه لم يعرف الله».

خلاصة المقولات الهاشميّة ـ الكيسانيّة: «أنّ الإمام هو مصدر العلم. وأنّ من لم يعرف إمامه لم يعرف الله».

بعد موت أبي هاشم (٩٩ هـ / ٧١٧ م) تفرّقت الهاشميّة إلى عدّة فرق: فرقة قالت بأنّ الإمام بعد أبي هاشم، إنّما هو ابن أخيه الحسن بن محمّد ابن الحنفيّة، وإنّ أبا هاشم أوصى إليه، ثم أوصى الحسن إلى إبنه عليّ، الذي ليس له عقب، وقد انتظروا رجعة محمّد ابن الحنفيّة ويقولون: إنّه يرجع ويملك، بانتظار ذلك، هم في التّيه لا إمام لهم.

وفرقة قالت بأنّ الإمام بعد أبي هاشم، إنّما هو محمّد بن عليّ بن عبد الله ابن العبّاس. وهم اعتقدوا بأنّ أبا هاشم مات بأرض تقع بين دمشق والمدينة، اسمها الشراة[1]، وقد أوصى عند الموت بإمامة محمّد ابن عليّ بن عبد الله بن العبّاس، الذي أوصى إلى ابنه إبراهيم بن محمّد، وهذا الأخير أوصى إلى أبي العبّاس، وأخيراً أفضت الإمامة إلى أبي جعفر المنصور[2] بنتيجة وصيّة بعضهم إلى بعض.

وهنالك فرقة رجعت عن القول بإمامة محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بعد موت أبي هاشم، وقالت بأنّ «النبيّ محمّد (صلعم) نصّ على العبّاس بن عبد المطّلب ونصّبه إماماً، ثمّ نصّ العبّاس على إمامة ابنه عبد الله، الذي نصّ على إمامة ابنه عليّ»، وساقوا الإمامة إلى أن انتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور، وقد عُرف هؤلاء بالراونديّة.

وقد ظهرت فرقة أخرى تبعت رجلاً يُقال له رزام، قال بأنّ أبا مسلم[3] قُتل.

---

١ ـ ياقوت، معجم البلدان، ٥: ٢٤٧

٢ ـ الخليفة العباسي الثاني (١٣٦ ـ ١٣٥٨هـ/٧٥٤ ـ ٧٧٥م).

٣ ـ قد يكون أبا مسلم الخرساني (المتوفي سنة ١٣٧ هـ/٧٥٥ م) أحد أقطاب الحركة الدينيّة السياسيّة التي أدّت إلى انهيار الدولة الامويّة وقيام الدولة العبّاسيّة. حارب تحت راية العبّاسيين فاحتل مرو (١٣٠هـ/٧٤٨م) والكوفة. قتله المنصور، الخليفة العبّاسي الثاني.

بينما قالت جماعة منهم، صحبت رجلاً يُقال له أبو مسيلمة، بأنّ أبا مسلم حيّ لم يمت.

وفرقة تبعت رجلاً اسمه عبد الله بن عمرو بن حرب، قال بأنّ أبا هاشم بن محمّد ابن الحنفيّة، قد نصّبه إماماً، وتحوّلت روح أبي هاشم فيه. هذه الفرقة بعد أن اتّبعت عبد الله بن حرب وعُرف أصحابها بالحربيّة، اكتشف أعضاؤها كذب عبد الله، فساروا إلى المدينة يلتمسون إماماً، فلقوا عبد الله من معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، الذي دعاهم إلى أن «يأتمّوا به، فاستجابوا له، ودانوا بإمامته وادّعوا له الوصيّة وافترقوا في أمر عبد الله بن معاوية هذا على ثلاث فرق: فرقة قالت بأنّه مات. وفرقة قالت بأنّه بجبال أصفهان وبأنّه لم يمت ولا يموت حتى يعود بنواحي الجبال إلى رجل من بني هاشم. وفرقة قالت بأنّه حيّ بجبال أصفهان لم يمت ولا يموت حتّى يلي أمور الناس، وهو المهديّ الذي بشّر به الرسول».

كذلك بعد موت أبي هاشم، ظهرت فرقة تسمّى «البيانيّة» وهم أصحاب بيان بن سمعان التميميّ، الذين قالوا بأنّ أبا هاشم أوصى إلى بيان، الذي لم يكن له أن يوصي بها إلى عقبه.

وفرقة قالت بأنّ الإمام بعد أبي هاشم عبد الله بن محمّد ابن الحنفيّة، إنّما هو عليّ بن الحسين بن أبي طالب[1].

أما البيانيّة، فهي فرقة كيسانيّة اتّبعت «بيان بن سمعان» الذي كان ينتقل بفرقته من الكربيّة إلى الحميريّة إلى الهاشميّة، ثمّ كوّن فرقته الخاصّة به، مدّعياً أنّ أبا هاشم أوصى إليه، بعد أن كان أتباعه يقولون بمهديّة أبي هاشم ورجعته. وقد تطوّرت عند هؤلاء عقيدة الوصاية إلى عقيدة الحلول والتناسخ، بين روح أبي هاشم وروح بيان. ذلك أنّ البيانيّة قالت إنّ «روح الاله دارت في الأنبياء والأئمّة حتّى

---

١ ـ د. صابر طعيمة، ص ١٧٣؛ راجع بشأن هذه الفرق: الشهرستاني، الملل والنحل؛ الفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (الطبعة المصريّة) ص ٦٢ وما يليها.

انتهت إلى عليّ، ثم صارت إلى محمّد ابن الحنفيّة، ثم صارت إلى ابنه أبي هاشم، ثم حلّت بعده في بيان بن سمعان». وقد خصّ بيان علياً بالألوهية، وقال بأنّه سيظهر في بعض الأزمنة، واستدلّ على ذلك بالآية: ـ هل يَنظرون إلاّ أن يأتيهمُ الله في ظُلَل من الغمام والملائكة[1] ـ . ففسّر الآية على ضوء المعتقد السبئيّ بأنّ «علياً في الغمام، والرعد صوته والبرق تبسّمه[2]». وقد ادّعى «بيان» النبوّة معلناً أنّ أبا هاشم هو الذي جعله نبيّاً، واستدلّ على ذلك بما جاء في الآية: ـ هذا بيانٌ للناس وهُدى وموعظةٌ للمتّقين[3] ـ ، فقال بأنّه هو البيان والهدى والموعظة، وقد أرسل إلى محمّد بن عليّ بن الحسين (الباقر) كتاباً يقول فيه:

«أسلم تسلم، وترتقِ في سلّم، وتنج وتغنم، فإنّك لا تدري أين يجعل الله النبوّة والرسالة، وما على الرسول إلاّ البلاغ وقد أعذر من أنذر[4]».

وقد ادعى بيان العديد من القدرات، والمعارف. وجلّ ما تميّزت به البيانيّةُ: الباطنيّة في المعتقد والقول بالتأويل الباطنيّ، والقول بتجسيد الله وتشبيهه بالمخلوقين، والقول بانتقال جزء لاهوتيّ حلّ في بعض البشر عن طريق التناسخ، والقول بعقيدة قائم القيامة، وادعاء بيان النبوّة ومعرفة الاسم الأعظم «الذي يستطيع أن يدعو به الزهرة فتجيبه[5]».

على أيّ حال، فإنّ الكيسانيّة، وفرقها، ومعتقداتها قد انقرضت، ولم يعد التوسّع فيها يُجدي نفعاً، وإنّ ما ورد في هذا المجال كان من قبيل ما يستوجبه الحدّ الأدنى من التعريف. وبهذا، نختتم البحث في موضوع أتباع ابن عليّ بن أبي طالب: محمّد ابن الحنفيّة. لننتقل إلى المسار الرئيسيّ للشيعة، وهو ذلك الذي سيُستأنف مع الإمام الرابع بعد عليّ، والحسن، والحسين: عليّ بن الحسين.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢١٠

٢ ـ راجع: مجلّد السنّة من هذه الموسوعة، الفصل الرابع، فقرة «السبئية».

٣ ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٨

٤ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، (القاهرة) ج ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣

٥ ـ راجع: د. صابر طعيمة، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

الفصل الخامس

هَدْأةُ الشيعة ... إلى حين

- في زمن الحَجّاج
- زين العابدين علي بن الحسين
- أبو جعفر محمّد الباقر
- جعفر الصّادق
- المغيرة بن سعيد ... والمغيريّة
- زيد ... والزيديّة، والرافضة

« أمّا والله إنّي لأحمل الشرّ محمله
وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله ».

الحجّاج بن يوسف

في زمن الحجّاج

في خضمّ الصراع على الخلافة في نهاية القرن الأوّل للهجرة، بين الأمويّين وعلى رأسهم الخليفة عبد الملك بن مروان من جهة، وابن الزبَير الذي اعتصم في مكّة من جهة ثانية، والشيعة الذين كان آخر من حضّهم على القتال انطلاقاً من أرض العراق المُختار بن عبيد من جهة ثالثة، والخوارج الذين حالفوا ابن الزبَير في البداية ثمّ عادوا ليستقلّوا بذاتهم من جهة رابعة، ولّى الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان أمرة جيشه إلى الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، الذي قضى على ابن الزّبير، وأخضع لسلطانه وللأمويّين مكّة والمدينة والطائف والعراق. وعلى مدى السنوات العشرين التي تأمّر بخلالها، والتي انتهت بموته سنة ٩٥ هـ / ٧١٤م. في المدينة التي أسّسها في العراق: واسط، كان الشيعة في حالة من الكبت، شبيهة بالحالة التي مرّوا بها طوال مدّة الحكم الصارم لمعاوية بن أبي سفيان، إن لم يكن الكبت الذي عرفه الشيعة زمن الحجَّاج، أقسى بكثير من ذلك الذي ذاقوه في زمن معاوية.

وكان عبد الملك بن مروان، بعد أن قتلت جماعة المختار، انتقاماً للحسين، عمر بن سعيد بن العاص، وعبيد الله بن زياد بالعراق، قد قرّر الزحف لإخضاع العراق قبل أن يأتيها مصعب ابن الزبَير الذي قضى على المختار وجماعته. وبقي عبد الملك مصرّاً على قراره، بعد سيطرة ابن الزبَير على العراق. فسار إليها سنة ٧١ هـ / ٦٩٠م. « ولقيه مصعب بموضع يقال له دير الجاثليق، على مسافة فرسخين من الأنبار، فكانت بينهم وقعات وحروب، وقد خذل مصعباً أكثرُ أصحابه، ثمّ حملوا عليه وهو جالس على سريره فقتلوه، وحزّ رأسه عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وأتى به عبد الملك، فلمّا وضعه بين يديه خرّ ساجداً ». وقال عبيد الله هذا:

« فهَمَمت أن أضرب عنقه، فأكون قد قتلت ملِكَي العرب في يوم واحد[1] ». إلاّ أنّ عبيد الله لم يلحق أن ينفّذ ما همّ أن يقوم به قبل أن يرفع الخليفة رأسه.

وإذ كان عبد الملك، ساعة أتوه برأس مصعب، في قصر الكوفة، وكان بقربه أبو مسلم النخعيّ، الذي لاحظ الخليفة اضطرابه، سأله عن سبب ذلك، فقال النخعيّ: « يا أمير المؤمنين، دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع؛ ثمّ دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار فيه؛ ثمّ دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزّبَير؛ وهذا رأس مصعب بين يديك؛ فوقّاك الله يا أمير المؤمنين ». وقد رُوي نقلاً عن النخعيّ أنّ عبد الملك، قد وثب إذ ذاك إلى خارج القصر، « وأمر بهدم الطاق الذي كان على المجلس[2] ».

بايع أهل الكوفة عبد الملك، « فوفى الناس بما كان وعدهم به في مكاتبته إيّاهم سرّاً، وخلع، وأجاز، وأقطع، ورتّب الناس على مراتبهم، وعمّهم ترغيبه وترهيبه، وولّى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة بشر بن مروان أخاه، وخلّف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام، وبعث بالحجّاج بن يوسف لحرب ابن الزّبَير بمكّة، وسار في بقيّة أهل الشام إلى دار ملكه دمشق[3] ».

بعد حوالى أربع سنوات على هذا الحدث، بلغ الخليفة أنّ أهل العراق يحضّرون لشيء ما. فسارع إلى تولية الحجّاج بن يوسف على العراق، بعد أن كان هذا الأخير قد قضى على ابن الزّبَير وتأمّر على الحجاز.

سار الحجّاج من المدينة إلى العراق « في اثني عشر راكباً من النجائب حتّى

1 ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٦٥ ؛ قابل: إبن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٨ ؛ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ٢٠١١ : ٥ ـ ٢٤٨ و ٢٤٩ ؛ الطبري، ٢ : ٨٠٩
2 ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ٢٠١٥ : ٥ ـ ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٦٥ ؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٣٢
3 ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ٢٠١٦ : ٥ ـ ٢٥٤ ؛ قابل: إبن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٢٩ وما يليها ؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٦٦ .

دخل الكوفة فجأة، حين انتشر النهار، فدخل المسجد، وصعد المنبر، وهو متلثّم بعمامة خزّ حمراء، فقال: « عليّ بالناس »، فحسبوه وأصحابه من الخوارج، فهمّوا به وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم، فاجتمع الناس وهو ساكت قد أطال السكوت... ثمّ كشف الحجّاج عن وجهه وقال:

« أنا إبنُ جلا وطلاّع الثنايا — متى أضع العمامةَ تعرفوني

أمّا والله إنّي لأحمل الشرّ محمله، وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله. وإنّي لأرى رؤوساً قد أينعت وقد حان قطافها. إنّي لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمّرت عن ساقيها تشميرا:

هذا أوان الحرب فاشتدّي زيَمْ — قد لفّها الليل بسوّاقٍ حطم
ليس براعي إبلٍ ولا غنم — ولا بجزّار على ظهرٍ وضَم

إنّي والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التّين. ولا يقَعقَعُ لي بالشّنان، ولقد فُررت عن ذكاء، وجريتُ إلى الغاية القصوى ». ثم قرأ: « ـ ضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنّةً يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان، فكفرت بأنعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[1] ـ؛ وأنتم أولئك وأشباه أولئك؛ إنّ أمير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً فوجّهني إليكم ورمى بي في نحوركم، فإنّكم أهل بغي وشقاق ونفاق، فإنّكم طالما أوضعتم في الشرّ، وسننتم سنن الغيّ، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأُذيقنّكم الهوان ولأمرينّكم به حتّى تدرّوا، ولألحونّكم لحو العود، ولأعصبنّكم عصْبَ السَّلمة حتّى تذلّوا، ولأضربنّكم ضرب الإبل حتّى تذروا العصيان وتنقادوا، ولأقرعنّكم قرع المروة حتّى تلينوا، إنّي والله ما أعِدُ إلاّ وفيت، ولا أخلق إلا فريت، فإيّاي وهذه الجماعات فلا يركبنّ رجل إلاّ وحده. أُقسم بالله لتُقبلُنّ على الإنصاف، ولتدعُنَّ الأرجاف، وقيلاً وقالاً وما تقول وما يقول وأخبرني فلان، أو لأدعنَ لكلّ رجل منكم شغلاً في جسده! فيمَ أنتم وذاك؟ والله لتستقيمُنَّ على الحقّ أو لأَضربَنَّكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيامى، والولدان يتامى، حتّى تذروا السُّمَّهى، وتقلعوا عن ها وها، إلاّ إنّه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبيَ فيء، ولا قوتل عدو، ولعُطّلت الثغور، ولولا أنّهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً... »

ثمّ أمر الحجّاج بكتاب عبد الملك، فقرئ على أهل الكوفة، فلمّا قال القارئ: « أمّا بعد،

1 ـ الآية ١٦ : ١١٢

سلام عليكم فإنّي أحمد الله إليكم » ، قال الحجّاج : « إقطع » . ثم قال : « يا عبيد العصا ، يسلّم عليكم أمير المؤمنين فلا يردّ رادّ منكم السلام؟! أمّا والله لأؤدّبنّكم غير هذا الأدب! » ثمّ قال للقارئ : « إقرأ » . فلمّا قرأ سلام عليكم » قالوا جميعاً : « سلام الله على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[1] » .

وإذ روّض الكوفة ، انتقل الحجّاج إلى البصرة ، وخطب بأهلها بمثل ما خطب به أهل الكوفة . وقد جرت في البصرة محاولة انقلاب على الحجّاج منيت بالفشل .

بعد مضيّ سبع سنوات على تسنّم الحجّاج ولاية العراق ، نجده كما كان في اليوم الأوّل لدخوله الكوفة ، في مخاطبته لأهل العراق . ذلك بعد المحاولة الانقلابيّة الفاشلة التي قادها عليه عبد الرحمن بن الأشعث سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م . والتي قُتل بنتيجتها عبد الرحمن . فعلا الحجّاج المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثمّ قال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم منكم والعظم والأطراف والأعضاء ، وجرى منكم مجرى الدم ، وأفضى إلى الأضلاع والأمخاخ ، فحشى ما هناك شقاقاً وخلافاً ونفاقاً ؛ ثمّ ارتفع فيه فعشّش وباض فيه وفرّخ واتخذتموه دليلاً تبايعونه وقائداً تطاوعونه ومؤامراً تستأمرونه ؛ ألستم أصحابي بالأهواز حين سعيتم بالغدر بي واستجمعتم عليّ وحين ظننتم أنّ الله سيخذل دينه وخلافته؟ وأقسم بالله إنّي لأرمينّكم بطرفي وأنتم تتسلّلون لواذا منهزمين سراعاً مفترقين كلّ امرئ منكم على عنقه السيف رعباً وجبناً ؛ ثمّ يوم الزاوية بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليّكم عنكم ؛ إذ ولّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها لا يسأل الرجل عن بنيه ولا يلوي امرؤ على أخيه حتّى عضّكم السلاح ووقصتكم الرماح ؛ ويوم دير الجماجم[2] وما يوم دير الجماجم؟ به كانت الملاحم والمعارك ضرباً يزيل الهامَ عن مقيله ويُذهل الخليل عن خليله ، فما الذي أرجو منكم يا أهل العراق أو ما الذي أتوقّعه ولماذا استبقيكم ولأيّ شيء أدّخركم؟ أللفجرات بعد الغدرات أم للنّزوة بعد النزّوات؟ وما الذي أراقب فيكم وما الذي أنتظر منكم؟ إن بُعثتم إلى ثغوركم غللتم وخنتُم ، وإن أُمّنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم! ولا

١ ـ إبن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٧ ؛ قابل : المسعودي ، الفقرة ٢٠٥٦ إلى ٢٠٥٨ : ٥ ـ ٢٩٣ إلى ٣٠٠ ؛ الطبري ، ٢ : ٨٦٤ ؛ الأصفهاني ، الأغاني ، (بيروت) ١٤ : ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ؛ العقد ، ٣ : ٢٣٦ ؛ كامل المبرّد ، ١ : ٣٣٣ وما يليها ؛ البيان ، ٢ ـ ٣٠٨

٢ ـ هي المعركة التي سقط فيها عبد الرحمن بن الأشعث .

تجزون بحسنة ولا تشكرون نعمة ؛ يا أهل العراق هل استنبحكم نابح واستشلاكم غاو أو استخفّكم ناكث أو استفزّكم عاص إلاّ بايعتموه وتابعتموه وآويتموه وكفيتموه! يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زقا كاذب إلاّ كنتم أنصاره وأشياعه؟ يا أهل العراق ألم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ وتعظكم الوقائع؟ هل يقع في صدوركم ما أوقع الله بكم عند مصادر الأمور ومواردها؟ يا أهل الشام إنّا لكم كالظّليم الرامح عن فراخه ينفي عنهنّ القذر ويكنّهنّ من المطر ويحفظهنّ من الذئاب ويحميهنّ من سائر الدوابّ ، لا يخلص إليهنّ معه قذى ولا يفضي إليهنّ ردى ولا يمسهنّ أذى ؛ يا أهل الشام أنتم العدّة والعدد والجنّة في الحرب ؛ إن نحارب حاربتم أو نجانب جانبتم ؛ وما أنتم وأهل العراق إلاّ كما قال نابغة بني جعدة :

« وإنّ تداعيكم حظّهم ... ولم ترزقوه ولم نكذب
كقول اليهود : قتلنا المسيح ... ولم يقتلوه ولم يُصلب[1] »

قد يكون في واحدة من المدوّنات عن نوادر الحجّاج ، ما من شأنه أن يفيد عن معاملته للشيعة ، وعن عدائه لهم . فقد رُوي عن رجل من أود ، اسمه عبد الله ابن هانئ ، قد قال للحجّاج : « إنّ لنا مناقب ما هي لأحد من العرب » ـ قال الحجّاج : « وما هذه المناقب؟ » ـ قال عبد الله : « ما سُبّ أمير المؤمنين عثمان في نادٍ لنا قطّ » ـ فقال الحجّاج : « هذا والله منقب » ـ قال : « وشهد منّا صفّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً وما شهد مع أبي تراب[2] منّا إلاّ رجل واحد ، وكان والله ما علمته امرأ سوء » ـ قال : « وهذا واللّه منقب » ـ قال : « وما منّا امرأة إلاّ نذرت إنْ قُتل الحسين أن تنحر عشر جزائر لها ففعلت » ـ قال : « وهذا والله منقب[3] » ...

وعندما مات الحجّاج سنة ٩٥ هـ / ٧١٢ م . وهو ابن أربع وخمسين سنة ،

١ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، الفقرة ٢٠٦٦ : ٥ ـ ٣٠٥ إلى ٣٠٨ ؛ قابل : البيان ، ٢ : ١٣٨ ـ ١٤٠ ؛ شرح نهج البلاغة ، ١ : ١١٤ ؛ نهاية الارب ، ٧ : ٢٤٥ ؛ العقد ، ٢ : ٣٨٠

٢ ـ أبو تراب : من ألقاب عليّ بن أبي طالب .

٣ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، الفقرة ٢٠٩٠ : ٥ ـ ٣٣٢ و ٣٣٣

بعد أن تأمّر على العراق عشرين سنة، «أُحصي من قتله صبراً سوى من قُتل في عساكره وحروبه، فوجدوا مائة وعشرين ألفاً، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة، منهنّ ستة عشر ألفاً مجرّدة. وقد كان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء». وذُكر أنّه «ركب يوماً يريد الجمعة، فسمع ضجّة فقال: «ما هذا؟» ـ قيل له: «المحبوسون يضجّون ويشكون ما هم فيه من البلاء»؛ فالتفت إلى ناحيتهم وقال: «أخسئوا فيها ولا تكلّمون[1]». ويقال إنّه مات في تلك الجمعة[2].

وبذلك مرّ عشرون عاماً، والشيعة في حال جمود، بحيث لم تذكر التواريخ عنهم أيّ تحرّك ملحوظ.

***

«كلّكم سيصير حديثاً، فمن استطاع
أن يكون حديثاً حسناً فليفعل».

عليّ بن الحسين

زين العابدين: علي بن الحسين

في هذه الحقبة، اتّخذ الشيعة المستقيمون ابن الحسين بن علي: عليّاً الملقب بالسجّاد، وبزين العابدين، إماماً. فكان إمامهم الرابع بعد عليّ، والحسن، والحسين.

كان عليّ مع والده الحسين وأهل بيته في كربلاء، وكان عمره أنذاك ثلاثاً وعشرين سنة، وكان مريضاً. وعندما اقتحم الكوفيّون مضرب أهل بيت الحسين

١ ـ سورة المؤمنين، ١٠٨ : ٢٣
٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ٢١٣٧ : ٥ ـ ٣٨٢ و ٣٨٣

بعد قتله، همّ أحدهم بقتل عليّ، فمنعه آخر، يُدعى حُميد بن مسلم، إذ قال له: «سبحان الله أتقتل الصبيان[1]!». أمّا أخوه: عليّ الأكبر، فقد قُتل بالطفّ، ولم يكن للحسين سوى هذين الولدين. وعندما قيل لزين العابدين: «ما أقلّ ولْد أبيك» قال: «العجب كيف وُلدت له، إنّه كان يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة، فمتى كان يفرغ للنساء[2]؟». وكانت أمّ عليّ أمةً وهبها إلى الحسين عمر بن الخطّاب. وهي حرار بنت يزدجرد كسرى، وقد سمّاها الحسين غزالة. ولمّا قتل الكوفيّون الحسين وأصحابه، «إبتزّوا حرمه، وحملوهنّ إلى الكوفة، فلمّا دخلن إليها ـ ومعهنّ عليّ ـ خرجت نساء الكوفة يصرخن ويبكين، فقال عليّ بن الحسين: «هؤلاء يبكين علينا فمن قتلنا[3]؟!».

لا بدّ للمرء من أن يتساءل عن سرّ نجاة عليّ بن الحسين من مجزرة كربلاء، التي كان مقصوداً منها القضاء على الحسين وذريّته. على أنّ المدوّنات تفيد عن أنّ ما كان يتمتّع به ذلك الفتى، غير العاديّ، من سحر غريب في شخصيّته، قد نجّاه.

فبعد مقتل الحسين بيومين، قام قاتله، عمر بن سعد، بنقل بنات الحسين وأخواته وعليّ، إلى عبيد الله بن زياد، والي الكوفة، الذي أمر بقتل الحسين وأصحابه. ولمّا نظر ابن زياد إلى عليّ، قال: «ما اسمك؟» ـ قال: «عليّ بن الحسين» ـ قال: «أولم يقتل الله عليّ بن الحسين؟» فسكت عليّ أمام ابن زياد الذي فشل في أن يثيره، وربّما كان هذا هدفه، إذ كان يبحث عن مبرّر لقتله. وأمام هذا السكوت الهادئ، حاول ابن زياد إثارته من جديد، فقال له: «ما لك لا تتكلّم؟». بقي عليّ محافظاً على هدوئه، وقال: «كان لي أخ يقال له أيضاً عليّ فقتله الناس». لم ييأس ابن زياد من تحدّي الفتى ومن محاولة إثارته، فقال: «إنّ الله قتله». فسكت عليّ من جديد، ومن جديد، عاد ابن زياد محرّضاً، ليقول:

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤٧
٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤٥
٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٧٩

« ما لك لا تتكلّم؟ ». فتكلّم عليّ هذه المرّة مستشهداً بالكتاب: « اللّه يتوفّى الأنفس حين موتها[1] ». ولم يكتفِ عليّ بهذا الاستشهاد الذي أفحم إبن زياد، بل زاده إفحاماً باستشهاد آخر: « وما كان لنفس أن تموتَ إلاّ بإذن الله[2] ». هنا، عبّر ابن زياد عن انطباعه من دون رقابة ذاتيّة، فقال: « أنت والله منهم ». وبالرغم من هذا ـ وربّما من أجل هذا ـ أمر ابن زياد بقتل الفتى الذي قال بهدوء: « من توكّل بهذه النسوة؟ ». فحرّك عليّ بذلك عواطف أخته زينب، فقالت: « يا ابن زياد، حسبك منّا » وتعلّقت بعليّ وقالت: « أما رُويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منّا أحداً؟ » واعتنقت عليّاً وقالت: « أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلته لما قتلتني معه »، وقال عليّ: « يا ابن زياد، إن كانت بينك وبينهنّ قرابة، فابعث معهنّ رجلاً تقيّاً يصحبهنّ بصحبة الإسلام ». لقد ضرب عليّ على الوتر الحسّاس، ذلك أن ابن زياد ابن أبيه سابقاً، وابن أبي سفيان لاحقاً، ما كان يستطيع أنْ يتملّص، بسهولة، من مسألة القرابة. فنظر إلى زينب، وقال: « عجباً للرحم... والله إنّي لأظنّها ودّت لو أنّي قتلته أنّي قتلتها معه، دعوا الغلام ينطلق مع نسائه[3] ».

ولمّا اقتيد عليّ، والناجون من كربلاء، وهم نساء وأولاد، إلى الشام، وقد جعل ابن زياد الأغلال في يديه ورقبته، بقي عليّ صامتاً طوال المسيرة، حتّى وصل إلى مجلس الخليفة يزيد، فكان أوّل ما قاله للخليفة: « لو رآنا رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، مغلولين، لفكّ عنّا ». فما كان بوسع الخليفة إلاّ أن يقول: « صدقت » وأن يأمر بفكّ غلّ ابن الحسين عنه. فاستأنف عليّ الكلام أمام الخليفة الذي أمر بقتل أبيه وعياله: « لو رآنا رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، بُعداءَ لأحبّ أن يقرّبنا ».

لم يكن يزيد يتوقّع هذا الهدوء وهذه العقلانيّة الخارقة من ابن الحسين، فوجد نفسه منقاداً لطلباته من دون تردّد. فقرّبه منه، وقد بلغ فيه الإعجاب

---

١ ـ سورة الزُمر، ٣٩: ٤٢

٢ ـ سورة آل عمران، ٣: ١٤٥

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٨٢

الذروة. وحاول أن يبرّر فعلته الرهيبة أمام الفتى، فقال له: « إيه يا عليّ بن الحسين، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت ». فما كان، في هذا الظرف، أفضل من عبقريّة اختيار الآية. قال عليّ: « ما أصابَ من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتابٍ من قبل أن نَبْرأها إنّ ذلكَ على الله يسيرٌ لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور ». إلاّ أنّ ردّ يزيد، لم يكن أضعف: « ما أصابكم من مصيبة فبما كسَبت أيديكم ».

هذا المستوى من المحادثة، جعل الخليفة يأمر بإنزال عليّ ونسائه في دار جدّه، وصار يزيد لا يتغدّى ولا يتعشّى إلاّ دعا إليه عليّاً.

بعد أيّام، أراد الخليفة أن يسيّر عليّاً ومن معه من نساء وأولاد، إلى المدينة، فدعا عليّاً ليودّعه، وقال له: « لعن الله ابن مرجانة[1]! أمّا والله لو أنّي صاحبه[2] ما سألني خصلة أبداً إلاّ أعطيته إيّاها، ولدفعت الحتف عنه بكلّ ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله ما رأيت. يا بني كاتبني حاجةً تكون لك ».

وهكذا افترق الخليفة الأمويّ، وابن الحسين بن عليّ، بعد مقتل الحسين بوقت قصير، وهما على علاقة إنسانيّة وجدانيّة طيّبة، وفي صدر الخليفة ندم وخجل، فسيّر مع عليّ وصحبه إلى المدينة رجلاً أميناً، حرص على إكرامهم وحمايتهم وحسن اعتبارهم واحترامهم حتّى وافوا المدينة، ممّا جعل أختي الحسين، فاطمة وزينب، تحاولان أن تكافآه على أمانته بإهدائه السّوارين اللذين كانا لا يزالان معهما، وقد خلصا من نهب الكوفيّين، فردّهما وقال: « لو كان الذي صنعته للدنيا لكان في هذا ما يرضيني، ولكن والله ما فعلته إلاّ لله ولقرابتكم من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[3] ».

---

١ ـ لقب تشنيعي لعبيد الله بن زياد

٢ ـ صاحبه: صاحب الحسين، أي لو كنت موجوداً مع الحسين.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٨١ ـ ٨٨

ومن التدقيق بأحداث المدينة، يتبيّن أنّ علياً، قد عرف كيف يبتعد عن الشرّ، وكيف يحافظ على أمن من كان مسؤولاً عن حياتهم، منقاداً لحكمته وتعقّله، وإيمانه وتعمّقه في الدّين. ورغم أن المدينة في ذلك الوقت، كانت مسرحاً لحروب دامية بين الخلافة الأمويّة من جهة، وعبد الله بن الزّبَير من جهة ثانية، إضافة إلى من أختلط معهما من قوى متعدّدة الانتماءات، فقد بقي عليّ بن الحسين على الحياد، غير منقاد للإغراءات، منصرفاً إلى التعبّد والتعقّل والتوجيه الدينيّ.

فلمّا «شمل الناس جور يزيد وعمّاله، وعمّهم ظلمه وما ظهر من فسقه ومن قتله ابن بنت رسول الله (صلعم) وأنصاره، وما أظهر من شرب الخمور وسيره سيرة فرعونيّة... أخرج أهل المدينة عامله عليهم، وهو عثمان بن محمّد بن أبي سفيان، كما أخرجوا مروان بن الحكم، وسائر بني أميّة، وذلك عند تنسّك ابن الزبَير وتألّهه وإظهار الدعوة لنفسه، فنُمي فعل أهل المدينة إلى يزيد، فسيّر إليهم بالجيوش من أهل الشام، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المرّي، الذي أخاف المدينة ونهبها وقتل أهلها، وبايعه أهلها على أنّهم عبيد ليزيد، وسمّاها نتنة، وقد سمّاها رسول الله (صلعم) طيّبة، وقال: «من أخاف المدينة أخافه الله». ولمّا انتهى الجيش من المدينة، إلى الموضع المعروف بالحرّة، وعليهم مُسرِف، خرج إلى حربه أهلها، وعليهم عبد الله بن مطيع العدويّ، وعبد الله بن حنظلة الأنصاريّ، وكانت وقعة عظيمة قُتل فيها خلق كثير من الناس من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم... وكان ممّن قُتل من آل أبي طالب: ابنان لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ولجعفر بن محمّد بن عليّ بن أبي طالب، إضافة إلى أكثر من تسعين رجلاً من بني هاشم وسائر قريش، ومثلهم من الأنصار، وحوالى أربعة آلاف من سائر الناس... ونظر الناس إلى عليّ بن الحسين السجّاد (زين العابدين) وقد لاذ بالقبر وهو يدعو؛ فأُتي به إلى مسرِف وهو مغتاظ عليه، فتبرّأ منه ومن آبائه؛ فلمّا رآه وقد أشرف عليه، ارتعد وقام له وأقعده إلى جانبه وقال له: «سلني حوائجك» فلم يسأله في أحد ممن قُدّم على السيف إلاّ شفعه فيه، ثمّ انصرف عنه، فقيل لعليّ:

«رأيناك تحرّك شفتيك، فما الذي قلت؟» ـ قال: «قُلت اللهم ربّ السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، ربّ العرش العظيم، ربّ محمّد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه وأدرأ بك في نحره؛ أسألك أن تؤتيني خيره وتكفيني شرّه!».

هذه الروح المؤمنة بعمق وتبصّر وحكمة، لا بدّ من أن تمنح صاحبها القدرة النادرة. فلمّا قيل لمسرف. «رأيناك تسبُّ هذا الغلام وسلفه، فلمّا أتي به إليك رفعت منزلته» ـ فقال: «ما كان ذلك لرأي منّي، لقد مُلِئ قلبي منه رعباً[1]».

ويَذكر بعض المراجع أن علياً كان قد كتب إلى يزيد، في بداية المعمعة، يعلمه أنّه ليس طرفاً في النزاع، فأمر يزيد قائده مسلماً أن «ينظر عليّ بن الحسين، فيكفّ عنه، ويستوصي به خيراً[2]».

وكان مروان بن الحكم، «كلّم ابن عمر (بن الخطّاب) لمّا أخرج أهل المدينة عامل يزيد وبني أميّة، في أن يغيّب أهله عنده، فلم يفعل، فكلّم علياً، فقال: «إنّ لي حرماً وحرمي تكون مع حرمك». فبعث مروان بامرأته ـ وهي عائشة ابنة عثمان بن عفّان! ـ وحرمه إلى عليّ بن الحسين، فخرج عليّ بحرمه وحرم مروان إلى ينبع، وقيل: «بل أرسل حرم مروان وأرسل معهم ابنه عبد الله إلى الطائف[3]».

على أيّ حال، فإنّ علياً قد أبدى بذلك ما لم يبده سواه من الشهامة في هذا المجال، وإضافة إلى العلاقة المتينة التي أنشأها مع يزيد، لكفّ شرّه، أنشأ بذلك علاقة طيّبة، قلبت صفحات الماضي الأسود، مع مروان بن الحكم، الذي سيصبح الخليفة فيما بعد.

ولمّا أخضع مسلم المدينة، دعا الناس إلى البيعة، فجاء عليّ مع مروان، ماشياً

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧: ٥ ـ ١٦٢ إلى ١٦٤
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١١٣
٣ ـ المرجع السابق.

بينه وبين ابن مروان عبد الملك، الذي سيصبح الخليفة التالي لمروان. ولمّا وصلوا مجلس مسلم، جلس عليّ بين مروان وابنه، فطلب مروان الشراب احتراماً، فشرب منه قليلاً، وناوله عليّاً، وإذ تناول عليّ الكأس، قال له مسلم: «لا تشرب من شرابنا!» فارتعدت كفّ عليّ، وانتظر كلمة أمان من مروان. ثمّ إنّ مسلماً هو الذي استأنف الكلام، فقال: «أجئت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي؟ والله لو كان إليهما أمر لقتلتك! ولكنّ أمير المؤمنين أوصاني بك وأخبرني أنّك كاتبته، فإن شئت فاشرب». فشرب. وسرعان ما أجلسه مسلم معه على السرير، ثم قال له: «لعلّ أهلك فزعوا؟» قال عليّ: «إي والله». وكان هذا كلّ ما قاله. إلاّ أنّ مسلماً قد أمر له بدابّة فأسرجت له، فحمله عليها وردّه دون أن يُلزمه بالبيعة ليزيد مثلما ألزم سائر أهل المدينة[1].

ولمّا بدأ المختار بن أبي عبيد الثقفي حركته الشيعيّة في الكوفة، وقبل أن يقول بالإمامة لمحمّد ابن الحنفيّة، «كتب كتاباً إلى عليّ بن الحسين السجّاد، يريده على أن يبايع له[2] ويقول بإمامته ويُظهر دعوته، وأنفذ إليه مالاً عظيماً، فأبى عليّ أن يقبل ذلك منه، أو يجيبه على كتابه، وسبّه على رؤوس الملا في مسجد النبيّ (صلعم)، وأظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبي طالب. فلمّا يئس المختار من عليّ بن الحسين، كتب إلى عمّه محمّد ابن الحنفيّة، يريده على مثل ذلك[3]». وإذ أشار عليّ على عمّه أن يحذو حذوه، فلم يعمل بنصيحته، فكان ما كان من أمر الكيسانيّة. أمّا الشيعة المستقيمون، فهم أولئك الذين دانوا بالإمامة لعليّ بن الحسين، الذي ما عرف سوى الحقّ في حياته سبيلاً. فهو يوم كان في موكب الحسين إلى الكوفة، وبينما كان الحسين يسير ليلاً «خفق

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٠، وقد ذكر أن مسرف، هو نفسه مسلم بن عقبة، وأنّه سمّي بعد وقعة الحرّة مسرفاً.
٢ - أن يبايع المختار لعليّ، ويقول بإمامته ويُظهر دعوته.
٣ - المسعودي، مروج الذهب، الفقرة ١٣٦ : ٥ - ١٧٢

برأسه خفقة ثمّ انتبه وهو يقول: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين» فأقبل إليه ابنه عليّ، فقال: «يا أبت جُعلتُ فداك! ممّ حمدت واسترجعت؟» - قال: «يا بُنيّ، إني خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس فقال: «القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم؛ فعلمت أنّ أنفسنا نُعيت إلينا» - فقال عليّ: «يا أبت لا أراك الله سوءاً. ألسنا على الحق؟» - قال الحسين: «بلى والذي يرجع إليه العباد» - قال عليّ: «إذن لا نبالي أن نموت محقّين». فقال له: «جزاك الله من ولد خيراً ما جزى ولداً عن والده[1]».

هذه المزايا، جعلت من عليّ بن الحسين، المكنّى بزين العابدين، وبالسجّاد، جعلت منه المؤسّس الثاني للمدرسة في الإسلام، بعد جدّه لأبيه عليّ بن أبي طالب، الذي يُعتبر مؤسّس المدرسة الأولى التي انبثق منها مجرى ثقافيّ عريض. وقد تميّز بإنجازاته الهادئة، في تحرير العبيد. وهو ابن الأمَة. «فقد كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمّهات الأولاد حتّى نشأ فيهم القرّاء السادة: عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، والقاسم بن محمّد، وسالم بن عبد الله، ففاقوا أهل المدينة علماً وتقى وعبادة وورعاً، فرغب الناس حينئذ في السراري...» ذلك أنّه «لمّا قدم سبي فارس على عمر (بن الخطّاب) كان فيه بنات يزدجرد، فقوّمن، فأخذهنّ عليّ (بن أبي طالب) فأعطى واحدة لابن عمر فولدت له سالماً، وأعطى أختها لولده الحسين فولدت له عليّاً، وأعطى أختها لمحمّد بن أبي بكر فولدت له القاسم[2]».

وقد يكون الأثر الطيّب الذي تركه عليّ في نفس عمر بن عبد العزيز، يوم كان والياً على المدينة، هو الذي جعل عمرَ، يوم أصبح خليفة، يأمر بالكفّ عن لعن عليّ بن أبي طالب على المنبر. وقد قرأ عوض سبّ عليّ: «إنّ الله يأمر بالعدل

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٥١
٢ - الدكتور شكري فيصل، المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل، دار العلم للملايين. (١٩٨١) ص ٢٥٥ بالاستناد الى: الأصمعي، تهذيب التهذيب ٣ : ٤٤٦ - ٤٤٨؛ والثعالبي، لَطائف المعارف، ص ٧٥. وذكرت مراجع أخرى أنّ عدد بنات يزدجرد كان اثنتين فقط.

والإحسان وأبناء ذي القُربى[1] ». وقد ذكر عمر بن عبد العزيز علياً بعد وفاته فقال: « ذهب سراج الدنيا، وجمال الإسلام، وزين العابدين[2] ».

ومن الألقاب التي سُمّي بها عليّ بن الحسين، « لقب ذي الثفنات[3]، لما كان في وجهه من أثر السّجود. وكان يصلّي في اليوم ألف ركعة » لذلك عرف بالسجّاد. ولّما مات وغُسِل « وُجد على كتفيه جُلب كجلب البعير، فقيل لأهله: ما هذه الآثار؟ ـ قالوا: من حمله الطعام في الليل يدور به على منازل الفقراء ».

سعيد المُسَيِّب، القرشي المخزومي (ت ٩٤ هـ / ٧١٢ م) وهو أحد فقهاء المدينة السبعة، وقد نُعت بسيّد التّابعين، وكان أعلم الناس بأقضية الرسول وأبي بكر وعمر، قال: « ما رأيت قطّ أفضل من عليّ بن الحسين. وما رأيته قطّ إلاّ مقتَ نفسي؛ ما رأيته ضاحكاً يوماً قطّ[4] ».

ولم يكن اعتبار زين العابدين عليّ بن الحسين بأنّه المؤسّس الثاني للمدرسة في الإسلام، إلاّ محقّاً. وهو الذي قال: « من عفّ عن محارم الله كان عابداً. ومن رضي بقسم الله كان غنيّاً. ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلماً. ومن صاحب الناس بما يحبّ أن يصاحبوه به كان عادلاً[5] ».

وهو لم يكن إلاّ ملتزماً بمواعظه وأقواله. من ذلك على سبيل المثال، أنّ « هشام بن إسماعيل كان يسيء جوار عليّ بن الحسين، فخافه هشام، فتقدّم عليّ إلى خاصّته ألاّ يعرض له أحد بكلمة، ومرّ به عليّ وقد وقف للناس ولم يعرض له، فناداه هشام: ـ الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه[6] ـ ».

١ ـ الآية ١٦ : ٩٠؛ راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٢ ـ ٤٣؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٠٥
٢ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٠٥
٣ ـ ثفنت يده من العمل: غلظت.
٤ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٠٣
٥ ـ المرجع السابق.
٦ ـ سورة الأنعام ٦ : ١٢٤؛ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٥٢٧

وقال عليّ بن الحسين: « إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الفضل. فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: إنطلقوا إلى الجنّة بغير حساب، فتتلقّاهم الملائكة، فيقولون: ما فضلكم؟ فيقولون: كنّا إذا جُهل علينا حلمنا، وإذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أسيء علينا عفونا. فيقولون: أدخلو الجنّة، فنِعم أجر العاملين. ثمّ ينادي منادٍ: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: إنطلقوا إلى الجنّة بغير حساب، فتتلقّاهم الملائكة، فيقولون: ما كان صبركم؟ فيقولون صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرنا عن معاصي الله، فيقولون لهم: ادخلوا الجنّة، فنعم أجر العاملين. ثم ينادي فيقول: ليقم جيران الله! فيقوم ناس من الناس، وهم الأقلّ، فيقال لهم: بمَ جاورتم الله في داره؟ فيقولون: كنّا نتجالس في الله، ونتذاكر في الله، ونتزاور في الله، فيقولون: أدخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين[1] ».

بهذه المفاهيم، عاش عليّ بن الحسين، والتزم، وبها وجّه الإمام الشيعيّ الرابع، وعلّم.

وإذا اختلف المؤرّخون في تاريخ انتقال عليّ السجّاد، زين العابدين بن الحسين من هذه الفانية[2]، فهم لم يختلفوا في أنّ عمره كان يناهز السابعة أو الثامنة والخمسين، وفي أنّه « ذلك الإمام، الذي خلف أباه علماً وزهادة وعبادة، وفضائله ومناقبه أكثر من أن تحصر[3] ». وقد يكون هذا الإمام الفاضل، أفضل من تميّز بأدب الدعاء. وقد جُمعت أدعيته في « الصحيفة السجّاديّة ». وقد دُفن زين العابدين في بقيع الغرقد مع عمّه الحسن بن عليّ. وبقيع الغرقد، هي مقبرة المدينة التي دفن فيها أصحاب الرسول.

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٠٤
٢ ـ ذكر اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٠٣) أنّ عليّ بن الحسين قد قبض سنة ٩٩ أو سنة ١٠٠ هـ. بينما ذكر المسعودي (مروج الذهب، الفقرة ٢١٢٠ : ٥ ـ ٣٦٨) أنّه قبض في سنة ٩٥ هـ. ويقال سنة ٩٤.
٣ ـ راجع: د. صابر طعيمة. ص ١٥٨

أبو جعفر محمّد الباقر بن زين العابدين بن عليّ

خلف زين العابدين في الإمامة ابنه محمّد، المعروف بـ « الباقر » . ويوم تأسّف الخليفة عمر بن عبد العزيز على موت زين العابدين، قيل له : « إنّ ابنه أبا جعفر محمّد بن عليّ فيه بقيّة » . فكتب عمر يختبره . وبنتيجة ردّ محمّد . قال عمر : « إن أهل هذا البيت لا يخليهم الله من فضل[1] » .

يوم توفّي زين العابدين عليّ، كان عمر ابنه محمّد أقلّ من أربعين سنة . فإنّ محمّداً قد وُلد في سنة ٥٧ هـ / ٦٧٦ م . ولقد نُقل عنه قوله : « قُتل جدّي الحسين ولي أربع سنين[2] ، وإنّي لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت[3] » . فإن محمّداً قد كان برفقة جدّه الحسين في كربلاء، وأمّه أمّ عبد الله بنت الحسن بن عليّ. فهو حفيد الحسن والحسين.

سُمّي محمّد بن عليّ بـ « الباقر[4] » ... وقد روى ابن قتيبة « أنّ النبيّ (صلعم) قال لجابر بن عبد الله الأنصاريّ : يا جابر إنّك ستعمّر بعدي حتّى يولد لي مولود اسمه كاسمي يبقر العلم بقراً، فإذا لقيته فاقرئه منّي السلام[5] . وعندما شاخ جابر، وشعر بدنوّ أجله، جعل يقول : « يا باقر! يا باقر! أين أنت؟ » وعندما رآه، « وقع عليه يقبّل يديه ورجليه ويقول : ـ بأبي وأمّي شبيه أبيه رسول الله! إنّ أباك يقرئك السلام ـ » .

لم يحد الإمام الشيعيّ الخامس عن تعاليم أبيه، بل تابع توسيع مدرسته وتخريج العلماء فيها من كلّ الأقطار الإسلاميّة، وممّا قيل عنه أنّه « أظهر من

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٠٥
٢ ـ قتل الحسين سنة ٦١ هـ.
٣ ـ اليعقوبي. ج ٢ ص ٣٢٠
٤ ـ بقر الأرض : شقّها واكتشف مخبآتها وكمائنها.
٥ ـ راجع د. صابر طعيمة. ص ١٥٨

مخبآت كنوز المعارف، وحقائق الأحكام والحكَم واللطائف، ما لا يُخفى إلاّ على منطمس البصيرة، أو فاسد الطويّة والسريرة » . وقيل فيه أيضاً إنّه « باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، صفا قلبه وزكا علمه، وطهرت نفسه، وشرف خلقه، عمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تقلّ عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات مأثورة في السلوك والمعارف[1] » .

وقد يكون في بعض ما حُفظ من حكَمه بعض إظهار لسموّ تعاليمه وخلقه. ومن تلك الحكَم :

« إصبر للنوائب، ولا تتعرّض للحقوق، ولا تعطِ أحداً من نفسك ما ضرّه عليك أكثر من نفعه له » .

« كفى العبد من الله ناصراً أن يرى عدوّه يعصي الله » .

« إنّ الله عزّ وجلّ يبغض اللعّان السبّاب، الطعّان الفحّاش المتفحّش، السائل الملحف، ويحبّ الحيّي الحليم، العفيف المتعفّف » .

« لو صمتُ النهار لا أفطر، وصلّيت الليل لا أفتر، وأنفقت مالي في سبيل الله عِلقاً عِلقاً، ثمّ لم تكن في قلبي محبّة لأوليائه، ولا بغضة لاعدائه، ما نفعني ذلك شيئاً[2] » .

وكان محمّد ملتزماً لمبادئه أشدّ التزام. فلقد كان دوماً عاملاً للإلفة والوئام. من مظاهر هذه الخصال، أنّ مروان بن الحكم، كان يسبُّ عليّاً في الصلاة، فلمّا عُزل عن ولاية المدينة، ووُلّي مكانه سعيد بن العاص، كفّ هذا الأخير عن سبّ عليّ، فجاء من يسأل محمّداً الباقر عن رأيه بمروان وبسعيد، فقال : « كان مروان خيراً لنا في السرّ، وسعيد خيراً لنا في العلانيّة[3] » .

١ ـ د. صابر طعيمة. ص ١٥٨
٢ ـ راجع اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١
٣ ـ إبن الأثير، الكامل، ج٤ ص ١٩٣

إنّنا لم نجد روحاً أكثر دعوة للإلفة في تاريخ الإسلام من هذه الروح. وهو لم ينسَ لعمر بن عبد العزيز مبادرته في ترك سبّ عليّ على المنابر، وإعادته حقوق أبناء عليّ وفاطمة إليهم، ومن أقواله في عمر، بعد مماته: «إنّ لكلّ قوم نجيبة، وإنّ نجيبة بني أميّة عمر بن عبد العزيز، وإنّه يبعث يوم القيامة أمّة وحده[1]».

إلاّ أنّ هذه الصفات لم تمنع من حصول بعض الخروج على إمامة الإمام الخامس للشيعة المستقيمي الرأي، ولقد كان لكلّ حالة أسبابها وأهدافها. علماً بأنّ إمامة محمّد الباقر ابن زين العابدين عليّ قد دامت حتّى سنة ١١٤ هـ. / ٧٣٢ م. تاريخ وفاته ودفنه إلى جانب أبيه: عليّ، بمقبرة البقيع[2].

عرف عهد إمامة محمّد الباقر ابن زين العابدين بن عليّ، استقراراً وهدوءاً في المسار الشيعيّ. على أنّه يُنسب إلى الإمام الباقر، قوله: «التقيّة ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقيّة له[3]»، لكنّ هذا القول يفتقر الى الدّلالة الموثوقة، علماً بأنّ التقيّة، تعني عند الشيعة أن تقول وتفعل غير ما تعتقد لترفع الضرر عن نفسك أو مالك أو لتحتفظ بكرامتك. أمّا التقيّة عند الغلاة فمعدودة من أصل الدين، ومَن تركها منهم كان بمنزلة من ترك الصلاة، وهي عندهم واجبَة لا يجوز رفعها حتّى يخرج القائم. فمن تركها فقد خرج عن دين اللّه وعن دين الإمامة، ويستدلّون على هذا الأصل عندهم بالآية: «إلاّ أن تتّقوا منهم تُقاة[4]». غير أنّ الإمام أبا جعفر محمّداً الباقر، لم يكن من الغلاة، وهو إمام الشيعة المستقيمي الرأي، وبذلك يصبح ما نُسب إليه من قول بأن «لا إيمان لمن لا تقيّة له» أمراً مشكوكاً بصحّته.

وفي عهد إمامة محمّد الباقر (حوالى ٩٥ هـ / ٧١٣ م - ١١٤ هـ / ٧٣٢ م)

---

١ - إبن الأثير الكامل، ج ٥ ص ٦٢

٢ - المسعودي، مروج الذهب، (طبعة مصر ١٩٦٤) ج ٣ ص ٢٣٢؛ قابل: إبن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ١٨٠؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٢٠

٣ - راجع د. صابر طعيمة، ص ٨٦

٤ - سورة آل عمران، ٢٨

كانت نهاية خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ / ٧١٧ م - ١٠١ هـ. ٧٢٠ م) وكان كامل عهد يزيد الثاني، الخليفة الأمويّ التاسع، الذي توفّي سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م. وخلفه أخوه هشام. وقد خلف الباقر في إمامة الشّيعة ابنه جعفر الصادق.

***

«إنّ على كلّ حقّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً،

فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فدعوه»

جعفر الصادق

جعفر الصادق بن محمّد الباقر

تميّزت الحقبة التي كان فيها الإمام السادس للشيعة، جعفر الصادق (إمامته حوالى ١١٤ هـ / ٧٣٢ م - ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م). بالأحداث الجسام. ففي هذه الحقبة، ظهر بعض الفرق الشيعيّة الخارجة عن الخطّ الشيعيّ القويم. وفيها، كان الحدث الكبير: نهاية عهد الخلافة الأمويّة على يد العبّاسيين والشيعة، وانتقال مركز الخلافة من دمشق معاوية، إلى كوفة عليّ.

تسنّم جعفر الصادق ابن محمّد الباقر بن زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب سدّة الإمامة إثر موت أبيه، وكان جعفر في حوالى الرابعة والثلاثين من عمره. فكانت مدرسته امتداداً لمدرسة أبيه الباقر، وحقّقت نجاحاً كبيراً في نشر الثقافة الإسلاميّة، وبلغ عدد المنتسبين إليها، في المدينة، أربعة آلاف من كافّة الأقطار الإسلاميّة، وكان لها فرع كبير في الكوفة. ومن أعظم إنجازات الصادق دعوته إلى التأليف والتدوين، وكان ذلك قبلَه نادر الحدوث. وقد بلغ ما ألّفه تلاميذه نحو أربعمائة كتاب لأربعمائة مؤلّف، منها مؤلّفات في التنجيم والكيمياء[1] وسواها من العلوم.

---

١ - راجع: إبن النديم، الفهرست، (دار المعرفة - بيروت) ص ٤٩٩؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، نشر فلوغل (ليبزغ ١٨٣٧) ج ٢ ص ٥٨١، ٦٠٤.

بيدَ أنّ هذا التوجّه العقلانيّ ـ الديني ـ الحضاريّ المسالم، الذي قاده جعفر الصادق، والذي جعل منه إماماً علاّمة تنتسب إلى اسمه أكثريّة الشيعة: الجعفريّة، لم يكن الأبرز على منبر الأحداث الإسلاميّة في عهد إمامته، إذ ظهرت فيه الفرق، وحدثت الانقلابات السياسيّة والحروب السلطويّة والانتقاميّة المريرة. ممّا يفرض على تسلسل البحث ذكر أبرز ما يعنيه من تلك الأحداث، على أن يكون عود لسيرة الصادق في الفصل التالي.

المغــيــرة والمغــيــريّة

في سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م.، برز داعية في الكوفة اسمه المغيرة بن سعيد، قال بالتجسيم، وصوّر «الله على صورة رجل على رأسه تاج، أعضاؤه على عدد حروف الهجاء، ويقول ما لا ينطق به لسان... لمّا أراد أن يُخلق، تكلّم باسمه الأعظم فطار فوقع على تاجه، ثمّ كتب بإصبعه على كفّه أعمال عباده من المعاصي والطاعات، فلمّا رأى المعاصي أرفضَّ عرقاً، فاجتمع من عرَقه بحران، أحدهما ملح مظلم والآخر عذب نيّر، ثمّ اطّلع في البحر فرأى ظلّه فذهب ليأخذه فطار فأدركه فقلع عينيْ ذلك الظلّ ومحقه، فخلق من عينيه الشمس وسماء أخرى، وخلق من البحر المالح الكفّار، ومن البحر العذب المؤمنين». وقال المغيرة بن سعيد «بألوهيّة عليّ، وبتكفير أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلاّ مَن ثبت مع عليّ» وقال بأنّ «الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع» و«بتحريم ماء الفرات وكلّ نهر أو عين أو بئر وقعت فيها نجاسة». وكان «يخرج إلى المقبرة فيتكلّم فيُرى مثل الجراد على القبور». وكان الناس يسمّون المغيرة بن سعيد: ساحراً. وهو القائل: «لو أردت أن أحيي عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً لفعلت».

كان المغيرة هذا قد جاء الإمام الباقر، وقال له: «أقرر أنّك تعلم الغيب حتّى أجبي لك العراق». غير أنّ الإمام نهَرَه وطرده، مثلما فعل زين العابدين مع المختار يوماً. ولمّا مات الباقر، وتسنّم سدّة الإمامة ابنه جعفر الصادق، جاءه المغيرة،

وعرض عليه ما عرضه على أبيه، فاكتفى الصادق بالقول: «أعوذ بالله[١]». أمام هذا الواقع، إدّعى المغيرة بعد موت محمّد الباقر بأنّ هذا الإمام قد أوصى له بالإمامة حتّى خروج المهديّ «النفس الزكيّة» وهو لقب محمّد بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب[٢]. وكانت فرقة المغيرة التي عُرفت بالمغيريّة الفرقة الوحيدة بين غلاة الشيعة التي قالت بإمامة «النفس الزكيّة[٣]».

ولمّا استشرى أمر المغيرة، وبدأ يجمع الأتباع، أمر والي الكوفة خالد بن عبد الله القسريّ[٤] بالقبض عليه وعلى الذين خرجوا معه في بثّ الدعوة البدعة، وأحرقهم في جامع الكوفة أمام الناس، ليكونوا عبرة لمن اعتبر[٥].

وممّا جاء في المدوّنات، أنّ المغيرة بن سعيد، كان أوّل الذين لعنهم الإمام جعفر الصادق لكذبهم عليه. وقد قيل في المغيرة أنّه كان من موالي خالد بن عبد الله القسريّ الذي قتله. ومن الثابت أنّ بياناً، الذي تنتسب إليه الفرقة البيانيّة ـ الكيسانيّة[٦]، كان بين الذين أحرقهم خالد مع المغيرة، وكان عددهم ستّة أو سبعة أنفار.

وقد اعتبر المؤرّخون المغيريّة، فرعاً من الفرقة الجناحيّة ذات الأصل

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩
٢ ـ محمّد بن عبد الله (إبن الحسن بن الحسين بن عليّ) (٩٣ ـ ١٤٥ هـ / ٧١٢ ـ ٧٦٢ م). لُقّب بالنفس الزكيّة، بايعه الهاشميّون يوم كانوا يعدّون للثورة على الأمويين، قبل أن يؤول الأمر إلى العبّاسيين. ثار على المنصور في المدينة فأيّده أحفاد الصحابة والتابعين وجمهور النسّاك والقرّاء كما أيده الفقهاء والأئمّة، تغلّب عليه جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى وقُتل في الحرب.
٣ ـ راجع د. صابر طعيمة، ص ١٨٩ ـ ١٩٠
٤ ـ خالد بن عبد الله القسري (ت ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م). أمير من قبيلة بجيلة. وُلّي مكّة في عهد الوليد (٧٠٩ م) ثمّ ولاه هشام بن عبد الملك العراق سنة ٧٢٤. أشتهر بحزمه وانصرف إلى الاصلاحات الاقتصاديّة، فشجّع الزراعة وجفّف المستنقعات ووطّد السلام. شيّد كنيسة في الكوفة وأظهر تسامحاً كبيراً. عزله هشام وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي الذي سجنه وقتله ـ المنجد ـ وقيل أنّ أمّه كانت مسيحيّة؛ راجع اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٢٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٢٢٣
٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٢٠٨
٦ ـ راجع المرجع السابق.

الكيسانيّ، وقد استمرّت المغيريّة بعد المغيرة. وقد اختلف اتباع هذه الفرقة فيما بعد بشأن الإمامة، فمنهم من قال بإمامة عبد الله بن المغيرة بن سعيد، ومنهم من قال برجعة المغيرة واستمرّ على مقالته. وأهمّ ما قالت به المغيريّة، قبل موت المغيرة وبعده، إضافة إلى تجسيم الذات الإلهيّة، إدّعاء نبوّة المغيرة. وآمنوا بقدرة النجوم وتأثيرها، وبالتالي بالقدرة على إحياء الاموات بالسحر. وقالوا بالتأويل الباطنيّ وبالتناسخ[1].

***

« ... إنّما ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، والى السنن أن تُحيا، والى البدع أنّ تُطفأ، فإنْ أجبتمونا سعدتم، وإنْ أبيتم فلست عليكم بوكيل ».

زيد بن عليّ

زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، والزيدية، والرافضة

قبل أنّ يمرّ سنتان على نهاية المغيرة بن سعيد، بدأت أحداث من نوع آخر، بظهور زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب سنة ١٢١ هـ / ٧٣٨ م.، وقد اختلف المؤرّخون في تحديد الأسباب التي دعت إلى اختلاف زيد مع الخليفة هشام بن عبد الملك[2]. والثابت أنّ زيداً، كان له من العمر إحدى وأربعون سنة،

١ - راجع: د. صابر طعيمة. ص ١٨٩ - ١٩٢

٢ - هشام بن عبد الملك (٧١ - ١٢٥ هـ / ٦٩٠ - ٧٤٣ م): الخليفة الأموي العاشر (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م). أخو يزيد الثاني وخلفه. في عهده بلغت الامبراطوريّة الاسلاميّة أقصى اتّساعها. حارب البيزنطيين واستولت جيوشه على ناربونه سنة ٧٢٠ م. وبلغت أبواب پواتييه (فرنسة) حيث وقعت معركة « بلاط الشهداء » سنة ٧٣٢ م. بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل. وقد وُصِم هشام بالبخل.

عندما بايعه أهل الكوفة للثّورة. وقد جعل زيد لثورته منهاجاً، ضمّنه عهد المبايعة الذي جاء فيه:

« إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، صلّى الله عليه وسلّم، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، وردّ المظالم، ونصر أهل البيت[1] ».

على هذا العهد، بايع زيداً من أهل الكوفة أربعون ألفاً، وأقسموا على « عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله (صلعم) بأن يفوا ببيعته، ويقاتلوا عدوّه، وينصحوه في السرّ والعلنيّ[2] ».

حاول أقرباء زيد ثنيه عن قراره القاضي بالثورة على الحكم الأمويّ، بالنظر الى خبرة أهل البيت المرّة مع أهل الكوفة. وكان أوّل من نصح زيداً بعدم الخروج، محمّد بن عمر بن عليّ بي أبي طالب، الذي نصحه بألاّ يأتي الكوفة، « لأنّهم لا يفون له ». ثم سَلَمة بن كهيل، الذي ذكره بأنّ ثمانين ألفاً من أهل الكوفة بايعوا جدّه الحسين، ولم يبقَ معه سوى ثلاثماية، ونصحه بألاّ يأمل في أن يفي له « هؤلاء وقد غدر أولئك بجدّه ». كذلك فعل عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي كتب إلى زيد يقول: « ... إنّ أهل الكوفة تقدّمهم ألسنتهم ولا تشايعهم قلوبهم »، وأخبره أنّهم كانوا قد راسلوه يدعونه إلى الخروج، قبله، إلاّ أنّه « صمّ عن ندائهم... يأساً منهم »، وما لهم مثل إلاّ قول عليّ بن أبي طالب: « إن أهملتم خضتم، وإن حوربتم خُرتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أحببتم إلى مشاقّة نكصتم[3] ».

وقد ذكر بعض المدوّنات أن زيداً كان قد شاور أخاه أبا جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ، قبل وفاة هذا الأخير، في موضوع الثورة، إلاّ أنّ أبا جعفر أشار

١ - إبن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٢٣٣

٢ - المرجع السابق.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٣٣ و ٢٣٥

عليه «بألاّ يركن إلى أهل الكوفة» وقال له: «إنّي أخاف عليك يا أخي أن تكون غداً المصلوب بكناسة الكوفة[1]».

لم يصغ زيد إلى شيء من نصائح أقاربه، بل أقام على حاله والناس يبايعونه، وهو يستعدّ للحرب.

ما أن تأكّد لشيعة الكوفة أنّ زيداً كان جدّياً في أمره، وأنّ الخليفة الأمويّ قد أمر بمواجهته بقوّة، حتّى تنادى جماعة من قادتهم للاجتماع به بقصد إحراجه... فالخروج عنه. قالوا له: «رحمك الله، ما قولك في أبي بكر وعمر؟» - قال: «رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعتُ أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلاّ خيراً، وإنّ أشدّ ما أقول فيما ذكرتم أنّا كنّا أحقّ بسلطان ما ذكرتم من رسول الله، (صلعم)، من الناس أجمعين، فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد ولُوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنّة». - قال جماعة الكوفة: «فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك، فلمَ تدعو إلى قتالهم؟».

أمام هذا السؤال المنبئ عن التراجع والنكوث، أوضح زيد موقفه الذي اتخذه، ليس مطالبة بالولاية من أجل الولاية، بل ثورة من أجل العدالة، فقال:

«إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك. هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسكم. وإنّما ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه (صلعم) وإلى السنن أن تُحيا والى البدع أن تُطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل».

واتّضح، بعد هذا الجواب، أنّ من نصحوا زيداً بعدم الركون إلى أهل الكوفة، كانوا على حقّ. فلقد فارقه هؤلاء، ونكثوا بيعته وقالوا: «جعفر إمامنا اليوم». فسمّاهم زيد: الرافضة[2].

ومنذ ذلك اليوم، صار هناك: جعفريّة وزيديّة ورافضة.

١ - المسعودي، مروج الذهب، (طبعة القاهرة ١٩٦٤) ج ٣ ص ٢١٧

٢ - ابن الأثير، الكامل، ص ٢٤٢ - ٢٤٣

وفي اليوم التالي، بدأ القتال بحسب الموعد المضروب. بيدَ أنّ عدد الذين وفوا بمبايعتهم وعهدهم لزيد، لم يكن أربعين ألفاً، بل ثلاثمائة. وبينما كان ينهزم مع العدد القليل الوفيّ نحو «الكناسة» كان يقول: «ما أخلفكم؟! لقد فعلتموها، الله حسيبكم، ... قد فعلوها حسينيّة». ولم تنفع نداءات زيد وأصحابه الأوفياء لأهل الكوفة: «... أخرجوا من الذلّ إلى العزّ... أخرجوا إلى الدين والدنيا فإنّكم لستم في دين ولا دنيا...»

وبعد قتال شجاع مرير، أُصيب زيد بسهم في رأسه، ولمّا مات، تشاور أصحابه في إخفاء جثّته، فمنهم من قال: نطرحه في الماء، ومنهم من اقترح قطع رأسه وإلقاء جثّته بين القتلى، إلاّ أنّ ابنه يحيى رفض ذلك وقال: «والله لا تأكل الكلاب لحم أبي». فدفنوه في ساقية ماء، في «الحفرة التي يؤخذ منها الطين وجعلوا عليه الماء».

لم تمضِ ساعات حتّى جاء من يدلّ جنود الأمويّين على الموضع الذي دفن فيه زيد، فاستخرجوه وبعثوا برأسه إلى هشام الذي كتب إلى والي الكوفة بأن يصلب جثّته عارية. وهكذا صُلب، وبقي مصلوباً خمسين شهراً، إلى أن كان عهد الوليد ابن يزيد بن عبد الملك، الذي أمر بإحراقه مع الخشبة التي صلب عليها[1]. وغاب زيد، وبقيتِ الزيديّة، التي سوف تتشعب، فيما بعد، إلى أكثر من ثماني فرق.

ويوم قُتل زيد، سار ابنه يحيى نحو كربلاء، فنزل بنينوى، عند أحد الأتباع، ومنها انتقل إلى خراسان، حيث تحرّك الشيعة، نقمة على جور الأمويّين. ولمّا استشرت الأمور، تمكّن الوالي الأمويّ من القبض على يحيى بن زيد، فأودع السجن، حتّى مات هشام، وخلفه الوليد بن يزيد، الذي أمر بإخلاء سبيل يحيى في محاولة لاستيعاب نقمة الشيعة. فانتقل يحيى إلى بيهق من أعمال أبرشهر،

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، (القاهرة) ج ٣ ص ٢٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٢٤٢ - ٢٤٦؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٢٦

وهناك اجتمع إليه قوم من الشيعة، وحرّضوه على القتال. فكانت أولى أعماله: شنّ هجوم مع أعوانه الذين لم يزد عددهم على المائة وعشرين نفراً، على عامل نيسابور، عمرو بن زرارة القريّ، فقتلوه وأخذوا أسلحة شرطته. غير أنّ يحيى قد قُتل في المعركة التالية، بالجوزجان[1]، فاحتُزّ رأسه وحُمل إلى الوليد، وصُلبت جثّته مثلما صُلبت جثّة أبيه، وبقيت مصلوبة حتّى نهاية الدولة الأمويّة، إذ أنزل الشيعة جثّة يحيى، ودفنوها بالجوزجان. وأظهر أهل خراسان النياحة على يحيى بن زيد سبعة أيام، في سائر مقاطعاتها، ولم يولد في تلك السنة مولود بخراسان، إلاّ وسُمّي يحيى أو زيداً[2]، وقد كان ذلك في نهاية سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م. ولن يمضي أكثر من عشر سنوات، حتّى يكون للزيديّة دور جديد على صعيد المسار الشيعي، سوف يزيد في الانقسام الإسلاميّ، وهذه المرّة في الأسرة العلويّة بالذات. وسوف يكون في الفصل التالي، متابعة لتطوّر الزيديّة وفرقها اللاحقة.

***

بالإمكان اعتبار هذه الحقبة من التاريخ، نهاية زمن هدأة الشيعة التي سادتهم بعد كربلاء، حتّى لاحت بوادر الانتقام الرّهيب لكلّ ما لحقهم من الأمويّين. إلاّ أنّ ذلك الانتقام، لن يغيّر في مسار المعاناة المريرة التي قُدّر للشيعة أن يعيشوا فيها، طوال عهود متتالية من خيبات الأمل...

---

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٣٢

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، (القاهرة) ج ٣ ص ٢٢٥

الفصل السادس

انتقام ... وخيبة

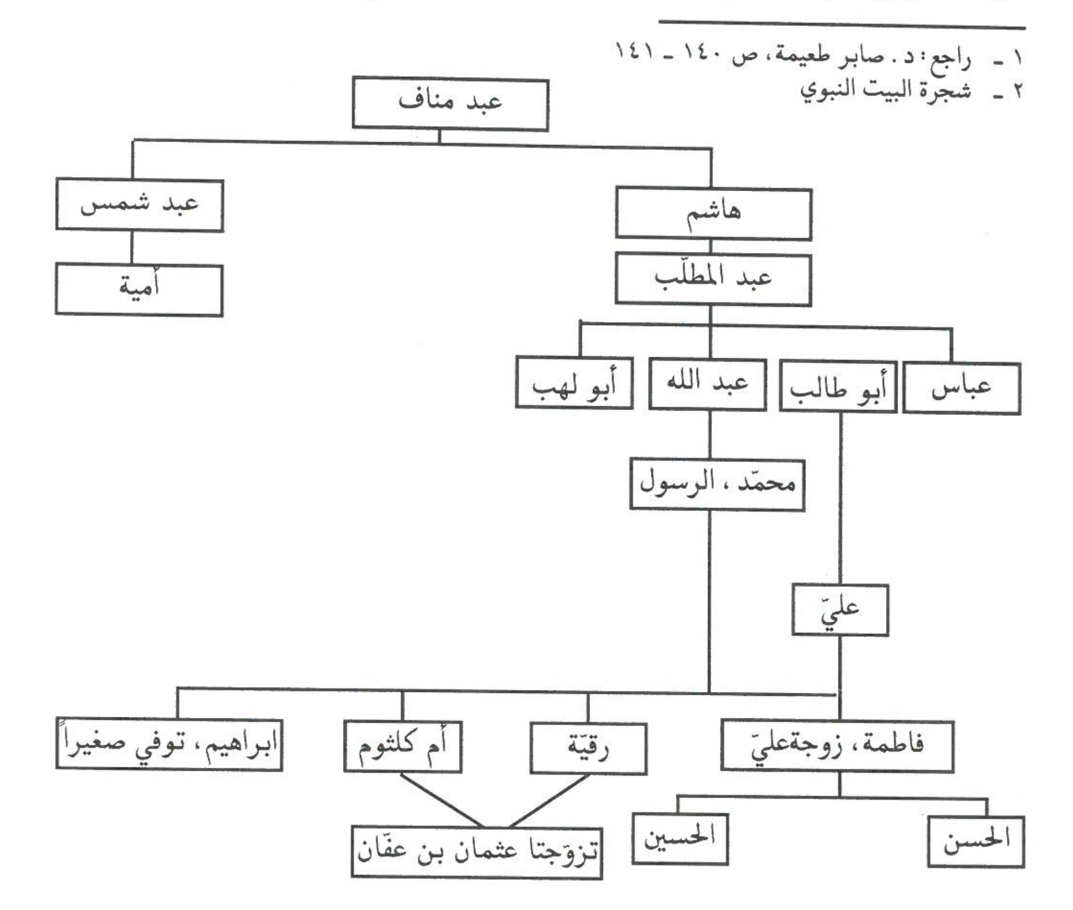
- الانتقام من الأمويّين
- شيعة بني العبّاس
- الخيبة الشيعيّة
- مأساة آل الحسن
- من جعفر الصادق إلى موسى الكاظم

لم يكن موضوع إنهاء العهد الأمويّ بعيداً عن الإمامة الشيعيَّة يوم كان جعفر الصادق، إمامها. ذلك أنّه لمّا وصل الخبر إليه عن مقتل عمّه زيد وابنه يحيى، لم يفاجأ، لأنّه كان يتوقّع كلّ ذلك، فقال: «إنّ بني أميّة يتطاولون على الناس حتّى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها، وهم يستترون بفضل أهل البيت...» وقال الإمام الصادق، منبّهاً، وواعداً... «... ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتّى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم[1] ».

لقد كان زوال ملك بني أميّة هدفاً لأكثر من فريق من الأسر المتحدِّرة من البيت النبويّ[2]، إضافة إلى العديد من وجهاء المناطق في الأمبراطوريّة الإسلاميّة،

---

١ ـ راجع: د. صابر طعيمة، ص ١٤٠ ـ ١٤١
٢ ـ شجرة البيت النبوي



وإلى عامّة الشعب، خاصّة في العراق وفارس. بيدَ أنّ السيطرة الأمويّة على المقدّرات، التي جعلت المال والرّجال بين أيديهم، بفضل حنكة جدّهم معاوية ودهائه وعبقريّته، قد مكّنت هذه الأسرة من الاستمرار في الحكم، ومن إهلاك كلّ من سوّلت له نفسه الطموح بمركز الخلافة، حتّى ولو كان الطامح ابن عمّ الرسول وصهره، حتّى ولو كان حفيده.

وإذا كان القضاء على عليّ، وإبنيه الحسن والحسين، قد أزاح أهمّ من كانوا يشكّلون خطراً على الخلافة الأمويّة، إلا أنّ ذلك لم يُزل الخطر تماماً. فلقد بقيَ هنالك من سوف ينشأون، ليس من بني أبي طالب فحسب، بل ومن بني العبّاس أيضاً. وبينما كان موضوع الخلافة بادياً وكأنّه مستتب للأمويّين، كانت الأيام تسجّل بمرورها عدّاً عكسيّاً، إيذاناً بنهاية دولتهم، فالخصوم قد تعدّدوا، وما كان يلزم سوى تحالف، ولو مرحليّ، بين هؤلاء، واتفاق على شخصيّة ليبايَع لها بالخلافة على أنقاض الدولة الأمويّة حين تنقضّ عليها المعارضة.

وكان الأمويّون مدركين دوماً لهذا الخطر، وهذا ما جعلهم يحاولون استئصال بني أبي طالب، ويضربون كلّ من يحاول البروز منهم بيد من حديد، ويُبقون عيونهم مفتوحة على أيّ تحرّك قد يقدم عليه أيٌّ من بني عبّاس.

ولّما اتخذ بنو الحسين بن عليّ، طريق الإمامة الهادئة المكتفية بأمور الدين، بعيداً عن الطموح بالخلافة، سائرين على الطريق الذي رسمه زين العابدين عليّ ابن الحسين، بقيت عين الأمويّين مفتوحة على الباقين: أبناء الحسن وأبناء محمّد ابن الحنفيّة من بني طالب، إضافة إلى بني عبّاس. وتظهر هذه اليقظة الحذرة عند الأمويّين، بعد تخلّصهم من الحسين، ومن التوّابين، ومن الكيسانيّة، ومن عبد الله إبن عمّة النبيّ الصحابيّ الزبَير بن العوام، تظهر واضحة جليّة في بعض المدوّنات. لكنّ هذه اليقظة لن تستطيع أن تحول دون اقتراب الخطر على الأمويّين، بل سوف تزيد منه، لأنّ تدابيرهم القاسية والمتعنّتة أحياناً، سوف تكون من نوع المصيبة

التي تجمع. ومن ضمن هذا الإطار، كانت بداية الدعوة العبّاسيّة، التي ستقوّض أركان الدولة الأمويّة في الشرق إلى الأبد.

ففي عهد الخليفة الأمويّ السابع: سليمان بن عبد الملك (خلافته ٩٦ هـ / ٧١٥ م. - ٩٩ هـ / ٧١٧م.) جاء عبد الله بن محمّد ابن الحنفيّة الملقّب بأبي هاشم دمشق، قاصداً الخليفة، الذي استقبله «وأكرمه وقضى حوائجه، إلاّ أنّ الخليفة قد خاف حفيد عليّ من ابن الحنفيّة، لِما رأى من علمه وفصاحته، فوضع عليه مَن وقف على طريقه ودسّ له السمّ في اللّبن».

في هذه الأثناء، كان محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، ينزل أرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام، فلَمّا شعر عبد الله بالتوعُك جرّاء تناوله السمّ، سارع إلى قريبه ابن العبّاس، فنزل عليه، وأوصى شيعته بالالتحاق بالعبّاسي بعد وفاته.

ومات الخليفة المسمِّم سليمان، ومات القريب المسمَّم أبو هاشم عبد الله بن محمّد إبن الحنفيّة، وخلف الخليفةُ الراحل الخليفةَ الأمويّ الثامن: عمر بن عبد العزيز بن مروان (خلافته ٩٩ هـ / ٧١٧ م. - ١٠١ هـ / ٧٢٠ م.) والتحق مشايعو حفيد عليّ ابن الحنفيّة، بمحمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، وبايعوه، وراحوا يدعون الناس إليه، والناس يتجاوبون. وراح العبّاسيّ يوجّه الدعاة إلى العراق وخراسان، حيث كانوا يلاقون التجاوب السريع مع دعوتهم لابن العبّاس[١].

إستمرّت دعوة محمّد بن عليّ العبّاسيّ طوال مدّة ولاية عمر، وخليفته يزيد ابن عبد الملك (خلافته ١٠١ هـ / ٧٢٠ م. - ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م.).

ولّما وُلد لمحمّد سنة ١٠٤ هـ / ٧٢٣ م. الطفل الذي سمّاه أبا العبّاس عبد الله، دعا محمّد أتباعه في خراسان، وعرض أمامهم الصبيّ في أقمطته وهو ابن

---

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٥٣ - ٥٤

خمسة عشر يوماً وقال لهم: «هذا صاحبكم الذي يتمّ الأمر على يده». وإذ قبّل شيعة خراسان يد الطفل، قال أبوه الثائر لهم: «والله ليُتمّنّ الله الأمر حتّى تدركوا ثأركم من عدوّكم».

وعندما كان الخليفة الأمويّ العاشر هشام بن عبد الملك (خلافته ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م. ـ ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م.) بعد موت أخيه يزيد، يتلقى التهاني بتسنّم سدّة الخلافة، كان أنصار العبّاسيّ يزدادون عدداً، وكان أمرهم قد عظم في خراسان والكوفة. وبعد سنتين، بدأ أتباع العبّاسيّ في خراسان يتعرّضون للملاحقة والعقاب من قبَل الحكمْ الأمويّ، الذي صَلب بعضهم بعد قطع أيديهم، وعندما وصل الخبر بذلك إلى محمّد بن عليّ العبّاسيّ قال: «الحمد لله الذي صدّق دعوتكم ومقالتكم وقد بقيتْ منكم قتلى ستُقتل». وقد صدق، إذ بعد سنتين قتل الحكّام الأمويّون عشرات من الشيعة الكوفيّين الذين كانوا يبثّون الدعوة للعبّاسيّ في خراسان، ويذكرون سيرة بني أميّة، ويُطعمون الناس المعوزين، ويهيّئونهم للانقضاض على الحكم الأمويّ عندما يدقّ النفير.

غير أنّه في العام ١١٨ هـ / ٧٤٠ م. حدث في خراسان ما لم يكن في الحسبان، إذ كان المفوّض على شيعة بني العبّاس هناك، عمّار بن يزيد، قد نزل مرو، وغيّر اسمه وتسمّى بـ «خِداش». وبعد أن تجاوب معه الناس بدعوته إلى محمّد بن عليّ العبّاسيّ، غيّر هو ما كان دعاهم إليه، وطلع ببدعة دينيّة، هي بدعة «الخرميّة»، وبموجبها «رخّص لبعضهم بنساء بعض، وقال لهم: إنّه لا صوم ولا صلاة ولا حجّ، وإنّ تأويل الصوم أن يصام عن ذكر الإمام فلا يُباح باسمه، والصلاة الدعاءُ له، والحجّ القصد إليه». وكان يتأوّل من القرآن: «ليسَ على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات جُناحٌ فيما طَعِموا إذا ما اتّقوا وآمنوا وعملوا الصالحات[1]».

١ ـ الآية ـ ٥ : ٩٣

وإذ قام العامل الأمويّ بخراسان بقطع لسان هذا الذي ادّعى ما ادّعاه باسم العبّاسيّ، ومن ثمّ بقتله، لاقى محمّد بن عليّ العبّاسيّ فيما بعد صعوبة ملحوظة في ردّ أولئك الذين تبعوه عن ضلالهم.

وبموت هشام بن عبد الملك، وقد دامت ولايته تسعة عشر عاماً، وإذ خلفه ابن أخيه عبد الملك: الوليد، وهو الخليفة الأمويّ الحادي عشر (خلافته ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ـ ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م.). حدث الانقلاب بالفعل على هذا الخليفة الذي لم يحكم أكثر من سنة وثلاثة أشهر، ولكنّ الانقلاب جاء على أيدي الأمويّين أنفسهم، الذين ثاروا على فسق الوليد ومجونه وعربدته وسكره، فقاد الثورة إبن عمّه يزيد بن الوليد[1]، الذي تسنّم سدّة الخلافة بعد قتل الوليد، فلم يملك سوى أشهر قليلة إذ توفّي بالطاعون بعد أن أوصى بالبيعة لأخيه إبراهيم، بينما كان مروان بن محمّد يتهيّأ للانقضاض على العرش انتقاماً لقتل الوليد. ولمّا مات يزيد ابن الوليد، إنقضّ مروان على إبراهيم وانتزع منه الخلافة (١٢٧ هـ / ٧٤٤ م.)[2] فكان الخليفة الأمويّ الأخير، الذي منه سوف تنتقل الخلافة إلى العبّاسيّين، بعد أن ينتقم الشيعة، في نهاية عهده، من الأمويّين ذلك الانتقام الرهيب.

في هذه الأثناء، دبّت الحروب والفوضى في المملكة الأمويّة، إذ تعاظم الصراع الأمويّ ـ الأمويّ من جهة، واستشرت الحرب القبليّة بين النزارية (عرب شماليّ الجزيرة العربيّة) واليمنيّة (عرب الجنوب)، وظهر تمرّد الولاة في أنحاء المملكة. وكان الهاشميّون يزكّون تلك العداوات بمختلف الوسائل[3].

١ ـ يزيد بن الوليد: الخليفة الأموي الثاني عشر (خليفة ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م) عُرف بالنّاقص لأنّه أنقص أعطيات الجند، لم يملك إلاّ أشهراً قليلة.
٢ ـ المرجع في تسلسل الخلافات على الشكل الوارد اختصاراً: ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٩، ١١، ٣٧، ٣٨، ٥٨، ٦٧، ١٢٠، ١٢٣، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٨٠، ٢٩١، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣٢٣؛ اليعقوبي، الجزء الثاني، ٢٦٩، ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٠١، ٣١٠، ٣١٦، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨؛ المسعودي، مروج الذهب، (طبعة مصر) ج ٣، ص ١٨٣، ١٩٢، ٢٠٦، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٩؛ السيوطي، ص ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤.
٣ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥.

قبل أن تؤول الخلافة إلى مروان، كان الداعية العبّاسيّ الأوّل محمّد بن عليّ ابن عبد الله بن عبّاس، قد توفّي سنة وفاة الخليفة هشام (١٢٥ هـ / ٧٤٣ م.) بعد أن أوصى أتباعه بالانقياد لولده إبراهيم[١]، الذي لُقّب بالإمام. وبذلك انتقلت الدعوة العبّاسية من يد محمّد إلى يد ولده إبراهيم[٢]. الذي عمّم على الأتباع أمر الوصيّة، فقبلوه، و «دفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة[٣]» وهو في مكّة. ومن مكّة راح يدير النشاط السريّ في خراسان، الهادف إلى مآل الخلافة لبني العبّاس.

كان عامل إبراهيم الإمام في خراسان، قائداً كبيراً، هو أبو مسلم الخراساني، الذي تزعّم الحركة الشيعيّة ـ العبّاسيّة هناك. وقد اتّخذ اللون الأسود، حداداً على أهل البيت من عليّ وأبنائه، شعاراً لحركته. ولم تكد تبدأ سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م. حتى كانت الراية السوداء ترفرف على مدينة مرو الخراسانيّة، وقد تمكّن أبو مسلم من السيطرة عليها بمعاونة الشيعة، دون أن يتمكّن العامل الأمويّ من الوقوف بوجه الثورة. وكانت البيعة:

«أبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتّى يبتدئكم به ولاتكم[٤]».

لقد كانت هذه البيعة، التي تضمّنت «الطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله» حلماً شيعيّاً تحقّق، وباعثاً بالتالي الحماس في نفوس الشيعة لبذل كلّ غال

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٢٧٥ ؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٢١

٢ ـ أخبار الدعوة العبّاسيّة في عهد محمّد بن عليّ: ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٥٣، ١٠٠، ١١٤، ١٢٥، ١٣٦، ١٤٣، ١٩٦، ٢١٨ ؛ المسعودي، مروج الذهب (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٢٣٩ ؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٣٠٨

٤ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٣٨٠

ونفيس في سبيل نصرة الراية السوداء: راية بني العبّاس. ولاذ والي الأمويّين، نصر ابن سيّار، بالفرار، بعد أن يئس من وصول النجدة التي طلبها من الخليفة مروان، الذي كان منشغلاً بما كان يجري ببلاد الشام من اضطرابات إثر حركة العصيان اليمنيّة في فلسطين وحمص، وبالعراق حيث كان الخوارج قد ثاروا من جديد[١].

بعد سيطرة العامل العبّاسيّ على مرو، إتّسعت هذه السيطرة على نهاوند، وغيرها من المدن الفارسيّة، فأصبحت الطريق إلى الكوفة شبه مكشوفة. وبسقوط الكوفة في ١٣٢ هـ /٧٤٩ م. كان قد مرّ على بداية الدعوة العبّاسية والعمل، في البداية سرّاً بخراسان، ومن ثمّ ظهوراً إلى العلن، سبع وعشرون سنة، وقد بدأها محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، وكان قد صار عمر ذلك الصبيّ الذي وُلد له سنة ١٠٤ هـ / ٧٢٣ م. وسمّاه أبا العبّاس عبد الله، خمساً وعشرين سنة. وإذ كان أخوه، إبراهيم الإمام، قد مات قبل وقت قصير[٢]، فقد آلت القيادة إلى عبد الله أبي العبّاس. وفي شهر ربيع الأوّل ١٣٢ هـ / تشرين الأوّل (أوكتوبر) ٧٤٩م. بويع له بالخلافة في مسجد الكوفة الكبير[٣]، حيث ألقى عبد الله أبو العبّاس خطبته الأولى التي ختمها بقوله: « ... أنا السفّاح المبيح[٤]». ومنذ ذلك التاريخ أصبح الخليفة العبّاسيّ الأوّل يعرف بـ «السفّاح».

أمام هذا النصر الخطير الذي وضع الخلافة الأمويّة على مشارف النهاية، عزم الخليفة الأمويّ مروان على مواجهة القدر، فسار على رأس جيش ينوف عدده على

١ ـ الطبري، ٢: ١٩٥٣ وما يليها، ٢ : ١٩٤٣ ـ ١٩٤٩.

٢ ـ اختلف المؤرّخون في سبب موت إبراهيم الإمام: راجع إبن الإثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٢٢؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٤٢: المسعودي، مروج الذهب (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤٩ ـ ٣٦٣؛ الطبري، ج ٣، ص ٢٧ ـ ٣٣؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٠٨ ـ ٤١٧

٤ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤١٣

العشرة آلاف جنديّ نحو العراق، حتّى بلغ الزّاب الأعلى[1]، حيث التقى القوى العبّاسيّة بقيادة عمّ السفّاح: عبد الله بن عليّ، ودارت رحى معركة طاحنة استمرّت تسعة أيّام، ما كان أحدٌ يشكُّ بخلالها بأمر النتيجة الموثوقة: نهاية الدولة الأمويّة. فلقد كان عدد الذين قُتلوا من عسكر مروان غرقاً في النهر، وهم ينهزمون، أكبر من عدد الذين قُتلوا منهم في المعارك. وانهزم مروان إلى عاصمته، بينما راحت المدن السوريّة تفتح أبوابها تباعاً للخراسانيّين والعراقيّين المقاتلين تحت راية العبّاسيّين بقيادة عبد الله. وحدها مدينة دمشق حاولت المقاومة، ولكنّها سقطت بعد أيّام قليلة من الحصار، ففرّ مروان إلى فلسطين، حيث تبعته فصيلة عبّاسيّة، فانتقل إلى مصر، وهناك أدركوه وقتلوه في نطاق كنيسة ببوصير في أواخر شهر ذي الحجّة سنة ١٣٢ هـ / آب (أغسطس) ٧٥٠ م[2].

وإذا كان قتل الخليفة الأمويّ، بعد أن عمّت الراية السوداء أقطار البلاد الإسلاميّة، وانتزاع شارات الخلافة منه، وإرسالها إلى السفّاح مع رأس مروان المقطوع، قد حسم موضوع الخلافة، فإنّ ذلك لم يكن حاسماً بالنسبة لأمرين آخرين: خطر الردّة الأمويّة، وأمر انتقام الشيعة المكبوتين منذ ما يقارب القرن. لذلك كان لا بدّ من الانقضاض على الأسرة الأمويّة بهدف تصفيتها نهائيّاً.

قد يكون أفضل من عبّر عن هذا الواقع يومذاك، ذلك الشاعر الحجازيّ من أهل مكّة، المتعصّب لبني هاشم، واسمه سُدَيف، وقد دخل على السفّاح بعد مقتل مروان، وكان عند السفّاح سليمان بن هاشم بن عبد الملك الأموي، قد جاء يطلب العفو، وقد أكرمه السفّاح. فقال سُدَيف:

---

١ ـ الزاب الأعلى أو الزاب الكبير: نهر في العراق ينبع من تركية. من روافد دجلة يصبّ فيه عند المخلط قرب الموصل. وهو غير الزاب الأسفل أو الزاب الصغير: نهر في العراق من روافد دجلة أيضاً، يصب فيه بالقرب من قلعة جعبر.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٤٦؛ المسعودي، مروج الذهب (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢؛ السيوطي، ص ٢٥٥.

لا يغرّنك ما ترى من الرجالِ ... إنّ تحت الضلوع داءً دويّا
فضعِ السيفَ وارفعِ السوط حتّى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا...

فصاح سليمان (الأمويّ) إذ ذاك موجهاً كلامه للشاعر: «قتلتني يا شيخ[1]». وقد أمر السفّاح فعلاً بقتل سليمان. ولم يكن هذا الوحيد الذي قتله الشيخ.

ففي دمشق، دعا عبد الله حوالى تسعين نفراً من بني أميّة على الطعام. ولمّا اكتمل عقدهم، أمر بهم القائد العبّاسيّ، فضُربوا بالعُمد حتّى قُتلوا، «وبسط عليهم الأنطاع[2]، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتّى ماتوا جميعاً. وأمر عبد الله بنبش قبور بني أميّة بدمشق، فنُبش قبر معاوية بن أبي سفيان، فلم يجدوا فيه إلاّ خيطاً مثل الهباء؛ ونُبش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فوجدوا فيه حطاماً كأنّه الرماد؛ ونُبش قبر عبد الملك بن مروان، فوجدوا جمجمته؛ وكان لا يوجد في القبر إلاّ العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك، فإنّه وجد صحيحاً لم يبل منه إلاّ أرنبة أنفه، فضربه بالسّياط وصلبه وحرّقه وذرّاه في الريح. وتتبّع بني أميّة من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم، ولم يفلت منهم إلاّ الرّضيع، أو من هرب إلى الأندلس، فقتلهم بنهر أبي فطرس... وقتل سليمان بن عليّ بن عبد الله ابن عباس بالبصرة أيضاً جماعة من بني أميّة، ... وجُرّوا بأرجلهم وألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب[3]»...

بهذا، انتقم الشيعة من الأمويّين. إلاّ أنّ هذا الانتقام، من الناحية العمليّة، كان عقيماً، ذلك أنّه لم ينقل الخلافة إلى سلالة عليّ، مثلما كانوا يريدون، إنّما هو نقلها إلى بني العبّاس.

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٢٩.

٢ ـ النطع، جمعها إنطاع ونطوع: بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٢٩ ـ ٤٣١؛ المسعودي، مروج الذهب، (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٢٦١؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٥٥؛ المبرّد، ص ٧٠٧؛ الأغاني، ٤ : ١٦١.

بعض المؤرّخين، نسب فرقة الراونديّة إلى أبي الحسين أحمد بن يحيى ابن الراونديّ، لكنّ هذه النسبة خاطئة، لأنّ الراونديّ هذا قد توفّي سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م. بينما الراونديّة ظهرت قبل مولد الراونديّ بكثير. وقد تكون الراونديّة منسوبة إلى راوند من أصبهان، وليس إلى داعية معيّن.

فالراونديّة، هم شيعة أبناء العبّاس ابن عبد المطّلب، من أهل خراسان وجوارها. وقد قالت هذه الفرقة بأنّ «رسول الله قُبض، وأحقّ الناس بالإمامة بعده العبّاس بن عبد المطّلب، لأنّه عمّه ووارثه وعَصَبَته، تبعاً لقوله عزّ وجل: «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله»؛ وإنّ «الناس اغتصبوه حقّه، وظلموه أمره، إلى أن ردّه الله إليهم»، وتبرّأ هؤلاء من أبي بكر وعمر، وأجازوا بيعة عليّ ابن أبي طالب، بإجازة ابن العبّاس له، عندما قال العبّاس لعليّ بن أبي طالب عقب انتقال الرسول من هذه الفانية: «يا ابن أخي، هلمّ إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك أثنان[1]».

غير أنّ بعض المحقّقين يرى أنّ الراونديّة قالت بهذا المبدأ متأخّرة، وليس قبل ظهور الدعوة العبّاسيّة، وأنّ رائد الراونديّة إنّما هو الراونديّ المتوفّي سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م.

ولكن، إذا صحّ ذلك، يكون هنالك من تشيّع لبني العبّاس من منطلقات دينيّة قبل الراونديّة، ذلك أنّ المدوّنات تذكر عن فرق تشيّعت لبني العبّاس، انطلاقاً من أنّ الرسول قال: «يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن، يقال له السفّاح، فيكون إعطاؤه المال حثياً». ومن أنّ «الرسول أعلم العبّاس عمّه بأنّ الخلافة تؤول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقّعون ذلك». كما

١ - المسعودي، مروج الذهب، (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٢٥٢

في المدوّنات أنّ «أبا هاشم عبد الله بن محمّد ابن الحنفيّة خرج إلى الشام، فلقي محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، فقال له: يا ابن عمّ، إنّ عندي علماً أريد أن أنبذه إليك، فلا تطلعنّ عليه أحداً، إنّ هذا الأمر الذي ترتجيه الناس فيكم»، فردّ محمّد: «قد علمته فلا يسمعنّه منك أحد». ورُوي عن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، والد السفّاح، أنّه قال: «لنا ثلاثة أوقات: موت يزيد بن معاوية، ورأس المائة[1]، وفتق بإفريقية، فعند ذلك تدعو لنا دعاة، ثم تُقبل أنصارنا من المشرق حتّى تردَ خيولهم المغرب[2]»... وذكر بعضهم أن الخليفة مروان، كان قد «وجد في الكتب أنّ رجلاً له صفات أبي العبّاس (السفّاح) سيقتل الأمويّين ويسلبهم ملكهم»، فحاول جاهداً أن يقضي على هذا الرجل، إلاّ أنّ خطأً في تطبيق التشبيه بالمواصفات، أدّى إلى قتل إبراهيم، أخي السفّاح، بدلاً من السفّاح[3].

غير أنّ الراونديّة، وإن كانت قد شايعت بني العبّاس في الأساس، فلم يكن بنو العبّاس دعاتها أصلاً، بل كان ذلك القائد الخراساني الذي حقّق النّصر المبين على الأمويّين: أبا مسلم الخراسانيّ.وعندما قتل المنصور أبا مسلم تبيّن أن الراونديّين الخرسانيّين، لم يكونوا فعلاً من شيعة بني العبّاس، إنّما كانوا شيعة لأبي مسلم. فما أن وصل خبر قتل الخليفة العبّاسي الى القائد الخراسانيّ، حتّى ثار الراونديّون الخراسانيّون على الخليفة العبّاسيّ، وكادوا يطيحوه.

كان الراونديّون يقولون، تبعاً لتعاليم أبي مسلم الخراساني، بتناسخ الأرواح، وبأنّ روح آدم في عثمان بن نَهيك؟ وأنّ ربّهم الذي يُطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وأنّ جبريل هو الهيثم بن معاوية! وقد اعتبر بعض الباحثين أن الراونديّة قد طوّرت تعاليمها من التعاليم الكيسانيّة، ثمّ انفصلت عنها، وغدت فرعاً من فروعها، بعد موت ابن محمّد ابن الحنفيّة: أبي الهاشم. وقد اعتبر أتباعها أنّ

١ - رأس المائة: أي عندما يمر ٩٩ سنة على حكم الأمويّين.
٢ - السيوطي، ص ٢٥٦ - ٢٥٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.
٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤٠٩

الرسول قد نصّ على العبّاس بن عبد المطّلب ونصّبه إماماً، ثمّ نصّ العبّاس على إمامة ابنه عبد الله، ونصّ عبد الله على إمامة ابنه عليّ بن عبد الله، ثمّ ساقوا الإمامة إلى أن انتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور[1].

يجب أن يكون الراونديّون قد أصيبوا بالهلع والارتباك عندما قَتل المنصور، أبا مسلم الخراساني. فباعتبارهم أنّ المنصور هو ربّهم بالذّات، وهو من قتل الداعية الذّي علّمهم هذا الاعتبار. وبنتيجة هذا الارتباك، تجمّع هؤلاء أمام قصر الخليفة، وراحوا يصيحون وهم مصابون بما يشبه الجنون: «هذا قصر ربّنا». فكانت ردّة فعل المنصور أن أمر بالقبض على حوالى مائتي رجل من رؤساء القوم، ممّا زاد في غضبة أتباعهم، فتداعوا سرّاً إلى التجمّع، وأحضروا نعشاً في مكانٍ ما، وتظاهروا بأنّهم يسيرون في جنازة، حتّى إذا ما وصلوا إلى باب السجن، رموا النعش الفارغ، واقتحموا السجن، وأخرجوا أصحابهم. ثمّ توجّهوا إلى قصر الخليفة: «ربّهم المنصور»، وعددهم حوالى ستمائة رجل، وإذ خرج المنصور من قصره «تكاثروا عليه حتّى كادوا يقتلونه» لولا تدخّل بعض أنصار المنصور وإنقاذه، وقد تجمّع عليهم العراقيّون حتّى أبادوهم تماماً[2]. وقد كانت الكوفة مسرح جميع هذه الأحداث.

الخيبة الشيعية

بالعودة إلى انتقال الخلافة من الأمويّين إلى العبّاسيّين، وقد كان الشيعة، بجميع فروعهم وفصائلهم ومعتقداتهم، إمّا من المحازبين للعبّاسيّين، أو على الأقلّ، من المؤيّدين لهم، فإن هؤلاء الشيعة قد وجدوا أنفسهم على أبواب مرحلة جديدة من الصراع، فور اعتلاء السفّاح المنبر بعد مبايعته بالكوفة (قبل أن يتاح للشيعة

---

١ - راجع: د. صابر طعيمة، ص ١٦٠

٢ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٥٠٢ - ٥٠٥

الانتقام من بني أميّة) وإلقائه خطبته الأولى، لما ورد فيها من تأكيد على أنّ الخلافة إنّما هي من حقّ بني العبّاس، خاصة بعد أن أكّد هذا الأمر عمّ السفّاح: داود، الذي خطب هو الآخر معقّباً على خطبة الخليفة.

ففي خطبة الخليفة العباسيّ الأوّل: أبي العبّاس السفّاح، عند اعتلائه المنبر بعد المبايعة، جاءَ التالي:

«الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه وكرّمه وشرّفه وعظّمه واختاره لنا فأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقُوّام به والذابّين عنه والناصرين له، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها، وخصّنا برحم رسول الله، صلعم، وقرابته، وأنشأنا من آبائنا، وأنبتنا من شجرته، واشتقّنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عَنِتنا حريصا علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتلى عليهم، تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه: - إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرّجس أهلَ البيت ويطهّركم تطهيراً[1] -؛ وقال تعالى: - قُل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القُربى[2] -؛ وقال: - وأنذرْ عشيرتك الأقربين[3] -؛ وقال: - ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللّرسول ولذي القربى[4] -؛ وقال: - واعلَموا أنّ ما غنمتم من شيءٍ فإنّ لله خُمُسَهُ وللّرسول ولذي القربى واليتامى[5] -؛ فأعلَمهم جُلّ ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقّنا ومودّتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمةً لنا وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم».

حتّى هنا، لم ينفِ أبو العبّاس حقّ بني طالب بالخلافة، أو على الأقلّ، لم يحصر أهليّة البيت ببني العبّاس. على أنّ هذا ما سيبدو من بقيّة خطبته، إذ قال:

«زعمت السبئيّة الضلاّل أنّ غيرنا أحقّ بالرياسة والسياسة والخلافة منّا، فشاهت وجوهم، ولمَ أيّها الناس وبنا هَدى اللهُ الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم،

---

١ - الآية - ٣٣ : ٣٣

٢ - الآية - ٤٢ - ٢٣

٣ - الآية - ٢٦ : ٢١٤

٤ - الآية - ٥٩ : ٧

٥ - الآية - ٨ : ١٤

> وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحقّ، ودحض الباطلَ، وأصلحَ بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وتمّم بنا النقيصة، وجمع الفرقة حتّى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبرّ والمواساة في دنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منّةً ومنحةً لمحمّد، صلعم، فلمّا قبضه الله إليه قام بالأمر من بعده أصحابه وأمرُهم شورى بينهم وأعطوها أهلها وخرجوا صحاحاً منها. ثمّ وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزّوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما أملى الله له حيناً حتّى آسفوه، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا وردّ علينا حقّنا وتدارك بنا أمّتنا ووليَ نصرنا والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الذين استُضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا».

وقبل أن ينهي أبو العبّاس خطبته، كان قد اتّضح للعلويّين أنّ ما يعنيه العبّاسيّون بأهل البيت، إنّما هم أهل بيت عبّاس دون سواه. وقد تأكّد لهم ذلك تماماً، عندما عقّب داود، عمّ أبي العبّاس، على خطبة الخليفة الجديد بخطبة طويلة اختتمهابقوله:

> «... واعلموا أنّ هذا الأمر فينا (أي الخلافة) ليس بخارج منّا حتّى نسلّمه إلى عيسى بن مريم، عليه السلام، والحمد لله على ما أبلانا وأولانا[1]».

مأساة آل الحسن

لم تمضِ أيّام قليلة حتّى عاد الوضع العلويّ إلى ما كان عليه أيّام الأمويّين. إذ أصبح أحفاد عليّ موضع حذر، وصار العبّاسيّون يخشونهم، كما كان يفعل الأمويّون. وإذا أخذنا بعين الإعتبار أنّ بعض الشيعة، كانوا علويّين أكثر من أحفاد عليّ أنفسهم، أدركنا ما قد يسبّبه هؤلاء لهم من مخاطر.

كان بين القادة العبّاسيّين بخلال الثورة على الأمويّين، أبو سلمة الخلاّل. وعندما تغلّب أبو مسلم الخراسانيّ على الكوفة، وانتقل إليها أبو العبّاس وإخوته وأهل بيته، استقبلهم أبو سلمة، وعزلهم عن الناس، دون أن يدعهم يدركون

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٤١٣ ـ ٤١٤؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٥٠؛ السيّوطي، ص ٢٥٧

خلفيّة قصده. وبينما هم في الخفاء عنده، ورجاله يحيطون بهم إحاطة السوار بالمعصم، بحجّة حمايتهم، بعث أبو سلمة رسولاً إلى الإمام جعفر الصادق ومعه كتاب، يدعوه فيه إلى الخلافة. إلاّ أنّ جواب جعفر كان سلبيّاً حاسماً: «لست بصاحبكم، فإنّ صاحبكم بأرض الشراة».

رفْض الإمام الشيعيّ الصادق، حفيد الحسين، لم يثنِ أبا سلمة عن عزمه تصيير الخلافة إلى بني عليّ بن أبي طالب، فأرسل إلى عبد الله بن الحسن يدعوه إلى ما رفضه الصادق، فردّ عبد الله: «إنيّ شيخ كبير، وابني محمّد أولى بهذا الأمر». وراح عبد الله يطلب من الطالبيّين أن يبايعوا لابنه محمّد، فاعترضه الإمام الصادق ناصحاً بقوله: ـ أيّها الشيخ، لا تسفك دم ابنك. فإنّي أخاف أن يكون المقتول بأحجار الزيت[1] ـ».

في هذه الأثناء، اكتشف شيعة بني العبّاس، صدفة، مكان وجود أبي العبّاس وأهل بيته. فأخرجوهم من المخبأ، وتمّت المبايعة لأبي العبّاس، الذي جعل أبا سلمة وزيره قبل أن يكتشف حقيقة ميوله العلويّة، ولكن سرعان ما أمر بدقّ عنقه عندما أدرك الحقيقة.

أمام هذا الواقع، خشي بنو الحسن بن عليّ أنّ يتطوّر الأمر مع أبي العبّاس إلى ما لا تُحمَد عقباه، فقام عبد الله بن الحسن بن الحسن ومعه أخوه الحسن، وقصد الخليفة في العراق، فأكرمه أبو العبّاس، ثمّ إنّه فاتحه بأمر ابنه محمّد، الذي ما فتئ يعبّر عن كرهه له في أوساط المدينة، فخفّف عبد الله من أهمّيّة الموضوع، وردّ على الخليفة مطمئناً: «ما عليك من محمّد شيء تكرهه». أمّا أخوه الحسن، فقال للخليفة: «يا أمير المؤمنين! أتتكلّم بلسان الثقة والقرابة أم على جهة الرهبة للمُلك والهيبة للخلافة» ـ فقال أبو العبّاس: «بل بلسان القرابة!». ـ قال الحسن: «أرأيت، يا أمير المؤمنين، إن كان الله قضى لمحمّد أن يلي هذا الأمر، ثم أجلبت،

١ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٤٩

وأهلُ السموات والأرض معك، أكنتَ دافعاً عنه؟» - قال الخليفة: «لا» - فاستأنف الحسن: «فإن كان لم يقضِ ذلك لمحمّد، ثم أجلب محمّد، وأهل السموات والأرض معه، أيضرّك محمّد؟» - قال الخليفة: «لا والله، ولا القول إلاّ ما قلت... ولن تسمعني ذاكراً له بعد اليوم».

غير أنّه لم يمضِ وقت طويل، حتّى بلغ أبا العبّاس أنّ محمّداً قد تحرّك بالمدينة، فكتب إلى عبد الله يقول:

أريد حباءه ويريد قتلي، عذيرك من خليلك من مراد[1].

وهكذا استمرَّ السفّاح يعالج موضوع محمّد، مع عبد الله، حلماً، إلى أن توفّي السفّاح مصاباً بالجدريّ بعد أقلّ من أربع سنوات على خلافته. وخلفه، سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م. أخوه أبو جعفر المنصور.

كان الخليفة الجديد، أقلّ حلماً من أخيه. وإذ بلغه أنّ محمّداً قد تحرّك بالمدينة، خرج حاجّاً إلى مكّة، دون أن يدخل المدينة، وصار إلى الربذة، حيث أمر بجمع بعض العلويّين، ومعهم محمّد بن عبد الله بن عمرو أخو عبد الله بن حسن لأمّه، فسألهم عن محمّد بن عبد الله حفيد الحسن، فأنكروا معرفتهم بمكان وجوده، فتوجّه الخليفة بالتقريع لمحمّد قائلاً: «أقطعتك ووصلتك وفعلت... وفعلت... ولم أواخذك بذنوب أهل بيتك، ثمّ تستميل عليّ عدوّي؟ وتطوي أمره عنّي؟» ثمّ أمر به، فضُرب ضرباً شديداً، وطيف به بالربذة على حمار، وكذلك فعل بسائر العلويّين من سلالة الحسن، ثمّ نقلهم إلى سجن الربذة، وبقوا هناك حتّى ماتوا[2]».

وإذ تعاظم أمر محمّد، حفيد الحسن، في المدينة، أرسل الخليفة إليها رياح

١ - المرجع السابق، ج ٢ ص ٣٦٠ - ٣٦١
٢ - المرجع السابق، ص ٣٤٧؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٥٢٥ - ٥٢٧؛ المسعودي، مروج الذهب، (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٣٠٦ - ٣١١

ابن عثمان بن حيّان المريّ عاملاً، وأمره باستئصال المعارضة. وما أن وصل هذا إلى المدينة المنوّرة، حتّى اعتلى المنبر، وألقى خطبة شهيرة قال فيها:

«... يا أهل المدينة، أنا الأفعى ابن الأفعى ابن عثمان ابن حيّان وابن عمّ مسلم بن عقبة المبيد خضراكم، المفني رجالكم، والله لأدعها بلقعاً لا ينجو فيها كلب[1]».

من الطبيعيّ أن يكون هذا الكلام كافياً ليؤلّب المدينة ضدّ الخليفة العبّاسيّ، وليزيد من أنصار حفيد الحسن. وفي بداية سنة ١٤٥ هـ / ٧٥٢ م.، ظهر محمّد ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بالمدينة، وقد اجتمع إليه عدد كبير من أهل الحجاز، إضافة إلى ما جاءه من وفود وكتب من العديد من البلدان الإسلاميّة.

قاد محمّد الثورة على عامل العبّاسيّين الذي أهان أهل المدينة، فدكّه في السجن، وتوجّه إبراهيم، أخو محمّد، إلى البصرة، حيث راح يعمل في الخفاء على تجميع المؤيّدين.

كانت ردّة فعل الخليفة العبّاسيّ عنيفة، فأرسل على جناح السرعة جيشاً إلى المدينة بقيادة عيسى بن موسى الهاشميّ لاقتلاع الثورة العلويّة الحسنيّة من جذورها. وبالفعل، فقد شتّت هذا الجيش الثوّار وقتل محمّداً وأصحابه. أمّا في العراق، فقد قاد أخو محمّد، إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، ثورة مماثلة لثورة المدينة بالبصرة. فخلع العامل العبّاسي سفيان بن معاوية المهلّبيّ، وقبض على بيت المال، وفرّ مَن في البصرة من السلالة العبّاسيّة. ووجّه إبراهيم صاحبه المغيرة بن الفزع السعدي إلى الأهواز، حيث قاد هذا الأخير ثورة على العامل العبّاسي محمّد بن الحصين، وسيطر على مقدّرات الأهواز. ثمّ وجّه إبراهيم أحد قادته: يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب، إلى فارس، فدخلها وأخرج عنها العامل العبّاسيّ إسماعيل ابن عليّ. كذلك استولى اثنان من قادة الثائر الحسني العلوي على واسط، وكسكر،

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٧٥

لمّا حقّق حفيد الحسن كلّ هذه الانتصارات بالسرّعة المذهلة، لم يبقَ أمامه سوى الزحف على الخليفة بالذات. وإذ تجمّع إليه ستّون ألف مقاتل من شيعة البلدان، خرج في أوّل ذي القعدة من السنة نفسها (١٤٥ هـ / ٧٥٢م.) فالتحمت المعركة بقرب الكوفة حيث قاتل إبراهيم قتالاً مستميتاً بعد أن انهزم أكثر جيشه، ولم يبقَ معه سوى أربعمائة مقاتل. وبعد بطولات فريدة، قُتل حفيد الحسن، وأرسل رأسه إلى الخليفة العبّاسيّ أبي جعفر المنصور وهو بالكوفة. وكان الزيديّون أكثر الناس صموداً مع إبراهيم[١].

وكان محمّد، حفيد الحسن، عندما ثار بالمدينة، قد حاول تعميم ثورته على الأمبراطوريّة الإسلاميّة، فإضافة إلى أخيه إبراهيم الذي أرسله إلى البصرة، أرسل ابنه عليّاً إلى مصر، وابنه الثاني عبد الله إلى خراسان، وابنه الثالث الحسن إلى اليمن؛ كما أرسل أخاه موسى إلى الجزيرة، وأخاه يحيى إلى الريّ وطبرستان، وأخاه إدريسَ إلى المغرب.

كانت نتيجة هذا الانتشار الطالبيّ الحسنيّ، إضافة إلى مقتل محمّد وإبراهيم، مقتل عليّ بن محمّد في مصر، ومقتل إبنه الثاني عبد الله في السند بعد أن فرّ من خراسان، وموت ابنه الثالث الحسن في السجن باليمن؛ أمّا موسى، فسلم إلى حين في الجزيرة، وكذلك يحيى الذي كان نصيبه أن يواجه هارون الرشيد فيما بعد. وحده إدريس أخو محمّد، سوف تؤدّي مهمّته إلى شأن عظيم، إذ سوف تتأسّس دولة شيعيّة حسنيّة طالبيّة على يد أنصاره فيما بعد بالمغرب العربيّ، وإن كان أدريس قد اغتيل على أيدي عملاء الخليفة العبّاسيّ: المنصور. بيدَ أنّه كان لإدريس ولد اسمه هو الآخر إدريس، قاد الإمامة بعد موت أبيه، وأسّس دولة الأدارسة التي سيكون لنا عود إلى ذكرها[٢].

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٧٦ - ٣٧٨؛ المسعودي، مروج الذهب، (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٣٠٦ - ٣٠٧

٢ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٨؛ والجزء التالي من هذه الموسوعة.

بعد هذه النكبة التي مُني بها آل الحسن بن عليّ بن أبي طالب، لم ينجُ منهم إلاّ سليمان وعبد الله ابنا داود بن الحسن بن الحسن بن عليّ، وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وجعفر بن الحسن بن الحسن[١]. أمّا آل الحسين، فقد كانوا بعيدين عن هذه الأحداث بقيادة الإمام جعفر الصادق.

من جعفر الصادق إلى موسى الكاظم

كلّ هذه الأحداث، من انتهاء الدولة الأمويّة وقيام الدولة العبّاسيّة إلى الخيبة الشيعيّة ومأساة آل الحسن، مروراً بظهور الزيديّة والبيانيّة والمغيريّة والراونديّة، جرت في عهد إمامة جعفر الصادق[٢]، في المجتمع الشيعيّ التقليديّ الذي يمكن تسميته، مجازاً، بالمستقيم الرأي. والى جعفر، نُسب أصحاب هذا الرأي، الذي عُرف بالمذهب الجعفريّ، وقد أصبح عليه معظم الشيعة في العالم. وبخلال ثلاث وثلاثين سنة (١١٤ هـ / ٧٣٢ م. - ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م.) كان فيها حفيد الحسين هذا إماماً، قضى أربعة خلفاء أمويّون: هشام، والوليد، ويزيد، ومروان. وعُزل واحد: إبراهيم، وانتقلت الخلافة إلى العبّاسيّين، وقضى الخليفة العبّاسي الأوّل: أبو العبّاس السفّاح. وعندما توفّي الإمام الشيعيّ السادس، سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. كان العهد عهد الخليفة العبّاسي الثاني: المنصور عبد الله بن محمّد أبي جعفر، الذي قضى على آل الحسن، لخروجهم عليه، غير أنّه لمّا بلغه خبر وفاة الإمام الحسيني الصادق، «بكى، حتّى اخضلّت لحيته بالدموع، وقال: إنّ سيّدهم وعالمهم وبقيّة الأخيار منهم توفّي... ولقد كان ممّن قال الله فيهم: ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، وكان ممّن اصطفى الله، وكان من السّابقين بالخيرات[٣]».

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٥ ص ٥٢٧

٢ - راجع الفصل السابق ص ١٥١ وما بعدها.

٣ - اليعقوبي، ج٢ ص ٣٨٣

ولاغرو... فإنّ ذلك الإمام الحكيم، إنّما هو الذي قال: «أوصى الله إلى موسى بن عمران: أدخل يدك في فم التنّين إلى المرفق، فهو خير لك من مسألة من لم يكن للمسألة بمكان[1]».

وإذا كان هذا الإمام الجليل قد تمكّن من المحافظة على ما انتهجه جدّه زين العابدين عليّ بن الحسين في إمامته الرابعة من اتّقاء لمشاكل الحكم والسياسة، فهذا ما لن يتمكّن من المحافظة عليه، ابنه وخليفته، موسى الكاظم، الإمام السابع للشيعة، الذي سوف يموت مسموماً في سجن هارون الرشيد.

---

١ - المرجع السابق، ص ٣٨٢